جوزيه ماورو

روزينها زورقي الصّغير

رواية على إيقاع المجاذيف

مكتبة 669

رواية

ترجمة: صلاح بن عيّاد

مسكلياني

مكتبة | 669
سُر مَن قرأ

رُوزيها زَورقي الصَّغير

مكتبة | 669
سُر مَن قرأ

عنوان الكتاب الأصليّ
José Mauro de Vasconcelos
Rosinha, minha Canoa

تمّت هذه الترجمة عن النصّ الفرنسيّ
José Mauro de Vasconcelos
Rosinha mon canoë

جوزيه ماورو

روزينها زورقي الصغير

رواية على إيقاع المجاذيف

ترجمة: صلاح بن عياد

مسكيلياني

١٩ ٢ ٢٠٢١

مكتبة
t.me/t_pdf

الكاتب: **جوزيه ماورو دي فاسكونسيلوس**

عنوان الكتاب: **روزينها زورقي الصغير**

ترجمة: **صلاح بن عيّاد**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-153-2**

الطبعة الأولى: 2021

Copyright © (1962) Editora Melhoramentos Ltda., Brazil.

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

القسم الأوّل

نَبَاتات

(1)
ثرثرة عاشقة

عادةً ما تنتهي الأمور على هذا النّحو: يبتسم زي أوروكو لأنّه أدرك لتوّه أنّ الحياة جميلةٌ جدًّا.

راح المجذاف حينئذٍ يحدث صوتًا ناعمًا «بْلُوفْ، بْلُوفْ...»، فتحوّل على وقعه ماءُ النّهر إلى مُوسيقى، وصار الزّورق الصّغير ينزلق خفيفًا وكأنّه يطير.

كانت الشّمس تتخفّى بدفئها وفُتورها خلف الغيوم وتميلُ إلى ناحية الغروب حاملةً معها نورَ العشيَّةِ. وعلى الضفّة البيضاء الّتي تحدّ النّهر كان طائرُ لقلقٍ يتأمّل السّكون اللّانهائيّ، ويسترسل في الانتقال من نقطةٍ إلى أخرى، ثمّ يدور على رجليْه الطّويلتيْن ليعود أدراجه إلى نقطة الانطلاق. كان يبدو بشعًا وأخرقَ بطول قوامه وهو على الأرض، لكنّه يصبح ذا جمالٍ يقلّ نظيرُه عندما يحلّق في الفضاء.

هبّت ريحٌ متوسّطة البرودة فتسرّبت رعدةٌ إلى صدر الرّجل العاري. لكنّ ذلك لم يكن أمرًا سيّئًا تمامًا، فهو مجرّد إعلانٍ عن البرودة الكبرى الّتي عادةً ما تسود فصل الصّيف.

ابتسم زي أوروكو ابتسامةً أكثر صفاء. فقد شرد بأفكاره، في تلك اللّيالي الّتي تنقضي حول النّار بألسنة لهبها الحمراء وهي تلتهم

الخشب الجافّ، وفي ذاك اللاّنهائيّ من النّجوم الّتي تكون هناك قريبةً جدًّا من محادثات النّاس. وفكّر في الجسم الّذي تُنهكه شمس النّهار الحارقة فينام مدفونًا تحت أغطيةٍ دافئةٍ، مُلتمسًا الاحتماء من البرد الّذي عادةً ما يلفّ اللّيل.

كان شهر إبريل يوشك على نهايته. وهو ما يعني انعدام الأمطار الغزيرة حتّى حلول العام المقبل. ربّما تكون هناك بعض الزّخّات الخفيفة، وربّما تنهمر الأمطار غزيرةً ليومٍ واحدٍ، أمّا أن تستمرّ في الهطول فأمرٌ غير مُحتملٍ.

اختفى زي أوروكو في عمق النّهر. لا بدّ للرّجل من شجاعةٍ شيطانيّةٍ حتّى يغامر ويلج ذاك الجزء من النهر، ويغرز رمحَه الطّويل الّذي يصلّب اليدين حتّى يلمس القاع، ويحرّك المجذاف فيعوي تحت جهده ودمه الفائر وقلبه الّذي يكاد يقفز إلى خارج صدره. إنّها جهودٌ جبّارةٌ تُبذَل، فيما كانت بقيّةٌ ضوءٍ من النّهار تعْلق بين أشجار الغابة التي تبدو من بعيدٍ وكأنّها تنبتُ على صفحة السّماء.

هبّت الرّياح الباردة مرّةً أخرى، فضغط على الرّمح وعلّق وحيدًا، وجهًا لوجهٍ مع الله:

«مرحبا، أيّها الصّيف الجميل الّذي يحلّ علينا بمودّةٍ كبيرةٍ».

ولّما كان الله يكتفي بالابتسام كما تعوّد، من دون أن يجيبَ، فقد راح يجذّف ويجذّف.

نسيَ المشاهد الجميلة الّتي تحيطه وغرق في استعادة كلّ ما حدث. قبل ثلاثة أيّامٍ من لحظته تلك. كان قد بلغ حاجز بيدرا.

لماذا بعثوا إليه تلك الرّسالة؟ لقد كان مغتبطًا بالحياة، يصطاد ويضع الملح على سمكاته، وإذا بزورق «الهنديّ» يرسو على الشّاطئ فجأةً.

«ما الّذي يحدث، أنديدورا؟».

سحب أنديدورا زورقه إلى الرّمال وأجاب:

- زي أوروكو، يوجد بيتٌ هناك على حدّ قول الطّبيب. وهذا صحيحٌ تمامًا، لأنّه يملك صندوقًا مليئًا بالملابس وآخرَ بالأدوية.

- وما الّذي يريده منّي؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- لا أعرف.

سحب أنديدورا ورقة ذُرة من جيب بنطاله وراح يفرم شريحةً من التّبغ المجفّف في راحة كفّه، سائلًا:

- هل تريد القليل من السّينهارو؟

- لا أحبّ هذه السّموم القاتلة، كما تعلم.

ظلّ «الهنديّ» يتأمّل الأسماك المتنوّعة الّتي كانت تجفّ تحت أشعّة الشّمس، ثمّ انحنى لحَظةً، نافثًا أنفاسًا طويلةً من الدّخان ومستمتعًا بعينيْه نصف المغلقتين بجمال الظّهيرة. بعد ذلك، عندما انتهى من التّدخين، خلع ملابسه وارتمى في الماء الدّافئ. ثمّ نهض ونفض خصلات شعره الطّويلة، ارتدى ملابسه، وجلس إلى جانب زي أوروكو. إنّ زي أوروكو صديقٌ حقيقيٌّ! صديق كلّ ما هو هنديّ: سواء كان من شعب الكاراجا أو من الجافيا، يُقال أيضًا إنّه حينما ذهب إلى ريو شينجو، أصبح صديقًا لكلّ أولئك الهنود

ذوي العرق الغريب: شعب الكامايوراس وأولئك الّذين يمتلكون شفاهًا غليظةً واسمًا غريبًا، «التّكسوكرّامانس»، لأنّهم ينحدرون من «الكايابوس ليبّوس».

«هل ستذهب؟».

خفق قلبُ زي أوروكو خفقة اضطرابٍ. قطّب حاجبَيْه محاولًا التّغلّب على حدسٍ مشؤومٍ، ثمّ سأل:

- كيف يبدو الرّجل؟

- حسنًا، هو طويل القامة، بدينٌ بشعرٍ برتقاليٍّ تقريبًا، يغيّر قمصانه باستمرارٍ بسبب الشّمس، وإذا غادر قميصًا منها لا يستطيع التّحمّل طويلًا لأنّ له بشرةً بيضاء، بيضاء تمامًا. وله أيضًا صدرٌ كبيرٌ، لكنّه ليس مثل صدرك المليء بالتّعرّجات. عندما قدم أوّل مرّةٍ كان بطنه منتفخًا، لكنّه لم يحبّ أكلنا... وقد قلتُ في نفسي لعلّ ذلك في صالحه، لأنّه أخٌ للأب غريغورو الّذي قدم إلينا عبر نهر الأراغوايا منذ ما يقارب الخمس سنواتٍ...

عندما انتهى «الهنديّ» من وصف تلك اللّوحة، ظلّ يستردّ أنفاسه في انتظار سؤالٍ جديدٍ، فقال زي أوروكو:

- وماذا جاء يصنع هنا؟

- يقال إنّه يشفي النّاس. وإنّه يَخِز الجميع بإبرةٍ. ويعطيهم دواءً كثيرًا يتخلّص به الأطفال من ديدانهم... ويبرُد به الأشخاص المصابون بالحمّى.

- وكيف عرفني؟

- جرى الأمر كالآتي: كان الناس يأتونه فيعالجهم. ثمّ يسأل: «هل يوجد آخرون؟» فيأتي أناسٌ آخرون. ثمّ يُكرّر السؤال «هل يوجد آخرون؟» وهكذا... حتّى قيل له لم يبقَ غيرك. كيف جئتُ أنا إلى ركنك القصيّ؟ حسنًا، لقد طلبوا منّي أن آتيَ للبحث عنك. هذا كلّ شيءٍ. وها قد بلّغتك.

- نعم، تمامًا...

حكّ زي أوروكو شعره المتموّج المتوسّط الطّول. فراح اللّون الأبيض يطلّ في كلّ مرّةٍ من هنا ومن هناك.

- أنديدورا، هل تأكل معي؟

- أجل، وسأنام هنا. سنتحدّثُ كثيرًا.

- طيّب. مضى وقتٌ طويلٌ على آخر مرّةٍ تحادثنا فيها. ومؤكّدٌ أنّ ابنك «كَنَاري ساريوا» صار رجلًا.

ابتسم أنديدورا وهو يفكّر في ابنه اليافع. ولوهلةٍ أراد أن يكون في منزله.

- سأعطيك بعض سُكّر القصب وصنّارةً للصّيد، ستحملها إليه. موافق؟

- شكرًا.

ذهب أنديدورا لجمع بعض الحطب على الشّاطئ لإشعال نارٍ صغيرةٍ وشواء السّمك للعشاء.

ومنذ ذلك الحين، أي منذ ثلاثة أيّامٍ وزي أوروكو منكبٌّ على مجذافه يصارع من أجل صعود النّهر، وكانت أمامه ثلاثة أيّامٍ أخرى ليجتاز شريط ريو داس مورتيس، بعد خمسة أميالٍ من ساو فِليكس. سيصل في الصّباح الباكر إلى حاجز بيدرا.

عندما عاد من شروده تفطّن فجأة إلى اقتراب حلول اللّيل. لقد مرّ الوقت بعشوائيّةٍ وسرعةٍ. عليه إذن أن يعثر على مكانٍ جافٍّ كَنَسَتْه نسمة المساء الكفيلة وحدَها بطرد البعوض بعيدًا.

عاود زي أوروكو التّفكير فيها «هي» مرّةً أخرى، وقرّر أن يضع حدًّا لخلافهما. لقد ظلّت عابسةً يومين متتاليين، ولم توجّه إليه كلمةً واحدةً. ولمّا كانت كعادتها غير مُبادرةٍ بالبحث عن السّلام، فقد اضطرّ إلى أن يكون البادئ. فقال:

- صار الوقت متأخّرًا، ربّما علينا أن نرسوَ، أليسَ كذلك؟

لم يتلقّ إجابةً، وظلّ الصمت مُطبقًا فسأل مُجدّدًا:

- وماذا عن الشّاطئ هناك، ألا يُعجبك؟

وعندئذٍ تكرّمت بالرّد:

كشنغوـ، ديلينغو، تينغو... هذا لا يهمّني.

تسلّح زي أوروكو ببعض الصّبر. ثمّ لم يلبث أن صرخ:

- اللّعنة! لقد أصبحتِ صعبة المراس، في الأيّام الأخيرة!... تغضبين بسببٍ وبغير سببٍ. أكلّمك فتتظاهرين بعدم السّماع...

- كشنغو، ديلينغو، تينغو. مرّةً أخرى أنا المسؤولة عمّا يجري، أليس كذلك؟ أنا المخطئة دومًا. تجادلني، تغضب وبعد ذلك تصرخ لتقول إنّي المخطئة.

في مثل تلك الحالات، وكي لا تسوء الأمور أكثر كان عليه أن يعترف وأن يجد عذرًا مقنعًا:

- هذا لأنّي منزعجٌ كثيرًا بسبب قصّة الطّبيب هذه...

- كشنغو، ديلينغو، تينغو. لا بدّ من التّغيير إذَن. إذا قلتُ لك: سنرسو على تلك النّاحية من الشّاطئ، فإنّك تجذّف بقوّةٍ لترسوَ على النّاحية الأخرى. أنت لا تفعل سوى ما يروق لك...

- أعدك بأن أنتبه إلى ذلك.

توقّفا عن الكلام. كان اللّيل يزداد سوادًا. وأصبح من الصّعب رؤية ضفّة النّهر وبياضها الّذي راح يختفي، ويختفي...

ابتسم زي أوروكو في داخله. لقد بدأت صلابتها تلين. وليَقْطَع الصمت سألها:

- أيّ الأماكن ترينها ملائمة للرّسوِّ؟

- كشنغو، ديلينغو، تينغو. ثلاث ضرباتٍ أخرى من المجذاف ويصبح الرّكن مثاليًّا...

وعندئذٍ أضاف إلى صوته كلّ العسل النّابع من مصانع السّكّر البرازيليّة وقال:

- هل تحبّينني؟

- كشنغو، ديلينغو، تينغو. أحبّك. وأنت؟
- أعشقك.
- كشنغو، ديلينغو، تينغو. أنت تكذب.
- هل تريدين أن أقسم على ذلك؟ حسنًا. أقسم بالجراح الخمسة للقدّيس فرنسيس الأسيزي[1].
- كشنغو، ديلينغو، تينغو. لم يكن للقدّيس فرنسيس الأسيزي إلّا أربعة جراحٍ.
- بل كانت خمسةً. في قلبه جرحٌ غائرٌ لا أحد يستطيع رؤيته. ماذا إذَن؟
- كشنغو، ديلينغو، تينغو. إذا كان الأمر كذلك، فإنّي... إنّي أصدّقك.

تنفّس زي أوروكو الصّعداء. وبكبد السّماء، كانت «تاينا - كان»، نجمة الكارانجا الكبرى ترسم هالةً صغيرةً من البرد حول لمعانها السّاطع.

(1) فرنسيس الأسيزي: (1181 - 1226)، قدّيس كاثوليكيّ، مؤسّس ما يُسمّى «أحكام القدّيس فرانسيسكو»، فيها يدعو إلى احترام الحيوانات والنّباتات وكان يناديهم بالإخوة. التقى فرنسيس الأسيزي بالملك الكامل الأيوبي الأخ الأكبر لصلاح الدّين الأيوبي، سنة 1219.

(2)
حكاية رجلٍ بسيطٍ

كانت مادرينها فلور ترفع شعرها الّذي ينحدر فتائل دقيقةً على عينيْها كلّما انحنت على الموقد، تارةً لتأجيج النّار بإضافة الكثير من الأخشاب وتارةً أخرى لتحريك الحساء الكثيف في القدر الحديديّ المتآكل. ذاك ما دأبت على فعله طوال حياتها. وكانت عندما تنجح في الابتعاد عن الموقد تعمد إلى مسح يديها بتنّورتها الفضفاضة، لتوزّع ابتسامةً أو لتلقي كلمةً ودّيةً. وفي مثل تلك الفترات، تكون مشغولة البال حتّى إنّها قد تترنّم بأيّ شيءٍ: أغنيةٍ بلا كلماتٍ، أو كلماتٍ بلا معنًى. وكانت لذاك السّبب لا تتفطّن إلى شيكو دي أديوس وهو يدخل المزرعة نافضًا قبّعته المبلّلة بالأمطار الّتي لم تنتبه إلى نزولها ولو مجرّد انتباهٍ، إلى أن يقول:

- اللّعنة على هذه الأمطار القذرة!...

عندئذٍ، تلتفت مادرينها فلور وتبتسم. ثمّ تمضي في تأمّل السّحابة الكثيفة الّتي تنصبّ بكلّ ثقلها على ريو أراغوايا. فتتنهّد وتعاود الابتسام:

- اخرس شيكو. ما هي إلّا زخّاتٌ من المطر الجيّد ولن تدوم طويلًا.

- لن تدوم طويلًا، لن تدوم طويلًا... لكنّها لعينةٌ، لقد تبلّلتُ إلى النّخاع وهي لم تكفّ منذ خروجي من البريجاو.

- هل يُعقل أن يشكو رجلٌ في مثل حجمك الضّخم من قطرات مطرٍ ناعمٍ! فكّر قليلًا يا رجل، إنّ المطر هو ما يُنبت الذّرة في الحقول.

استندت إلى الباب وغرقت في تأمّل الصّفحة المائيّة الّتي راحت تنهال على النّهر المشرئبّ. في الضفّة الأخرى كان زورقٌ مدبّبٌ يسبح بأقصى سرعةٍ. قد يكون لهنديٍّ من الكاراجا. ويمكن أيضًا أن يكون لرجلٍ أبيض. يا لجمال النّهر! وتلك الأشجار، عندما تنتهي الأمطار ستصبح أجمل من أيّ وقتٍ مضى بخضرتها الرّطبة. كان كلّ شيءٍ يبدو جميلًا لمادرينها فلور. مضت سنواتٌ عديدةٌ منذ أن قدمت إلى ذاك المكان لتستقرّ فيه نهائيًّا. لقد جاءت مهاجرةً من عمق أعماق أرض مارانهاو. فأُعجِبت بالمكان وقرّرت البقاء فيه. وما عاد لأحدٍ أن يقتلعها من تلك الزّاوية. ظلّت السّنوات تتعاقب متشابهةً في نظرها. الأمطار والحمّى والبعوض. يأتي البرد أيضًا، وكذا اللّيالي المرصّعة بالنّجوم، وقد تشبّ النّار أحيانًا في أكواخ القشّ... إلّا أنّ افتتانها بالمكان ظلّ يتجدّد في كلّ مرّةٍ. لقد مضى وقتٌ طويلٌ، طويلٌ جدًّا، أتلفَتْ خلاله يديها في تغذية رعاة البغال و«الفاكييروس»[1] الّذين يريدون التهام كلّ ما لديها. وذاك كلّ شيءٍ.

---

(1) الفاكييروس: شعوبٌ تنحدر من البرتغال، فأصبحت تسيطر منذ القرن السّابع عشر على بعض الأراضي البرازيليّة.

التفتت ناحية الموقد وابتسمت مُجدّدًا. كانت حياتها عكس حياة شيكو دي أديوس تمامًا. فهو مهووسٌ بالتّرحال من دون أن يغادر جُحره. وكلّما عثر على مجلّةٍ قديمةٍ، بأوراقها المجعّدة والمبقّعة وبصورٍ لمناظر طبيعيّةٍ من العالم الفسيح، يفتّح عينين بارقتيْن ويحاول تهجئة المكان فيرتسم بقلبه مسار رحلةٍ مّا. وهكذا تمكّن راعي الأبقار المُسنّ من عبور شواطئ كوباكابانا وبوينس آيريس والرّيفيرا الفرنسيّة وألاباما... وكانت جمهوريّة الرّأس الأخضر أبعد مكانٍ وصل إليه، وذلك لأنّ له اسمًا جميلًا جدًّا. فالمتاهة المعقّدة لرؤاه الجغرافيّة توحي إليه بأنّ أيّ اسمٍ غريبٍ قرأه في إحدى مجلاّته مقلوبًا إنّما هو بلدٌ رائعٌ. وإذا حاول أحدهم تصحيح أفكاره المجنونة فإنّه سرعان ما يصبح متأهّبًا للقتال، فيسحب سكّينه ويُهدّدُ بإخصاء العالم بأسره! أمّا عندما تُتاح له الفرصة للتّعبير عن نفسه، فإنّه يمضي في شرح طريقته في فهم العالم. فالبحر مثلًا لا وجود له على الإطلاق. ليس هناك غير الأنهار الّتي تتقاسم الأرض فيما بينها. أنهار، ولا غير الأنهار. هو يعرف أنّها موجودةٌ بكثرةٍ، أمّا البحر!... من أين لهم بمثل تلك الغباوة؟ حفرةٌ عميقةٌ وسخيفةٌ مليئةٌ بالماء والملح؟ ينبغي أن يكون المرء أحمق حتّى يصدّق هذا الأمر. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ وهل تنزل الأمطار على البحر؟ وماذا لو لم تنزل، كيف يكون مملوءًا باستمرارٍ، هذا البحر مثلما يقولون؟... من الواضح أنّ البحر ليس إلّا واحدًا من تلك الأنهار الكبيرة مثل الأمازون الّذي يتحدّث عنه الصيّادون. لكن، ليس لأحدٍ أن يأتي ليحدّثه مُثرثرًا عن شيءٍ اسمه البحر يحيط بالرّأس الأخضر أو ما

شابه ذلك، ولْيَتَحمّلوا وحدَهم كلّ الخطايا الممكنة. إنّما هو حفرةٌ مليئةٌ بالمياه المالحة...

لكنّ شيكو كان رجلًا طيّب القلب، آه نعم! وأسوأ ما في الأمر أنّه لم ينجح في الخروج من جُحره، رغم رأسه الأشدّ صلابةً من حصاةٍ. وتَعْلَمُ مادرينها فلور كما يعلم الجميع أنّ شيكو دي أديوس يعرف ثلاثين ميلًا دائريًّا: شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا. وفي ما عدا ذلك، لا يبقى له سوى أن يقول وداعًا لأحلامه... وهكذا لُقّب بـ«شيكو دي أديوس»[1]. ولعلّ ذلك من حسن حظّه، فهو لم يكن يملك ألقابًا أخرى. كان قد ظهر فجأةً في ذاك المكان مثل بذرةٍ جرفتها الرّياح، ضئيلًا ببطنٍ منتفخٍ. فمكث، وكبر، وفعل ما أتيح له أن يفعل، ثمّ أصبح رجلًا. ولم يتزوّج قطّ لأنّه كان دائم الطموح إلى القيام برحلةٍ كبيرةٍ. رعى المواشي وهيّأ الأراضي لنباتاتٍ كثيرةٍ، ومارس طيلة حياته التجذيف واقتناص الدّوابّ بواسطة الحبال، إلى أن اشتعل رأسه شيبًا من دون أن يغادر مكانه أو يكفّ عن توديع أحلامه.

ابتسمت مادرينها فلور وهي تلمح شيكو دي أديوس بصدد مغادرة العريش متوجّهًا إلى الإسطبل الآيل للسّقوط، والأمطار ما تزال تتساقط على النّهر. إنّها أمطارٌ مباركةٌ، وشيكو دي أديوس رجلٌ طيّبٌ.

---

(1) أديوس Adeus وتعني: الوداع.

يومَ وصل الطّبيب إلى ذاك المكان، حرص على استدعاء الجميع، فاكْتُشِفَت أمراضٌ كثيرةٌ عندهم كلّهم، بعضها أكثر خطورةً من البعض الآخر، وقد مثّلت مناسبةً لكلّ فرد منهم كي يستنبط طريقته الخاصّة في ندب حظّه التّعِسِ، المثير للشّفقة... حتّى حان دور شيكو دي أديوس، نزع قبّعته ووضع يده اليمنى على رأسه، وقد بدا عليه الانزعاج لأنّه لم يكن يشكو من شيءٍ. لم يُصَب ولو بألمٍ بسيطٍ في الأسنان، أمّا رأسه فكان من صلابته عصيًّا على الصّداع. «الشّقيّ»، كذلك علّق في سرّه عندما عمد الطّبيب إلى ملء الجذاذة الخاصّة به:

- اسمك؟

- شيكو دي أديوس.

- شيكو دي أديوس؟ تودّع مَن بالضّبط؟

- ها! أديوس أديوس. أودّع الوداع. لا أكثر ولا أقلّ!

راح الطّبيب يحكّ رأسه المدوّر. ولسانُ حاله يقول: «كم تبدو فسيحةً وغامضةً هذه البرازيل!» ثمّ سأل:

- عمرك؟

- لا أعرفُ، سيادتك...

- تقريبًا؟

أراد شيكو دي أديوس أن يتصنّع بعض الذّكاء. لكن الذّكاء اصطدم بصلابة رأسه الحجريّ فخرجت العبارة محمّلةً بغباوةٍ طبيعيّةٍ.

- لم يكن لديّ عمرٌ البتّة، دكتور!...

تعالت ضحكاتٌ مكتومةٌ من تحت العباءات، لكنّ الطّبيب ظلّ محافظًا على طبعه الجادّ فالتزم الجميع الصّمت.

- هل تعاني من شيءٍ؟

- لا سيّدي...

- هل تعرّضت لنوباتٍ من الحمّى؟

- لا سيّدي...

- هل عانيت من الصّداع؟ من ألمٍ في البطن؟ هل عانيت بعض الأوجاع في الأعضاء التّناسليّة؟

- لا سيّدي.

- أنت إذَن لا تعاني من شيءٍ؟ لم تمرض في حياتك قطّ؟...

- حسنًا دكتور، منذ أربع سنواتٍ كنتُ أصطاد لحساب السيّد كاليميرو دي سوزا، في النّاحية الأخرى من النّهر، المكان الّذي نسمّيه آمارغوزينهو، لكن لديّ شكوكٌ في أنّ له اسمًا آخر، وعندئذٍ تعرّضتُ لشيءٍ مّا... هل يمكن أن أتكلّم دكتور؟

- أنا طبيبٌ. وإذا ما كنت هنا فمن أجل هذا. تكلّم.

- أرجو المعذرة، لقد أحسستُ بنوعٍ من المغص... اعتقدت أنّه بسبب الفلفل الّذي وضعته في حساء ذيل التّمساح مع بعض الموز النّيّئ...

ابتلع الطّبيب ضحكته وسأل مُجدّدًا:

- طيّب. والآن، هل تحسّ بشيءٍ مّا؟

وعندئذٍ لم تستطع باستيانا بريجاو أن تتماسك أكثر فهتفت:

- إنّك تضيعُ وقتك يا دكتور مع هذا الأحمق. فَوَحْشٌ مثله يرعبُ المرض في حدّ ذاته.

وعلى الفور انفجر شيكو دي أديوس صارخًا:

- هل تريد أن تعرف شيئًا يا دكتور؟ إنّها هي من يخيفني. فهذه اللاّشيء، ذات الصّوت الأنثويّ الّتي لم تعثر إلى الآن على ذكَرٍ لم تكفّ يومًا عن الرّكض خلفي مع الدّوابّ، كانت دومًا هناك في ممرّ ماتروكا، جالسةً على المنحدر، برجلَيْن مشرعتيْن في الفضاء، وبتنوّرتها المرفوعة لتخلّل الهواء، وهي تقول في نفسها إنّي قد أريد منها شيئًا. لكنّي لا أرغب فيها. لا بدّ للنّساء أن يكنّ أشخاصًا لا مثل هذه اليقطينة الّتي قد يتطلّب اقتسامها بين اثنين...

- اخرس أيّها المشعوذ! دكتور، تفحّصه جيّدًا، فأنا أعتقد أنّ أسماك البيرانا الضّارية قد افترست نصف ما لديه في الأسفل.

وغرقت باستيانا في الضحك حتّى احمرّت، فتدخّل الطّبيب بصوتٍ حازمٍ من أجل بسط النّظام:

- اصمتوا. أحتاج إلى الصّمت حتّى أتمكّن من متابعة عملي.

أمّا شيكو دي أديوس فقد ظلّ على تواضعه، متناسيًا ما جدّ من مناوشةٍ إلى أن عاود الطبيب السؤال:

- حسنًا، أنت لا تشكو من شيءٍ إذَن؟
- بلى سيّدي، أشكو من شيءٍ منذ أن كنت صغيرًا؟
- ما هو؟
- أشعر برغبةٍ عارمةٍ في السّفر.
- لكنّ هذا ليس مرضًا.
- تقول هذا لأنّك لم تُجرّب مثل ذلك الشعور قطّ...
- هيّا، اتركني باسم محبّة الربّ، إنّي أتحدّث عن الألم، الألم الحقيقيّ.
- آه! أمّا هذا فلا، لا أشعر بشيءٍ منه، وهذا بفضل معلّمي، القدّيس أنطونيو كاتنجريبا، القدّيس الوحيد الطّيب. إنّه أسود مثل قعر القِدر. هل سمعت عنه يا دكتور؟

لكنّ الطبيب ضاق ذرعًا فقرّر أن يحسم الأمر معه:

يا شيخ! مادُمت لا تشعر بأيّ ألمٍ فلِمَ أتيتَ لاستشارتي؟

- لم أسعَ إلى استشارتك دكتور. لكنّهم قالوا إنّك تريد أن تفحص الجميع.

اختفت الأمطار من منحنى النّهر. وأطلّت الشّمس بأنفها مجدّدًا خارج الغيوم، فيما ظلّت مادرينها فلور تنظر إلى النّاحية الأخرى من الحظيرة. كان الطّبيب نائمًا على سريره المعلّق الأقلّ ترهّلًا، ذاك المخصّص لفحص المرضى. وكان يشخر، شخيرًا مطوّلًا... وقدمه تتأرجح وفق إيقاعٍ منتظمٍ، وتصطدم بأسفل

العريش. مؤكّدٌ أنّ تلك النّومة الثّقيلة بسبب الحرارة، فهو لم يكن متعوّدًا عليها. كان ذا بشرةٍ ناصعة البياض، شديدة الشّحوب قبل أن تصبح بنّيّةً تحت لفح الشّمس الحارقة. والحقّ أنّ مادرينها لم تتمكّن من فهمه. لقد قال من قبل إنّه انحدر متّبعًا النّهر من عند ليوبولدينا، وإنّ محطّته الأخيرة عندهم، إذ عليه أن يعود أدراجه خلال أسبوعٍ. وكان الأسوأ عنده أن يعود مرّةً أخرى بعد عامٍ لمعاينة النّتائج. وفي تلك المرّة، سينزل إلى مكانٍ أكثر انخفاضًا من أجل تقديم فحوصاتٍ أكثر... آه! يا لهؤلاء الأثرياء، إنّهم غريبو الأطوار دومًا!... ولكن مادام موجودًا، لماذا لا يواصل نزول النّهر إلى حدود بيليم؟ حسنًا، قال إنّه لا يملك الوقت... لكن... ماذا يمكن أن يقدّم كلّ ذلك لها؟ إنّه من شأنه وحدَه... كانت تقول في نفسها «هو ولا شكّ يرغب في العودة إلى دياره، نعم تمامًا!... ليلتقي بزوجته وأطفاله». كان يحتفظ في حقيبته بصورةٍ فوتوغرافيّةٍ لامرأةٍ لها شعرٌ في منتهى التّوضيب، ناعمٌ وفاتح اللّون، تحيطها حفنةٌ من الأولاد والبنات يبدون في غاية اللطافة... بأحذيةٍ وألبسةٍ جديدةٍ، ونظافةٍ لا تُخطئها العين.

وضعت مادرينها فلور القهوة على نارٍ هادئةٍ. كان عليها مناداة الطّبيب، لتُناوِله القهوة، وتقول له إنّ السّاعة بلغت الرّابعة تقريبًا، وإنّ عليه أن يذهب ليفعل أيّ شيءٍ، وإلاّ لن يتمكّن من النّوم في تلك اللّيلة، ولن يكفّ عن الثّرثرة. ستنفتح محادثةٌ بلا نهايةٍ، فيقول تلك الأشياء الّتي لن تتمكّن من فهمها. وستكون ملتهبة العينين من فرط النّعاس، وكلّها رغبةٌ في الاستلقاء على السّرير المعلّق، لكنّه

لن يتفطّن إلى شيءٍ من ذلك. سيتكلّم ويتكلّم... ناسيًا أنّ عليها في الغد قبل الفجر أن توقظ الدّيوك وتفصل بين الدّجاجات، وتعرف الّتي ستبيض لتحبسها في مكانٍ مغلقٍ حتّى لا تلتهم الحيوانات الأخرى البيضَ ككلّ حيوانات الأرياف.

أطلق إبريق القهوة أوّل نفحة بخارٍ. تناولت الكوب القديم وسكبت فيه من السّائل الأسود وهي غارقةٌ في أفكارها: «من المؤسف ألاّ تجلب لي تلك السّفن المتواترة أدواتٍ جديدةً. لطالما أوصيت بذلك، لكنّ الأمر ليس سهلًا ولاسّيما إذا لم نملك الفِلْسَ اللّازم. لو كان لي الآن من تلك الأواني البيضاء المذهّبة شيءٌ ما كان لي أن أقدّم القهوة للطّبيب، هذا الشّخص المحترم، في هذا الكوب الحقير...» ثمّ راحت تواسي نفسها: في الحقيقة، مؤكّدٌ أنّه يعي الأمر جيّدًا، فهو في عمقٍ سحيقٍ من سيراتاو في أطرف أراغوايا، وسط جزيرة البانال، لذلك لا يمكنه أن يحظى برفاهيّة المدينة ولا براحة الفنادق. وحالما بلغت بها أفكارها ذاك الحدّ توجّهت صوب السّرير المعلّق، رجرجت الحبل، وانطلق صوتها ناعمًا:

«دكتور، قليلٌ من القهوة؟».

تثاءب الرّجل فاتحًا عينيه كأنّه يكتشف ما يحيط به لأوّل مرّةٍ. كانت جفونه المحمرّة مثقلةً بالكسل والرّخاوة. أدخل يده إلى ما تحت قميصه المفكّك الأزرار وراح يحكّ صدره الأبيض والمشعّر. وصوت المرأة يُضيف:

- إلاّ إذا كنت تفضّل شيئًا من نقيع الخلّ...

- لا، لا مادرينها فلور. القهوة أفضل. إنّها تنشّطني.

وبعد لحظاتٍ راح يرتشف رشفاتٍ مقتضبةً من المشروب المُحلّى والدّافئ. ولم يلبث أن سأل:

- هل وصل الرّجل؟

- زي أوروكو؟ ما من شكّ في أنّه على وشك الوصول إذا كان أنديدورا قد نقل إليه الرّسالة في وقتها. أحسبه في هذه الساعة بالذات بصدد الاقتراب من حاجز بِيكي، أعلى ريو داس مورتيس. ألا تريد الذّهاب للسّباحة دكتور؟

- فكرةٌ جيّدةٌ. هل يمكنك مناداة الصّغير؟

اقتربت مادرينها فلور من الباب وصرخت صوب النّهر وكأنّها تتوجّه إلى النّاحية الأخرى من العالم:

«جيريبيل! هاي! هاي! جيريبيل!...».

ظهر الصّبيّ في لمح البصر وهو يركض قادمًا من الجُرف. كانت أسنانه تشكّل صفّين أبيضين ودقيقين مثل رمل الشّاطئ. وكان يمسك بيدٍ قضيب صنّارته وبالأخرى صفًّا من أسماك البيرانا الضّارية وهي ما تزال تتلوّى مطالبةً بحياتها.

- ها قد جئت، مادرينها.

- أعدَّ الزّورق وانقل الطّبيب إلى «الشّاطئ الواضح» في النّاحية الأخرى، حتّى يتمكّن من السّباحة.

كان الطبيب ما يزال طريح السّرير المعلّق، متأرجحًا مثل غيمةٍ

عالقةٍ تحت ثقل بقايا النّعاس الّذي تفرضه الأنحاء. ارتفعت عيناه الثّقيلتان ببطءٍ إلى ساقي مادرينها فلور. اكتشف أنّهما قويّتان ورشيقتان بما يكفي، وللمرّة الأولى لاحظ أنّ تلك المرأة مازالت في مقتبل العمر. رفع عينيه قليلًا لتقعا على وركيْها المدوّرين والمقولبيْن داخل تنّورةٍ خشنةٍ. شعر في داخله برغبةٍ مزعجةٍ لكنّها ممتعةٌ في الوقت نفسه...

التفتت المرأة إليه وقالت:

«لقد ذهب جيريبيل ليعدّ الزّورق. سيعود سريعًا».

راحت عينا الطّبيب تقلّبان بقيّة جسدها من دون أن توحيا بذلك. وإذ أخذت الكوبَ وتوجّهت صوب المدخنة انتصب الرّجلُ واقفًا ومتمطّيًا. فتح حقيبته وتناول الصّابونة والمنشفة... تمطّى من جديدٍ إلى أن صدرت طقطقة من عظامه، استند بظهره إلى الباب، وراح يتأمّل النّهر الّذي كان يبهر العينين بسطوع أضوائه. بعد ذلك دخل مُجدّدًا. كانت قطرةُ ماءٍ تنحدر مع رقبته وتختفي في برّ صدره المبتلّ، وكلّما تراكمت القطرات تنتهي بأن تفيض على قميصه.

- أريد أن أعرف المزيد عن الرّجل. ما اسمه؟ زي ماذا؟

- زي أوروكو.

كان هناك شيءٌ يطرطش بروعة فوق النّار، وتصاعدت تلك الرّائحة القويّة للدّهون.

- كيف انتهى به المطاف إلى هنا؟

- حدث ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ. كنت في أوج الشّباب، وهو

كذلك. لم تكن هناك أكواخٌ حينئذٍ على مستوى حاجز بيدرا. كلّ ما أتذكّره هو أنّ رجلًا وصل وكان حزينًا. يقال إنّه قدِم من المدينة وبقي هنا. سكن أماكن عديدةً على حافّة النّهر، لكنّه في النّهاية خيّر العيش هنا. ولقد داوم منذئذٍ حتّى الآن على الصعود كلّ سنةٍ إلى ليوبولدينا لتلقّي النّقود الّتي يتمّ إرسالها إليه من المدينة. أسميناه زي أوروكو، فبقيَ زي أوروكو. إنّها قصّةٌ في غاية البساطة يا دكتور.

- ألم يعلم أحدٌ بالسّبب الّذي دفعه إلى المجيء إلى هنا؟

- لا أحد، عدا الله. لأنّ زي أوروكو لم يكن يخبر أحدًا بشيءٍ.

وابتسمت مادرينها فلور وهي تُضيف:

- قبل أن يصبح ما هو عليه الآن، كان لي ابنٌ منه. لقد مات، كان ملاكًا صغيرًا بهذا الحجم.

ورسمت بيدها في الفضاء حجم الميّت الصّغير.

سحب الدّكتور سيجارة من جيب بنطاله وقدح عود الثّقاب، ثمّ عاد إلى تفحّص المرأة بضربٍ من الإلحاح في تلك المرّة. وكان في داخله يوبّخ نفسه: «أنا مضطربٌ مثل شيطانٍ هذا اليوم!» ولم يلبث أن سأل:

- هل مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن أصبح هكذا؟

- بصراحةٍ، لقد فقدت الإحساس بالزّمن. لكن يمكنني القول إنّه رحل منذ أن عثر على هذا الزّورق اللّعين.

- هل يحدث أن يكون عنيفًا أحيانًا؟

مسحت مادرينها فلور يدَيها في تنّورتها كاشفةً بغير قصدٍ عن جزءٍ من فخذها الممتلئ فوق ركبتها بقليلٍ وهي تُجيب بدهشةٍ:

- ماذا تقول؟ إنّه يتكلّم دومًا بكلّ هدوءٍ، ولا يغضب البتّة. وهو خدوم بلا مثيلٍ. يقدّم المساعدة لكلّ أولئك الّذي يمرضون. ويعير أدواته لكلّ من يستحقّها. يعطي صنّاراته، يقتسم ثيابه مع الآخرين... غير أنّه...

- غير أنّه ماذا؟

- حسنًا، هو أمرٌ يحدث فجأةً. يداهمه حزنٌ فلا يتركه. يكفّ عن التّحدّث مع أيٍّ كان كما يكفّ عن الأكل. فيبدو وكأنّه فقد البصر والسّمع. وفي كلّ مرّةٍ أحسبه فقَد عقله ولا ينقصه من الجنون سوى أن ينقضّ على الجميع فيقتلهم. عندما تفاجئه تلك الحالة، لا تعنّ له سوى فكرةٍ واحدةٍ: أن يختفي مع زورقه، فيمضي في رحلة صيدٍ في البحيرات والممرّات ويغيب عن الأنظار شهورًا عديدةً.

- وماذا عن الزّورق؟ هل صحيحٌ ما يُروى في شأنه؟

- لم أرَ بأمّ عينيّ، لكنّ النّاس يقولون إنّهم سمعوه.

صمتت مادرينها لحظةً ثمّ تابعت:

- لكنّ كلّ ما يحدث في النّهر نعلمه، لأنّ زي أوروكو يرويه مُسبقًا: الأمطار في الأعلى، وما إذا كان النّهر سيرتفع، وما إذا كان سربٌ من الأسماك على أهبة النّزول... إنّه يعرف كلّ شيءٍ.

- لكن كيف يتمكّن من تخمين ذلك؟
- يُقال إن روزينها تخبره بكلّ شيءٍ.
- من تكون روزينها هذه بحقّ الشّيطان؟
- إنّه الاسم الّذي به عمّد زورقه!
- وهل تعتقدين أنّ الزّورق قادرٌ على معرفة كلّ شيءٍ؟
- لا أعلم دكتور. لكنّنا نرى أشياء كثيرةً غير مألوفةٍ في كلّ مكان من حولنا....
- لكن، كيف يمكن للزّورق أن يعرف كلّ هذا؟
- من محادثاته مع الأسماك، مع الدّلافين، مع أسماك البيرانا، مع الغربان، مع اللقالق...

ابتسم الطّبيب. إذ بدا له أنّ زي أوروكو ليس وحدَه المصاب بالجنون. ومهما يكن من أمرٍ، هؤلاء النّاس الطيّبون في قمّة البساطة..

- إنّه هنا يا دكتور.
- من؟
- جيريبيل.

نظر الطّبيبُ إلى الأسود الصّغير الّذي كان يبتسم ابتسامةً ناصعة البياض وسأله:

- أين ذهب الآخر؟ لو كورو.
- لو كورو رحل في الصّباح الباكر مع شيكو دي أديوس للاعتناء ببقرة ولدت حديثًا.

- هيّا بنا.

- الزّورق هناك، بالقرب من الصّخرة المقابلة.

قال جبريل ذلك وهو يشير بيده، وحين مرّا من أمام العرائش كان الجميع منصرفين إلى شؤون حياتهم الصّغيرة ككلّ يومٍ، فلم يهتمّوا بما يفعله الطّبيب، وقد تعوّدوا على رؤية هيئته البدينة الحمراء.

- انظر دكتور إلى ذاك المثلّث الصّغير المطلّ أعلى زهور السّيمبابا!

رفع الطّبيب عينيه إلى حيث أشار جيريبيل فاستطرد:

- حسنًا، إنّه جزءٌ من سقف كوخ زي أوروكو.

- ومن يعتني به عندما يكون مسافرًا؟

- لا أحد. إلاّ إذا عبر من المكان هنديٌّ، فله أن يقضي فيه ليلته. لا أحد يتجرّأ على المساس بأشياء زي أوروكو، لأنّه لا يرفض طلبًا لأحدٍ مهما كان.

مكتبة
t.me/t_pdf

خطرت للطّبيب فكرةٌ فهتف به:

- هاي! جيريبيل! هل تعرف زورق زي أوروكو؟

- نعم أعرفه. إنّه الروزينها.

- كيف حصل عليه؟

- من هنديٍّ كان على فراش الموت فأهداه إيّاه. إنّه شيخٌ قصيرٌ يُدعى كوروماري.

- وهل حدث أن رأيت زي أروكو يتحدّث مع «الروزينها»؟

التفت جيريبيل ناحية الطّبيب بعينين جاحظتين بدا أبيضاهُما مثل شفتيه وقد غزتهما رعشةٌ وهو يقول:

- بصراحةٍ دكتور، أبي لا يحبّ أن أتحدّث في الأمر.

- لكن، لماذا الخوف من مجرّد زورقٍ؟

- إنّها سيّئةٌ. لها ما للاتيني من قدراتٍ.

مرّةً أخرى ألفى الطبيب نفسَه يستمع لهؤلاء النّاس وهم يحدّثونه بأشياء لا يفقه منها شيئًا:

- ومن تكون لاتيني هذه بحقّ الشّيطان؟

- أنت من يقول ذلك.

وسارع الفتى برسم إشاراتٍ وتقبيلِ طرف إبهامه.

- إذَن، لاتيني هي الشّيطان؟

خفض جيريبيل رأسه، وقال على مضضٍ:

- لاتيني، هي الآلهة السيّئة لهنود الكاراجا...

عندما أدرك الطبيب أنّه لن يتوصّل إلى اكتشاف شيءٍ يُذكر اكتفى بالصّمت وهو يمشي مدخّنًا سيجارته. لقد ترك عالم البيض واقتحم مجال الهنود. إنّه مجالٌ كلّ ما فيه عددٌ قليلٌ من الأكواخ غير المتناسقة متفرّقة هنا وهناك، والفراغ الطاغي على كلّ شيءٍ. وأمام واحدٍ من تلك الأكواخ، لمح عجوزًا جالسةً على الأرض، وهي بصدد ضَفْر حصيرةٍ من القشّ بأصابع ناتئةٍ. كانت تُؤدّي ذلك بكلّ براعةٍ من دون أن تركّز عينيها على ما تصنعه. وكان في

فمها غليونٌ مطفأٌ وأصابعها لا تكفّ عن الفصل بين الألياف ثمّ عقدها.

- توقّفت الأمطار الآن، النّهر منخفضٌ، ولا وجود لغير الهنود الّذين يعيشون على الضّفاف، في مواجهة الشّمس. هنا يكون كونهازينها وأريوري دومًا بصدد القفز في المياه. ها هو الزّورق دكتور.

نزل جيريبيل المنحدر بسرعةٍ وهو ينظر ببعض السّخرية إلى تثاقل الطبيب أثناء نزوله خلفه. ثبّت الزّورق إلى حين صعوده. ولمّا رأى الرّجل قد تمكّن من الاستقرار في المقدّمة عمد إلى دفع الزّورق فاتّخذ مكانه في مجرى المياه. ثمّ راحا يبتعدان. وكان أثرُ الشّمس الحارقة قد خفّ بفعل الرّياح الآتية من الضفّة الأخرى.

بعيدًا، كانت طيور المانغاريا تحوم في سماء النّهر وهي تدقّق النّظر لتفوز بصيدٍ مّا. وجيريبيل يجذّف بكلّ فخرٍ. ففي تلك اللّحظات، يحسّ بأنّه رجلٌ، مادام يضطلع بمسؤوليّة رجلٍ. إنّه ينقل بقوّةٍ ذراعيه الشّخصَ الأكثر أهمّيةً من بين كلّ من التقاهم في حياته بعد الأب سيرافيم الّذي لم يظهر في الجوار منذ أكثر من ثماني سنواتٍ.

كان الزّورق يخترق أجماتٍ من نباتات السّارندي فتنطلق طيور الجاكو صاخبةً وتطير لتحطّ على أغصان شجر البيكي محرّكةً ذيولها ذات الألوان الزّاهية.

- هذه الطّيور، لا أحد يأكلها دكتور. فلها ضرباتٌ مثل ضربات

العصا. لكن أفضل ما في الأمر هو أن نحصل على واحدٍ منها ونشدّه إلى شصٍّ كبيرٍ ليعلق به تمساح أثناء اللّيل.

وصلا إلى الشّاطئ المقصود. كانت هناك أكوامٌ من القشّ القائمة في شكلِ أكواخٍ على مدى الشّاطئ الأبيض. قطّب الطّبيب حاجبيه تعبيرًا عن عدم رضًا غامضٍ، ففهم جيريبيل الأمر وراح يشرح له:

- ألم تأتِ إلى هذا المكان من قبل؟ ألم يقُدْك لو كورو إلى هنا؟ حسنًا، هذا شاطئنا المفضّل.

توقّف الطّبيب غارزًا قدميه في الرّمل، فبدا كمَن يرفض التّقدّم أكثر. عندئذٍ أضاف الفتى:

- هل تعتقد أنّ هناك هنودًا. لا، لا يوجد أحدٌ منهم هنا. لقد رحلوا جميعُهم باكرًا للصّيد في ريو داس مورتيس. يمكنك الاستمتاع بحمّامك كما تريد. لا يوجد أحدٌ.

كانت الرّياح المعتدلة والمنعشة قد أبعدت البعوض نهائيًّا، ثمّ تحوّلت إلى نسمةٍ تتدحرج على الرّمال متكاسلةً ولعوبًا لتظهر بعيدًا بارقةً ورشيقةً مثل ثعالب الماء. عاد جيريبيل سابحًا إلى حدود الشّاطئ وضحك وهو يقول:

- يمكنك القدوم دكتور، لا وجود لأسماك البيرانا الضّارية هنا.

التفت الطّبيب إلى النّاحية الأخرى وشرع ينزع ثيابه. ثمّ خطا خطواتٍ واسعةً في اتّجاه النّهر فلبث جيريبيل يرمقه ثمّ قال:

- إنّك مشعّر مثل القردة!

غطس الطّبيب وجلس في الماء، وراح شعر جسده يطفو على السّطح ويتموّج.

فخمّن جيريبيل: «لهذا إذَن لا يريد الاستحمام أمام النّاس». ثمّ سأله:

- «لماذا تبدو أنت هكذا، ويبدو الهنود بجلود ملساء؟»

ضحك الطّبيبُ ولم يعثر على تفسيرٍ يسعف به الطّفل فأجاب بعفو الخاطر:

- هكذا هو الأمر. تمامًا كما في حال اللون، هناك البيض والسّود وآخرون مثل الهنود.

وأخذ الصّابونة وراح يدعك جسده الأبيض، ثمّ قدّمها للفتى:

- تفضّل، خذ الصّابونة.

تناولها جيريبيل من يده ورفعها إلى أنفه واستنشق منها بعمقٍ وتلذّذٍ:

- أوف... من الجيّد أن تكون ثريًّا! يمكننا الحصول على أشياء زكيّة الرّائحة مثل هذه الصّابونة!

ثمّ أغمض عينيه في انتشاءٍ ومرّر الصّابونة على كلّ جسده مثلما فعل الطّبيب، فسأله:

- هل تعجبك؟ عند رحيلي، سأترك لك واحدةً. أملك الكثير منها.

- إنّها تفوح برائحةٍ طيّبةٍ إلى درجةٍ تجعلك تفكّر في أكلها. يحزنني أن أبلّل نفسي، سأفقد كلّ هذه الرّغوة الرائعة...

ضحكا سويًّا وارتميا في الماء في الوقت نفسه.

بعد ذلك جلسا على الشّاطئ ليجفّفا جسدَيهما.

- جيريبيل!

انتبه الأسود الصّغير إلى الطبيب وهو يستطرد سائلًا:

- هل مادرينها فلور مرتبطةٌ بأحدٍ هنا؟

- لا سيّدي.

- لكن، ألم تُنجب طفلًا من زي أوروكو؟

- بلى، كان ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ... لكنّها الآن...

وضحك بمكرٍ دفع الدكتور إلى الإلحاح:

- الآن، ماذا؟

غمز جيريبيل بعينه وقال:

- قديمًا تزوّجت مرّاتٍ عديدةً، لكنّها منذ وقتٍ طويلٍ لم تفعل...

تناول الطبيب منشفةً، ثمّ ابتسم وألقى نظرةً على شمس الأصيل وقد بدأ اللّيل يجرّها إلى أكمامها.

(3)
لغةُ الأشجار

شدّ الزّورق إلى المجذاف المغروز في رمال الشّاطئ. وابتعد عن المياه والرّمال النّاعمة تنبسطُ من تحت رجليه: شُكْ، شُكْ، شُكْ...

كان زي أوروكو يحثّ الخطى على الشّاطئ باحثًا عن بعض الحطب الجافّ قبل أن تميل الشّمس نهائيًّا إلى مرقدها وحتّى يتمكّن من بثّ بعض الدّفء في صقيع اللّيل.

عاد بعد قليلٍ بظهرٍ مقوّسٍ تحت كومة من الأغصان اليابسة. راح يقترب من الزّورق الصّغير. رمى الحطب أرضًا وحكّ يدًا بيدٍ، ثمّ لامس كتفيه المتقرّحتين.

«أوف! يا للشّيطان! حمولة الحطب على الشّاطئ تصبح حمولتيْن».

اختار بعض الأغصان الدّقيقة وشرع يُعدّ النّار. قفز بهدوءٍ إلى الزّورق وبحث في معدّاته، تناول المقلاة والطّنجرة. ثمّ أخذ قطعةً كبيرةً من السّمك. كان يفعل كلَّ ذلك هادئًا: لا بدّ لحياةٍ مثل حياته أن تكون بلا صدماتٍ، بل منتظمةً. لبث يفكّر في الطّبيب وفي اللّيلتيْن اللّتيْن سيقضيهما في العراء قبل الوصول إلى حاجز بيدرا، في اليومين المشمسيْن الطّويليْن والحارقيْن اللّذين سيحكّم على مداهما المجذاف والمخطاف... تشمّم رائحة جسده. كان في حاجةٍ ماسّةٍ

إلى الاستحمام. فسحبُ الزّورقِ بقوّة السّاعد تحت الشّمس عملٌ يُغرق الجسد في عرقٍ غزيرٍ له رائحةٌ كريهةٌ. قدّر أنّ من الأفضل له أن يستحمّ حتّى قبل إعداد طعامه، فعمّا قريبٍ، عندما يبدأ اللّيل بنشر ظلامه، وقبيل أن ينتشر البرد، سيهجم البعوض على شاكلة عصاباتٍ هائجةٍ، طانّة ولاذعة، ويعلم اللهّ كم سيكون لدغها مؤلمًا. خلع ملابسه وبحث عن مكانٍ في النّهر مياهُه صافيةٌ ومتدفّقةٌ خوفًا من أسماك البيرانا الضّارية. ارتمى في الماء بكلّ رضًى، ظلّ ممدّدًا ليريح كليتيْه المتعبتيْن. ملأ فمه بالماء ثمّ بصقه عاليًا محدثًا ما يشبه النّافورة. هناك بعيدًا كان ما يزال ركنٌ أزرق من السّماء. وفوقه تمامًا اللّقلق نفسه وهو يحوم دائريًّا مسايرًا اتّجاهَ الرّيح، فيما راحت أزواجٌ من الببّغاوات تتقاطع، وألقت غيمةٌ مباغتة بظلّها على جسده وعلى جزءٍ من الزّورق، ثمّ رحلت سريعًا.

ظلّ ممدّدًا على ظهره غارقًا في تأمّل السّماء الفسيحة. نعم، عليها أن تكون بتلك الفساحة حتّى تستوعب مشيئة الله الخيّرة. كانت المياه تسيل بهدوءٍ قُرب أذنَيه. راحت أسماك الرّمال الصّغيرة تداعب أسفل قدميه من حينٍ إلى آخر. أغمض عينيه، مستسلمًا لصمت تلك السّاعة وغمرة السّلام الّتي اكتنفت قلبَه... ثمّ فتحهما فلاحظ أنّ اللّيل جنَّ على حين غرّةٍ خلافًا لعادته. عندئذٍ انتصب واقفًا بقفزةٍ من كلّ جسده، لينفض عنه الماء، ومشى على الرّمال إلى حيث الزورق، بحث في حقيبته عن الصّابونة الفوّاحة، وهمز الزّورق بحنانٍ: «آه! روزينها!» ثمّ عاد إلى مكان استحمامه مُحدّثًا نفسه: «يا للشّيطان! يا لهذا البرد المنتشر خارج المياه! دون داخلها».

إنّها مياهٌ دافئةٌ من شأنها أن تريح جسده المرهق. جلس وراح يرغّي مفاصله فأشعره حفيف الرّغوة وهي تلامس شُعيْراته بالنّعومة وكأنّه ملتفّ بالمخمل. عاد بأفكاره إلى الزّمن الّذي كان فيه يمرح مع مادرينها فلور أيّام كانت تقضّي ساعاتٍ طويلةً وهي تمسح على صدره كأنّه قطٌّ صغيرٌ.

ارتمى في المياه مُجدّدًا ليزيل رغاوى الصّابون. ثمّ خرج من الماء وراح يعرّض نفسه للرّيح حتّى يجفّ وهو يفكّر في النّار الّتي عليه أن يوقدها وقطعة السّمك الّتي عليه قلْيُها بما تبقّى من الزّيت في قعر الوعاء.

كان وميض النّار يضيء مقدّمة الزّورق. هناك حيثُ بدت الحروف المطليّة بالأحمر والمسطّرة بالأسود في طريقها إلى الامّحاء. فهمس:

«عندما أحصل على قليلٍ من الدّهان، سأعيد طلاء اسمك، روزينها!...».

كان قد فرغ من تناول العشاء، وأضرم ناره قُرب الزّورق كما تعوّد... فضلًا عن بسطِ سريره المشبّك بحفرةٍ في الرّمال، وطيِّ ثيابه ليحصل على وسادة، قبل أن يجلس ليُدخّن بجوار النّار، ملتفًّا بغطاءٍ قديم.

إنّها ليلةٌ حقيقيّةٌ، ليلةٌ جيّدةٌ بلا قمرٍ ولا شيءٍ. هناك نجومٌ بكلّ الألوان ترصّع السّماء، وحيواناتٌ من تلك الّتي لا تنام وهي تعبّر عن أرقها بإطلاق أصواتٍ مبهمةٍ... يا لتلك الحشرجات اللّعينة!...

عندما تنبعث في الفضاء تبدو كأنّها صادرةٌ عن أرواحٍ هائمةٍ. ثمّة أيضًا دلفين لعوبٌ يتململ في جهةٍ مّا، وكأنّه يحثّ الدّلافين الّتي خيّرت النّوم على إحداث الضجيج.

تمدّد قرب الزّورق. فاستبدّت به رغبةٌ ملحّةٌ في الثّرثرة:

- روزينها، إنّها ليلتك.

- كشنغو، ديلينغو، تينغو

- مادمت لست غاضبةً ولا حزينةً، لماذا تردّدين «كشنغو، ديلينغو، تينغو»؟

- إنّي أفكّر في أمرٍ مّا. تُرى ما الذي جعل الطّبيب يدعوك إليه؟

- أطلق زي أوروكو صفيرًا خرج من بين أسنانه:

- دعي شواغلنا إلى وقتٍ لاحقٍ. لك هوسٌ بالغٌ باستحضار المآسي!... من الأفضل لك أن تشرعي حالًا في سرد قصّةٍ.

- ألم تدرك بعد أنّ قصصي هي نفسها دومًا!

- بالرغم من ذلك أحبّها...

وعندئذٍ طفقت روزينها تحتجّ:

- أنا لست من لحمٍ وعظمٍ مثلكم، ليس لي مثل تلك الرّؤوس الكبيرة كي أتمكّن من استنباط الأشياء. كلّ ما عرفته، وكلّ ما تعلّمته كان بالإصغاء للقدماء. لكنّي لا أفهم كيف لم تملّ بعد من الإصغاء للأشياء نفسها... أيّ القصتيْن تريد اليوم؟ قصّة أوروبيانغا وقانون الغاب أم قصّة الشّجرة؟

فكّر زي أوروكو وهلةً، ثمّ حسم الأمر في قرارة نفسه، وقال:

- لقد رويت لي في المرّة الأخيرة قصّة التّمساح الكبير. حسنًا، أخيّر قصّة الشّجرة، لم أعد أتذكّرها جيّدًا.

- يمكن أن أبدأ سردَها من الوسط...

قاطعها زي أوروكو مُستنكرًا:

- لا تتقاعسي، روزينها، قُصّي من البداية...

- يا للغرابة! هل نسيت أنّي متعبةٌ، وأنّي قضيتُ اليوم في العمل الشّاقّ...

يعرف زي أروكو تلك الاتّهامات عن ظهر قلبٍ، لذلك لم تسبّب له قلقًا يُذكر، بل بالعكس تمامًا. حتّى إنّه مدّد جسده على الرّمل كما ينبغي، ووضع سيجارةً في زاويةٍ بين شفتيه متلهّفًا على السّماع.

ركّزت روزينها أفكارها لحظةً، وانطلقت تسرد القصّة...

كانت رائحة الأرض خانقةً وهي تضغط على جسمها الّذي لا يعدو أن يكون بذرةً صغيرةً. في البدء، عندما ألقت بها الرّياح على التّراب، كانت شبه عاجزةٍ عن الحركة، لكنّ تلك الرياح أصبحت بعد ذلك كالمُقْدِم على إنهاء مهمّته، فراحت تدور كالدوّامة لتطمرها تحت الرّمال. وشيئًا فشيئًا، تمكّنت البذرة من التّنفس والتّعوّد على سجنها. وكان شيءٌ مّا في داخلها يقول لها إنّ تلك الحال لن تدوم طويلًا... لكنّ القلق استولى على كينونتها الضّئيلة، فما كان للأرض، هناك حيثُ ينتشر الظّلام البهيم، أن ترويَ لها ما يدور في الخارج.

وبالرغم من توقها إلى الشّمس، وإلى تغريد العصافير... لم تلبث أن هدأت وبدأت تُحاول فهمَ الغموض الّذي يمثّل ولا شكّ حلقةً من حلقات تحوّلها.

وتعاقبت الأيّام لانهائيّةً ورتيبةً، وتتالت ساعاتٌ طويلةٌ تفوق حرارةُ الواحدة منها حرارةَ الّتي قبلها. وأحيانًا، كانت ديدان تزحف لتدغدغ جسمها القلق، فتُشعرها بالرغبة في العودة إلى عالم القِدَم.

لم تكن قادرةً على الكلام، لأنّ التّربة الحارقة تخنق كلّ شيءٍ، وتحوّلُ كلماتِها إلى نعاسٍ يشلّ حركتها. وفي يوم مّا أيقظتها ضجّةٌ كبرى فجأةً. كانت الأرض ترتجف خوفًا من الطّبيعة الأمّ وقد بدت في أوج هياجها وعنفها. وإذا البذرة تشعر بوقع الأمطار على التّراب وتصلها رائحة بلل الأرض. ثمّ... تسرّبت قطرات المطر وتسلّلت حتّى وصلت إلى قلب التّربة... وصلت متعبةً بعد تلك الرّحلة الّتي انطلقت من السّماء مارّةً بالعناصر الغاضبة.

صحَتْ روح البذرة، لأنّ القطرات راحت تقترب منها شيئًا فشيئًا، وارتعد ظهرها عندما لامسه البرد، وعندئذٍ انطلق صوتٌ واضحٌ مردّدًا:

- هاي! أيّتها الصّغيرة! يمكنك الآن الخروج، يمكنك اختراق التّربة لتعانقي الحرّيّة المطلقة.

انفتحت عينا البذرة بصعوبةٍ وغمغمت:

- مساء الخير يا سيّدتي...

ضحكت قطرة الماء، وقالت:

- الوقتُ ليس ليلًا، أيّتها الصّغيرة، إنّه النّهار!

- كيف يمكنني معرفة ذلك؟ المكان مظلمٌ هنا...

ضحك المطر مُجدّدًا فسألت البذرة خجلةً:

- كيف تتسنّى لك معرفة الأشياء؟

- تأمّلي قليلًا يا صغيرتي، ما أنا سوى مطرٍ هرمٍ تعبَ من أن يكون مطرًا.

- وأين ستمضي الآن؟

- سأمضي صحبة أخواتي لنكوّن جدولًا، وسيصبح خلال أعوامٍ نهرًا كبيرًا. وبعد سنواتٍ عديدةٍ سأصير ذاك الجدول، إلى أن يأتي قوس قزحٍ فيمتصّني وأتحوّل إلى مطرٍ مرّةً أخرى...

- وهل ستظلّ مطرًا إلى الأبد؟

حزنت قطرة الماء وأجابت بصوتٍ متغيّرٍ قليلًا:

- يمكن لأيّ حيوانٍ أن يبتلعني، فينتهي كلّ شيءٍ. بعد ذلك، لن أستطيع الكلام. إنّك تعيدينني إلى أفكاري القديمة: أنا لا أعلم لِمَاذا وُلدتُ ولا أينَ سأتوجّه. في نهاية المطاف، جميعنا متشابهون...

وصمت المطر، فقالت البذرة:

- أظنّك مرهقًا، ألَيْس كذلك؟

لاحظت البذرة أن المطر يبكي ويحاول إخفاء ذلك. لكنّه رغم بكائه أجاب:

- نعم قليلًا، لكن في وسعي الآن أن أنام ساعاتٍ عديدةً قبل أن أتابع عملي.

- وأنا؟

- ما الّذي حلّ بك يا صغيرتي؟ إنّك ترتعشين!

- آه! يا سيّد مطر، أنا مرتعبة جدًّا من حدث الولادة!

تحسّست أصابع السيّد مطر ظهرَها وتوقّفت في نقطةٍ معيّنةٍ:

- الأرجح أن يكون هنا، فالقشرة رقيقةٌ جدًّا في هذا الموضع. سأليّنها أكثر، وعليك أنت أيضًا أن تبذلي جهدًا...

لم تقل شيئًا. حبست أنفاسها أكثر، فأكثر، فأكثر، حتّى أحسّت بأنّها ستنفجر. ومن فرط ما بذلت من جهدٍ صار لونُها أرجوانيًّا. كان شيءٌ مّا يتململ في الأعلى، فقدّرت أنّها الأغصان الّتي ستحمل الورق.

ابتسم لها المطر وقال:

- حاولي مرّةً أخرى.

تنفّست عميقًا وإذا ألمٌ كبيرٌ يخترقها. بدا لها أنّ جلدتها تنشقّ من أعلى إلى أسفل لينطلق طرفُ إحدى ذراعيْها إلى الخارج.

- آه! كم هذا مؤلم!... كم هذا بارد!...

- كفّي عن الحماقات، هيّا سأساعدك!

غزاها القلق مرّةً أخرى، وأصبح صوتها مرتعشًا قليلًا:

- لكنّي لا أعرف من أيْن ألدُ...

ضحك المطر أكثر من ذي قبل ثمّ أجابها:

- يجري الأمر كما ينبغي له أن يكون. حان الآن دور الذّراع الثّانية.

وعندئذٍ دفعت الذّراع الثّانية فإذا الأمر أقلّ ألمًا من المرّة الأولى... وبعيدًا عن ذلك كلّه، بدت لها الحياة في الخارج شبيهةً بمغامرةٍ جديدةٍ، فتملّكها فضولٌ كبيرٌ.

كانت ملامسة جسمها الهشّ والضئيل للتّربة الرطّبة تملأ الحياة بسحرٍ متجدّدٍ.

تثاءب المطر وعلّق قائلًا:

- هل ترين يا ابنتي؟ الولادة ليست أمرًا صعبًا.

- لكنّها مؤلمةٌ...

- لو لم تكن مؤلمةً، لما كانت للحياة قيمةٌ. هيّا، حاولي التّقدّم. عليك أن تخرجي، وأن تتقدّمي أكثر، إلى أن تغطّي المساحة الّتي تفصلك عن النّاحية الأخرى. ولأنّك لست متعوّدةً، سيستغرق الأمر ليلةً كاملةً... والآن وداعًا... سأنام قليلًا.

تمدّد المطر على جنبه. وقبل أن يغرق في النّوم، أضاف بنبرةٍ ناعمةٍ:

- ستجدين الحياة جميلةً... ولاسيّما بعد نزول المطر...

وتثاءب تثاؤبًا أعمق، وبدا أنّه لم يسمع عبارات الشّكر الّتي انطلقت من قلب النّبتة:

- شكرًا، سيّد مطر...

كان السيّد مطر على حقٍّ، فما إن تمكّنت من الإطلال برأسها على الخارج، حتّى انغلقت عيناها وانتابها الإغماء. ولعلّ ذلك بسبب الجهد الذي بذلته ليلةً كاملةً في إزاحة الرّمال والحصى الكبيرة، وأحيانًا قشرةٍ كبيرةٍ جافّةٍ. وبينما كانت تحاول رفع ذراعيها بغية الوقوف تردّدت في الأنحاء ضحكاتٌ.

استجمعت قواها ورفعت عينيْها صوب مجموعةٍ من الأشجار فخلّفت نظرتها المرتعبة، على ما بدا، أثرًا كبيرًا في النّباتات القديمة. حتّى إنّ نبتة السمبايبا هتفت بعفويّةٍ:

- انظروا إلى هذه الصّغيرة المسكينة، إنّها ترتعد من الخوف!

هزّ الشيخ جاتوبا أوراقه الكثيفة بلطفٍ وقال:

- لقد وُلدت الأولى من نوعها. كم هي خضراء وهشّةٌ.

وأشارت نخلة التّوكوم بأصابعها الرّقيقة وغمغمت بتعاطفٍ:

- يبدو من ملامحها أنّها ستكون نبتة منغولانيا!

فأجابها الشيخ جاتوبا:

- أنت مخطئةٌ في تقديراتك يا عزيزتي. ستتحوّل إلى نبتة كانجيرينا بيضاء رائعةٍ.

أمّا هي فراحت تجول بعينيها في الأشجار السّامقة والكثيفة

وقد أصبحت أكثر هدوءًا. يا لجمالها! ولون أوراقها الأخضر، الزّاهي والصّافي، يبرق استجابةً للنّور. لقد كان السيّد مطر على حقٍّ عندما قال إنّها ستجد الحياة جميلةً ومفعمةً بالحيويّة. فكلّ ما حولها يبدو حفلًا صاخبًا من الخضرة، خضرةٍ تتجدّد كلّ لحظةٍ، وتصبح مختلفةً كلّ لحظةٍ. عندما كانت مجرّد بذرةٍ، لم تتمكّن من رؤية الألوان بوضوحٍ، لأنّ الغشاء الّذي يحميها مَنَعَها من ذلك. أمّا في تلك اللحظة فقد اختلف الأمر. لبثت تنظر إلى النّباتات المتسلّقة البنفسجيّة وقد راحت تحيط بالأشجار لتكوّن سلسلةً من التّشابك الهائل والملتوي، وتنظر إلى الزّهور البرّيّة القرمزيّة وهي تنتصب على سيقانها الأرجوانيّة، وكلّ بتلة من بتلاتها تحتفظ بحبّة مطرٍ منسيّةٍ. تأمّلت لفيفًا من نباتات السّمبايبا البنفسجيّة الّتي كوّنت باقةً عملاقةً متمايلةً تحت هدهدة الرّياح. ثمّ أخذت تتفحّص الأوراق في أدقّ تفاصيلها. كلّ شيءٍ هناك مختلفٌ، وعلى كلّ شيءٍ مسحةٌ خضراء لّمعتها الأمطار الأخيرة. والشّذى، الشّذى المتصاعد من كلّ ذلك! ذاك الشّذى المتكوّن من الهواء النّقيّ، المتخلّص من كلّ أثرٍ للغبار، وقد اختلط برائحة التّربة الرّابضة بين الجذور القديمة والملتوية...

آه! متى يصبح لها مثل تلك العروق الصّلبة!... عاودت النّظر حولها فانجذبت إلى رقّة نخلة التّوكوم وهي تتمايل بجسدها كلّه في مهبّ الرّياح.

وعندئذ تململ الجاتوبا في مكانه بحنانٍ لا مثيل له، ورقّق من صوته الّذي تعاقبت عليه قرونٌ عديدةٌ وقال:

- إنّك صغيرةٌ جميلةٌ ومليئةٌ بالإحساس. لا تخافي منّي. فأنا جدّك، هل تفهمين؟

أومأت الصّغيرة برأسها تعبيرًا عن الموافقة، وتابع هو مندهشًا:

- لولا أنّك بعيدةٌ كلّ ذاك البعد، لأخذتك بين ذراعيّ...

ثمّ ضحك وقال بمزيدٍ من الرقّة:

- لا يمكن أن يحدث هذا بين الأشجار. إنّها مجرّد طريقةٍ لأعبّر لك عن محبّتي. لكن، يمكنك التّعويل عليّ...

إثر ذلك راحت النبتة الصغيرة تنظر حولها على نحو أفضلٍ، لاحظت أنّ كلّ ما حولها أشجارٌ هرمةٌ، وأنّها النّبتة الضّئيلة الوحيدة في المكان كلّه، ففهمت بسهولةٍ دوافع تلك الرّقة الّتي بدرت عن كلّ الأشجار القديمة. واستطاع الجدّ تخمين ما فكّرت فيه فقال مُوضّحًا:

- لقد ظللنا وقتًا طويلًا نتوسّل إلى الرّياح كي تجرف بذرةً إلى هنا. فجميعنا كما ترين أشجارٌ مسنّةٌ، والحياة بلا أطفالٍ حزينةٌ وقبيحةٌ.

لكنّه حينما رأى عيني الكانجيرينا البيضاء وقد راحتا تنغلقان ببطءٍ كفّ عن الكلام. كان نعاسها يجعل كلمات الجدّ جاتوبا وكأنّها قادمةٌ من بعيدٍ. راحت عيناها تضيقان وتضيقان... فلا تريان غير السماء الزّرقاء بعيدًا، حيث لا أثر لغيمةٍ بيضاء. إلاّ أنّها استطاعت أن تتبيّن سربًا من الطيور المهاجرة البيضاء وقد بدت كأنّها تعوّض غياب الغيوم.

ومرّ وقتٌ طويلٌ، فأصبح الجدّ كلّ شيءٍ في حياتها. كانا يقضيان أيّامهما في الحديث:

- ما أريده حقًّا هو أن أصبح يافعةً...

- كلّ شيءٍ في أوانه، يا ابنتي.

- أعرف يا جدّي. لكنّك تعلم أنّي لا أستطيع رؤية شيءٍ بمثل هذه القامة القصيرة. تحدّثني عن النّهر، وأسمع الضّجيج القادم من ناحيته، ولا أكثر من ذلك. أعلم أنّي قريبةٌ جدًّا منه، لكنّي غير قادرةٍ على رؤيته بسبب قصر قامتي.

- مازال أمامك متّسعٌ من الوقت لرؤية النّهر يا ابنتي.

كتم الجدّ زفرة حسرةٍ في داخله، فأثارت حركته البسيطة الكانجيرينا الصّغيرةَ وأعادت إليها ذكرى مّا... آه! لقد تذكّرت جملةً ردّدتها النّخلة توكوم خلال أيّامها الأولى: «من سوء الحظّ أن تولدي في مكانٍ قريبٍ جدًّا من النّهر!...» ولفهم الأمر قرّرت استجواب الجدّ:

- قل لي جدّي العزيز، لِمَ لا تريد التّحدّث عن النّهر؟

لم يقل شيئًا، بل ظلّ ينظر إليها بحنانٍ متنامٍ، فألحّت:

- لماذا قالت الخالة توكوم إنّه من سوء حظّي أن ولدت على مقربة من النّهر؟

- مجرّد هراءٍ، «نينينا» (هكذا كان يختزل كلمة الكانجيرينا)، لا تهتمّي بكلّ ما يُقال. قريبًا جدًّا ستتمكّنين من رؤية النّهر وإرضاء فضولك.

لكنّ نينينا لاحظت أنّ الجدّ بصدد التّمثيل، وهو غير بارعٍ في ذلك. كان يصطنع الضّحك فيتردّد صوته زائفًا.

- نينينا، هل تتذكرين الخفّاش؟!

واسترجعت المشهد في ذهنها...

... في البداية، عندما همّت أغصانها بالظّهور، كانت هزيلةً ومثيرةً للشّفقة، ورغم ذلك تشعر بالفخر. وكانت تقضّي أيّامها في مراقبة تلك الأغصان، لتعرف ما إذا نمت أكثر أو أصبحت أكثر صلابةً، وتتأكّد من عدم وجود شيءٍ خطرٍ في الجوار يهدّد بخدش قشرتها النّاعمة واللّامعة... وفي تمام منتصف النّهار، عندما سكنت الرّيح، شعرت نينينا بشيءٍ باردٍ يتمسّك بأكبر أغصانها. آه! يا لذاك الخوف الّذي دبّ فيها! يا لذاك الكائن المقرف والدّميم! لم تستطع التّماسك. راحت تصرخ بأعلى صوتها. كانت تعوي وكأنّها على مشارف الموت وكلّ ما حولها يمور. استيقظت جاراتها الأشجار فزعةً. وانساب العرق باردًا من جبين الجدّ. ونينينا بعد غارقةٌ في صراخها.

«اخرج من هنا أيّها الكائن القذر! أيّها الدّميم! أيّها المشعوذ!...».

لكن عندما اكتشفت الأشجار سبب كلّ ذاك الفزع انفجرت ضاحكةً. وكان الخفّاش قد طار بعيدًا مُطلِقًا صفير ذُعرٍ فيما ظلّت نينينا في مكانها مرتعدةً وغاضبةً:

- إنّكم بلا قلبٍ! كان في وسع هذا الوحش الشّرس أن يقتلني، وأنتم تضحكون!...

- كان أمرًا بسيطًا، أيّتها البلهاء، إنّه مجرّد خفّاشٍ مسكينٍ!...

طأطأت رأسها ولم تعد راغبةً في التحدّث إلى أحدٍ. لكنّ ذلك لم يدم أكثر من ربع ساعةٍ، فليس لقلب شجرةٍ أن يحتفظ بالحقد وقتًا طويلًا. وهكذا عادت إلى ثرثرتها مع الجدّ آملةً في أن تطّلع على كلّ شيءٍ...

- هل تتذكّرين نينينا؟ أستطيع رؤية ما حدث ما إن أغمض عينيّ. يا لتلك الهيئة الّتي كنت عليها يومئذٍ!...

- ألمْ تشعر بمثل ذلك الخوف ولو مرّةً عندما كنت صغيرًا؟

- إلى ذلك الحدّ؟ كلّا. لكن أذكر أنّي ثرتُ مرّةً ضدّ طائر «أبي منجل الورديّ»، إذ كان يريد أن يبني عشّه بين أغصاني.

- آه! هذا ما لن أسمح به أبدًا!

ابتسم الجدّ جاتوبا وأجاب:

- بل ستسمحين! وستسعدين لذلك كثيرًا. إنّه أمرٌ في غاية الرّوعة! بل إنّه أحد دواعي وجودنا. ما أروع العصافير، يا إلهي! إنّها تختزل كلّ ألوان فرح الطّبيعة.

في تلك الأثناء، أطلقت شجرة «لاندي» عجوزٌ زفيرًا طويلاً، فهي من تلك الشّجرات الصّامتة الّتي تقضي معظم وقتها في التّنهّد ولا تتكلّم إلّا لشكوى.

سألت نينينا الجاتوبا بصوتٍ خفيضٍ:

- لماذا هي على هذه الحال دومًا يا جدّي؟

خفض الجدّ أيضًا صوته وأجاب:

«إنّها... كما ترين، ذات جذعٍ مستقيمٍ وصلبٍ ومثاليٍّ.

أومأت معبّرةً عن متابعته فأعلن:

- حسنًا، ستنتهي زورقًا لأحد الهنود. قريبًا، سيأتي الهنود لحملها.

- لكنّي لا أفهم سببَ الشّكوى. أَلِأنّها تريد الرّحيل أم لأنّها لا تريده؟

- إنّك تحيّرينني. أنا أيضًا لم أعد أعرف.

- مؤكّدٌ أنّها تريد الرّحيل، مادامت عابسةً هكذا...

- أشت! لا تتكلّمي بصوتٍ عالٍ، يمكن أن تسمعك.

وغيّرا الموضوع:

- جدّي، جدّي، متى ستنجز ما وعدتني به؟

- قريبًا.

- ولِمَ لا تفعل اليوم، يا جدّي الصّغير؟

كان لحديثها بتلك الطّريقة وبذاك الصّوت مكنّيةً إيّاه «جدّي الصّغير» معنًى واحدٌ، هو أنّها ستحصل على ما تريد. ولذلك واصلت الإلحاح:

- لِمَ لا يا جدّي الصّغير؟ إنّ يوم الإثنين يوافق عيد ميلادي، سيكون ذلك بمثابة هديّتك إليّ.

مرّر الجدّ يده على ورقاته المبيضّة بالقرب من فمه وقال:

- يا إلهي! لقد مرّ الوقت بسرعةٍ! وقريبًا يكون قد انقضى على يوم ولادتك عامان...

- ماذا قرّرت؟

- حسنًا، أيّتها الشّيطانة الصّغيرة. أعدك. اصمتي الآن، أحتاج إلى التّفكير في هدوءٍ.

رمت نينينا إليه قبلةً، وقضت المساء في تأمّل الشّغف الّذي به تنسج عنكبوت شبكتَها.

حلّ اللّيل بطيئًا. بدت العشيّة وكأنّها راغبةٌ في البقاء أكثر من العادة. وفي النّهاية بدأت العصافير بالمرور مصفّقةً بأجنحتها باحثةً عن أعشاشها، ثمّ راحت طيور أبي منجل البيضاء تتوافد أسرابًا أسرابًا، وحلّقت دجاجات الماء مصدرةً أصواتًا مبحوحةً، أمّا طيور البلشون فقد أخذت ألوانها الورديّة تختفي شيئًا فشيئًا خلف مسحةٍ قاتمةٍ، وفي الوقت نفسه عمدت الببغاوات إلى إثارة جلبةٍ كالتي يُمكن أن تصنعها كلّ أنواع الشياطين... انغلقت عينا نينينا بعد أن كلّت من الانتظار، فداهمها اللّيل وهي تغطّ في نوم بريءٍ لا تهزّه الكوابيسُ. وبينما هي كذلك تردّد صوت الجدّ خفيضًا:

- نينينا!... نينينا!...

فتحت عينيها متفاجئةً. يا لقتامة اللّيل! بدا لها أنّها عادت إلى باطن الأرض الأسود فانتابتها رعشةٌ. لكنّ الهدوء تسرّب إلى أعماقها مُجدّدًا حين تناهى إليها صوت الجدّ وهو يُواصل التردّد:

- هل ترين نينينا؟ أنت الآن مُحاطةٌ باللّيل وأعاجيبه.

دقّقت عيناها النّظر في السّواد الّذي يحيط بها وقالت:

- ياه! هذا في غاية الجمال يا جدّي!...

بدت النّجوم، كأنّها تتبادل الغمزات مُتناديةً للّعب. كان عددها مهولًا، لكنّ نينينا حاولت أن تعدّها، بعفويّةٍ وبصوتٍ مسموعٍ، فنهاها الجدّ قائلًا:

- لا تفعلي ذلك يا صغيرتي، لا توجّهي إصبعك إلى النّجوم ففعلك هذا قد يُسبّب لك بثورًا.

- هل هي دومًا مختلفةٌ هكذا؟

- نعم، دومًا نينينا. إنّها تعيش مُتقاربةً وتنتمي إلى العائلة نفسها. فأمّا الّتي تكوّن صليبًا فتُسمّى «كوكبة صليب الجنوب»، وأمّا التي في الجهة المُقابلة ولها ما يُشبه الذّيل الطويلَ فتُسمّى «الدّبّ الأكبر»، وهي تساعد «الغاريمبايروس»[1] على تحديد الشّمال.

- ومن يكون هؤلاء الغاريمبايروس؟

- إنّهم مجموعةٌ من البشر يبحثون عن المجوهرات.

- وما هي المجوهرات؟

- المجوهرات قطعٌ صغيرةٌ متأتّيةٌ من رذاذ الشّمس المُتساقط في الأنهار إذ يتحوّل إلى نجومٍ تنتهي بأن تصبح مجوهراتٍ يتقاتل من أجلها بنو البشر.

---

(1) الغاريمبايروس: garimpeiros، منقّبون سرّيّون عن الذّهب في البرازيل.

- معنى ذلك أنّهم يتقاتلون بسبب النّجوم؟

ضحك الجدّ بعمقٍ وأجاب:

- لا، النّجوم لا تهمّهم مطلقًا!...

- جدّي، إنّك كثيرًا ما تتحدّث عن الإنسان... ما هو الإنسان؟

- الإنسان، إنّه أمرٌ لا يُفسّر. إنّه الكائن الأفظع في هذا العالم. يقضي وقتَه في استنباط أشياء لا غاية منها سوى التّدمير. يومًا مّا سترين الكثير من بنيه.

ومع آخر كلمةٍ نطقها الجدّ انطلق من عمق الظلمة صوتُ شجرة «اللاندي» يشكو ويحتجّ.

- ألا تُدركان أنّها ساعة الصّمت. لقد تجاوزنا العاشرة.

خفض الجدّ صوته وقال:

- الآن، لنلزم الهدوء. لقد أزعجنا الجيران. لنكتفِ بتأمّل الاحتفال اللّيليّ الفريد. فالطّبيعة تستعدّ للاحتفاء بالرّبيع وبعودة «أوروبيانغا...».

شرعت الرّيح في الهبوب وفي الغناء بين أوراق الأشجار. وانبعثت مع أغانيها رائحةُ الأرض وعطرُ الورود. فبدا قلب نينينا كأنّه سيتفجّر من فرط النّشوة.

انتشر الضوء في عرض السّماء وبدأ القمر بالرّكض في كلّ مكانٍ. وشرع القمر بعينيه الدّاكنتين في ارتشاف زنابق برّيةٍ بكؤوسٍ عملاقةٍ بيضاء. آه! كم بدا جميلًا ذاك القمر!...

رافقت الدّيدان الوهّاجة القمر، كانت أجسامها الملتهبة تتراقص، كاشفةً كشفًا خاطفًا عن كلّ الألوان البرّاقة. تردّد صوت ركضٍ صاخبٌ في جزء الغابة القريب. كانت الخنازير تنتقل من ركنٍ إلى آخر كلّما غمر الضوء الغابة، ومن فوق ظهورها كانت الأشباح المضيئة تتطاير وتختفي في النهاية عند رمال الشّاطئ الّتي ما انفكّت تزداد بياضًا تحت ضوء القمر.

تنهّدت نينينا لأنّها ما تزال غير قادرةٍ على الذّهاب لرؤية النّهر.

شقّت موسيقى القصب الأرضيّ صمتَ اللّيل، فيما راحت عجائز الوحوش الضّارية بِلِحَاها الحمراء تتماوج على إيقاع تلك الموسيقى وهي تعبر إلى النّاحية الأخرى، ومن خلفها كانت الجنّيّات يرقصن ببطءٍ يكاد يبلغ السّكون المطلق، وفي الآن ذاته لا يكففن عن توضيب أكاليل من الزّهور ليتوّجن بها جباه الأشجار كإعلانٍ رسميٍّ عن الرّبيع.

وفي غمرة ذلك اشتدّت على نينينا وطأة مشاعرها حتّى إنّها ما عادت تستطيع التّنفّس.

وكان «السّاسي»[1]، يقفز على رجله الواحدة، مدخّنًا غليونه وقبّعته الحمراء تتمايل من اليمين إلى الشّمال وفق نسق قفزاته.

(1) السّاسي Saci، شخصيّة شعبيّة من الفلكلور البرازيليّ. وهو عبارة عن طفل أسود له رجلٌ واحدة، يدخّن غليونه ويضع قبّعة حمراء على رأسه وتتمتّع هذه الشّخصيّة بقدرات مثل الاختفاء والظّهور في لمح البصر.

وبما يشبه المعجزة، شرع القمر -ولم يكن قد كشف وجهه رغم كلّ النور المنتشر من جلدته النّاصعة- في الغناء مع الجوقة الطّبيعيّة.

وسرعان ما انخرطت النّجوم في حفلٍ نورانيٍّ مُنزلقةً طوعًا من جهة النّهر الّذي لم تتمكّن نينينا من رؤيته حتّى تلك اللحظة.

صمتت الغابة وغرق اللّيل في ظلمتها القاتمة. وراحت عينا نينينا تنغلقان شيئًا فشيئًا...

عندما استيقظت نينينا كانت الشمس ساطعةً، وكان جسمها تحت وطأة كسلٍ ثقيلٍ، وهو ما بدا واضحًا من إيقاع أنفاسها.

نظرت إليها السّمبابيا العجوز وبادرتها قائلةً:

- ماذا إذن أيّتها الصّغيرة؟ نقضي ليلة بلا نومٍ لنكون في النّهار بمثل هاتين العينين المليئتيْن نعاسًا...

- لا تقولي شيئًا يا خالة. إنّه اللّيل. كم كان ذلك ساحرًا!

غمغمت شجرة اللّاندي:

- نعم هو أمرٌ ساحرٌ لو أتيحَ لنا النّوم بلا إزعاجٍ.

التزمت نينينا الصّمت. لولا أنّها شجرة كانجيرينا مهذّبةٌ لردّت الرّد الملائم على مُفسدة الأفراح تلك.

ثمّ التفتت صوب النّاحية الأخرى مُتسائلةً: «هل مازال الجدّ جاتوبا يغطّ في نومه بعدُ؟». سمعت خالتها توكوم تناديها فابتسمت لها. كم تبدو لها أنيقةً، خالتها تلك برشاقتها البالغة ونحولها وأساورها المتكوّنة من جوز الهند.

قالت الخالة:

- لا تهتمّي لما تقوله هذه المتجهّمة على الدّوام، قريبًا ستصبح سعيدةً. لكلّ أشجار اللاّندي أرواحٌ هائمةٌ. إنّ أمّنا الطبيعة لفي غاية الحكمة، فقد منحتها روح زورقٍ هنديٍّ، وعندما تتمكّن من نزول النّهر وصعوده ستنقلب إلى أسعد الكائنات على الإطلاق.

- قولي لي خالة، من يكون أوروبيانغا هذا الّذي تتحدّث عنه كلّ الحيوانات؟

- أوروبيانغا هو صوتُ الغابة، إله كلّ الحيوانات. وهو يظهر في الربيع من كلّ عامٍ. إنّه وسيمٌ جدًّا! طويلٌ وأسمر وذو كتفين عريضتين. والحيوانات تحبّ أن تداعب ظهرَه وتضفر جدائل شعره الأسود. وعندما يتكلّم أوروبيانغا لا يُصدر صوتًا بل موسيقى. لم أتمكّن من رؤيته سوى مرّةٍ واحدةٍ وكان ذلك سريعًا.

- خالة، كيف هو إلهُنا؟

- إله الأشجار؟ إنّه إلهٌ نباتيٌّ، هادئٌ جدًّا. يُدعى «كالمنتا». وهو من يمدّنا بالشّيء الوحيد الّذي نستحقّه بالفعل: الصّبر. الصّبر على العيش الرتيب وانتظار المستقبل بكل هدوءٍ.

فهمت الخالة توكوم سرّ النّظرات المندهشة الّتي وجّهتها نينينا إلى شجرة اللاّندي العجوز. لقد بدا لها بوضوحٍ أنّ تلك العجوز العبوس لا تحترم البتّة مبادئ كالمنتا. ولفهم الأمر سألت:

– هل سيكون من الصّعب على اللاّندي أن تتحوّل إلى زورق؟

– لا أعرف. قريبًا سيكتشفها الهنود. ينبغي أن يمرّ المطر... وأن ينقضيَ الوقت...

تثاءبت روزينها ونظرت إلى زي أوروكو. بدا لها أنّ هناك أمرًا مّا! كانت عينا الرّجل تلمعان ولا تُريدان النأي حقًّا عمّا يشدّهما. سألته:

– هل تريد أن أقصّ عليك البقيّة؟

– بطبيعة الحال! إنّها أجمل ما في الأمر!...

– لكن، سنكون غدًا متعجّليْن وسنستيْقظُ باكرًا.

– لماذا علينا أن نتعجّل روزينها؟

– نعم، صحيحٌ. لنواصل إذَن...

ظلّ الوقت يمرّ ويمرّ. وأخذت أغصان نينينا تنمو وتعلو، والحياة تلقّنها كلّ يومٍ قصّتها الطّويلة.

حلّ الرّبيع مغنّيًا من بين الورود. حتّى وجه الجدّ اتّخذ نفحةً شبابيّةً جديدةً بغمرة الزّهور الّتي أصبحت تحيط جبينه وتنتشر على طول ذراعَيه البارزتيْن. بعد ذلك، ذبلت الأزهار وهبّت الرّياحُ فتساقطت الأوراق المصفرّة، وتلوّنت الأغصان بصفرةٍ سرعان ما تحوّلت إلى ما يشبه الصّدأ. إنّها مرحلةٌ من مراحل الحياة الضّروريّة. فكالمنتا يعرف ما يصنع.

ثمّ حلّت الأمطار مُهدّدةً الحياة. أصبحت السّماء قاتمةً، وغير

محتملةٍ. وذات يومٍ انشقّت من أعلى إلى أسفل فابتسمت نينينا ابتسامة امتنانٍ. لقد تذكّرت «السيّد مطر» الّذي جاء يومًا ليغرق الأرض من أجل إنبات بذراتٍ أخرى. أين يمكن أن يكون صديقها وحاميها في مثل تلك السّاعة. كانت تتأمّل كلّ قطرةٍ بحثًا عن وجهه الودود...

وتعاظم النّهر. تقدّم من المكان حيث ينبتون، وصار هديره المرعب يُسمع بوضوحٍ وهو يُتابع التّقدّم معيدًا القصص نفسها إلى غابةٍ لطالما دمّرتها التّساقطات. اختفت العصافير، وضاعفت الضّفادع نقيقَها المنبعث من بين عيدان القصب في المستنقعات. أطلقت السّلحفاة صرخات ذعرٍ، وهاجرت النّوارسُ بعيدًا، لن تعود قبل أن ينتهي المطر. إنّه موسم المياه الغامرة. وتتالت اللّيالي القاسية بطيئةً ولانهائيّةً...

ظلّ الجدّ محافظًا على بعض الكساء الأخضر، لكنّ الغريب من أمره أنّه أصبح متحفّظًا وصامتًا على غير عادته، ولا يكفّ عن النّظر إلى النّهر بقلقٍ.

كانت الطّيور بريشها المبلّل الّذي اختفت جلُّ ألوانه تحلّق في صمتٍ بحثًا عن ملجإٍ آمنٍ، وكلّ الحيوانات تبحث عن مكانٍ تهرب إليه لتنام مادام الفيضان متواصلًا. وكانت التّماسيح الكبيرة ذات الجلود الحرشفيّة المتينة تقلّب البحيرات جنبًا إلى جنبٍ مع أسماك البيرانا الضّارية بحثًا عن فريسةٍ نادرةٍ... إنّها الحياة وقد راحت تتقدّم بكلّ ثقلها.

ورغم ذلك ما انفكّت نينينا تكبر بسرعةٍ.

ولقد تمكّنت قبل انتهاء موسم الفيضانات من رؤية النّهر. لكنّه لم يعد النّهر ذاته الّذي لطالما رغبت في رؤيته. أصبح معكّرًا وموحلًا وبمزاجٍ يزداد سوءًا يومًا بعد يومٍ. ولم تكن عليه من لمسةٍ شعريّةٍ إلّا في تلك اللحظات التي يفارق فيها طائر أبي منجل الأبيض بكلّ هيبةٍ سريرَه المبنيّ من الخيزران.

كان عليها أن تنتظر عودة الموسم الجافّ لتحقيق بغيتها.

في ما عدا ذلك، كان الشّعور الأعمق الّذي تحتفظ به هو ما يُخالجها عندما ترى أشجارًا كبيرةً تنجرف مع التيّار. وفي تلك الأوقات تلمح بعيني الجدّ طَيْفَي دمعتَيْن.

«إنّ من شأن التّعوّد على الأشياء أن يخفّض حدّة المشاعر»، ذاك ما استنتجته نينينا عندما قرّرت الأمطار التّوقّف. إنّه عامها الثّالث مع المطر، وهو ما جعل الأمر يتّصف بالرّوتين والرّتابة.

عندما عاودت الشّمس ظهورها لأوّل مرّةٍ بعد غيابٍ طويلٍ، كان الجميع مبتهجين. وكانت هي قد أصبحت يافعةً، لها تقريبًا مثل قامة الخالة توكوم. ومن أجل الاستمتاع بتلك اللّيالي السّحريّة ما عادت تنتظر من الجدّ أن يوقظها، فقد أصبحت قادرةً على الاستيقاظ بمفردها متى أرادت لتغرق في تأمّل الظّلمة ساعاتٍ طويلةً.

عندما استقرّت الشّمس نهائيًّا -وهو ما يدوم أشهرًا طويلةً- انتفضت الأشجار لتتخلّص من آخر قطرات المطر العالقة وتتفرّغ لامتصاص الشّمس وحرارتها بعمقٍ.

بدأ مستوى النّهر في الانخفاض فعادت الطّيور في شكل أسرابٍ. ثمّ أصبح النّهر صقيلًا مثل مرآةٍ، وانطلق مردّدًا أنشودة الحياة. بزغت أولى الشّواطئ مثل مفاجأةٍ سارّةٍ، ثمّ أخرى، فأخرى... وكانت تبدو متعبةً من سباتها الطّويل في عمق المياه. اقترب أوّل تمساح وغفا على الرّمال تحت الشّمس من أجل تجفيف حراشفه المبتلّة. أمّا اللّقالق الحكيمة الّتي تبدو دومًا حزينةً ومتأمّلةً فقد أخذت تتمشّى على حافّة الشّواطئ تاركةً آثار سيقانها على الرّمال البنّيّة. وفي اللّيل، كانت طيور البلشون تحطّ على الجزر الصّغيرة المتفرّقة على سطح النّهر داسّةً مناقيرها تحت أجنحتها الموّردة. وما إن تتسّع الشّطآن أكثر حتّى تعود النّوارس لتنبش في الأرض حُفَرًا صغيرةً تضع فيها بيضَها، فإذا اقترب منها شيءٌ أطلقت نعيقًا كأنّه صادرٌ من الجحيم.

وبعيدًا، بعيدًا جدًّا، هناك الهنود الّذين يتوافدون من أجل افتتاح موسم الصّيد. فيقيمون أكواخًا مؤقّتةً ويقضون لياليهم مردّدين على إيقاع «الماراكا»[1] أغنياتٍ جميلةً من أجل الآلهة والقمر والشّمس ونجمة الرّاعي.

تعلم نينينا أنّ اللّيل إذا لم يشرب من ضوء القمر يتغذّى على النّجوم، وأنّ النّهر الحنون يسمح لها بأن تعيش في مياهه الدّافئة، وما تقدُّمُه بكلّ بطءٍ إلاّ لأنّها تنام في عمقه.

---

(1) الماراكا maracas: آلة خاصّة بشعوب الأمازون تُصنع من الخشب والقصب والكلمة تعني «موسيقى قبائل التّوبي»، وهي من القبائل الأساسيّة في المنطقة.

كذا كانت الحياة. الحياة الّتي تتحقّق بكلّ عمقها، وبكلّ جمالها.

ذات يوم، شعرت نينينا بأنّها كبرت بقفزةٍ واحدةٍ. وبدا لها على نحوٍ طبيعيٍّ تمامًا أنّ أوراقها أجمل ما في العالم، فكانت تستسلم للرّياح لتكوّن معًا جديلةً خضراء لا تكفّ عن الحركة.

كم مطرٍ وكم مواسم جافّةٍ تعاقبت عليها كضرورةٍ من أجل أن يكتسب جذعُها الأبيض بياض الفضّة قشرةً لمّاعةً! وبعد طول انتظارٍ نمت أغصانُها وتصلّبت ولم تعد تخشى أن تُأويَ عشًّا كبيرًا.

وإذ ألقت نظرةً على الجدّ جاتوبا قال لها:

- نعم، نينينا! لقد أصبحت شابّةً الآن، شجرةً جميلةً... ليس عليك أن تحمرّي خجلًا. لقد كنتُ شابًّا أنا أيضًا، وكنت فخورًا بكلّ الجمال الّذي منحني إيّاه كالمنتا.

- أوه يا جدّي، أنت تجاملني!...

لم يتناقص حبّها للجدّ قيد أنملةٍ، وهو الذي أنهكت الشّيخوخة أغصانَه فأصبحت بمرور السنين هشّةً وسهلة الكسر، مثلما أصبحت عروقه جافّةً وذات مسحةٍ بنّيّةٍ مَرَضِيّة، مع أنّ جذعه ظلّ محافظًا على قدر كافٍ من الصلابة. لقد صار الجدّ يقضي جلّ وقته في النّوم، وعندما يتحدّث لا يني يخلط الأشياء والتّواريخ. وفوق ذلك لم يعد يعنيه كثيرًا أن ينام النّمل الأبيض على مقربةٍ من أذنيه ليمضي في التهامهما كلّما استفاق، ولا أن تخنق الأعشاب الضّارّة أوراقه... حتّى إنّ النّمل الأسود الكبير كان يغزو مجاله الحيويّ فلا يحتجّ. وعندما يحلّ الرّبيع، يورق بأوراقٍ

ضئيلةٍ لا عبق فيها. وكانت براعمه المنتفخة قد كفّت تقريبًا عن إنتاج أيّ شيءٍ.

تجنّبت نينينا التفكير في الأمر. فقد كان قلبها ينقبض تحت وطأة حزنٍ ثقيلٍ كلّما تأمّلته. وكلّما مرّ الوقت ازداد جاتوبا الهرم انطواءً على نفسه. كان رأسه منحنيًا، ناعسًا طوال الوقت. لكنّه إذا فتح عينيه انبعثت منهما بقايا بريقٍ، بقايا تمكّنت من النّجاة رغم كلّ شيءٍ...

أمّا شجرة اللّاندي فقد ظلّت على انتصابها وكبريائها، تزداد تنهّداتها كلّ يومٍ في انتظار تحرّرها. لقد تعوّدت على التنهّد بلا توقّفٍ ولأيّ شيءٍ مهما بدا بسيطًا. وكانت تنخرط في نقاشاتٍ حادّةٍ مع الخالة توكوم أو مع العمّ سيمبايبا. وفي أحيانٍ كثيرةٍ، تغرق في التّحدّث مع نفسها، مكرّرةً باستمرار المونولوج نفسه:

- لماذا لا يأتون؟ هؤلاء الهنود الشّياطين الكسالى!... إنّهم مسمّرون في قراهم، يسرق بعضهم زوارق بعضٍ، وأنا هنا لا أكفّ عن الانتظار!... هل سينتهون يومًا إلى اكتشافي؟

ثمّ تغوص عابسةً في صمتها المتألّم الذي تقطعه أحيانًا بإطلاق حشرجاتٍ منتظمةٍ.

ذات ليلةٍ، وتحديدًا عندما سيطرت نجمة الرّاعي على السّماء، سمع الجميع قهقهةً عاليةً شبيهةً بانفجارٍ مفاجئٍ. ولم يكن ذلك سوى اللاّندي وهي تحلم.

قال الجدّ لنينينا:

- هل سمعت ذلك يا نينينا؟ إنّها لا تضحك إلاّ في أحلامها.
وغمغم في سرّه حتّى لا يزعج المحيطين:
«مسكينةٌ حقًّا...».

وفي صباح الغد، وأمام دهشة الجميع، استيقظت شجرة اللاّندي باسمةً. وبتلك الابتسامة على شفتيها، ألقت تحيّةً صباحيّةً بشوشةً على الجميع. بدا الأمر غريبًا! فهي لم تكن تنطق إلّا بهمهماتٍ شرّانيّةٍ. وما هي إلاّ لحظاتٌ حتّى قالت:

- آه! يا أصدقائي! لقد رأيت حلمًا رائعًا!...

ولّما كان الجميع يُراقبونها بفضولٍ، لم تحتج إلى طلب الإذن من أحدٍ لتقصّ حلمها:

- حلمتُ بأنّ الهنود تمكّنوا من اكتشافي، فتسلّقوا الضّفّة حتّى وصلوا إلى هنا. وإذ نظروا إليّ صرخ أحدهم: «يا لهذه اللّاندي الجميلة! ستكون زورقًا يتّسع لعشرة أشخاصٍ». وقال آخر: «هل نقطعها؟ هيّا بنا!» وسحبوا فؤوسهم في صمتٍ وراحوا يقطعون جسدي.

لم تستطع نينينا منع نفسها من سؤال اللاّندي:

- وهل كان ذلك مؤلمًا سيّدة لاندي؟

تغيّرت عينا الشّجرة فبدتا وكأنّهما مسحورتيْن:

- مؤلمًا؟! لا، مُطلقًا! ولنفترض ذلك، في جميع الأحوال هو أمرٌ يستحقّ الألم. ستنغرس الفؤوس أكثر فأكثر مع كلّ ضربةٍ.

توك، توك، توك... وتلمع ظهور الهنود متعرّقةً. سينساب الدّم من خشبي الأحمر... ثمّ تتعالى قرقعةٌ ويرتعد جسمي، فيبتعد الهنود حتّى يشاهدوا سقوطي، وجسمي يهتزّ ويميل بطيئًا في بادئ الأمر، ثمّ يهوي بعنفٍ على الأرض محدثًا ضجّةً تصمّ الآذان. وستتردّد في الآن ذاته ألف صرخة ألمٍ. إنّها صرخات النّباتات المتسلّقة والنّباتات الطفيليّة... ستصرخ معًا من الخوف والألم...

وتوقّفت شجرة اللاّندي عن الكلام برهةً. وكان الجدّ قد شدّه الأمر فسألها:

- ألَمْ تسقطي عليّ، كما أتمنّى؟

- لا. لامستك في سقوطي لمسةً خفيفةً لا أكثر. لكنّي لاحظتُ أنّك كنت شاحبًا من الخوف.

- هناك سببٌ وجيهٌ لذلك.

وصمتا لحظاتٍ. لكنّ المحاورة كانت ممتعةً فاستأنفها الجدّ قائلًا:

- وماذا بعد يا لاندي؟

- بعد ذلك، شذّبوا أذرعي. ومن الغد، قدم هنودٌ آخرون وتعاونوا على جرّي إلى حدود النّهر. أحسستُ بأنّهم نقلوا جسمي إلى شاطئٍ من الشّواطئ البعيدة وتركوني لأجفّ... ولسوء الحظّ....

- لسوء الحظّ ماذا؟

- لسوء الحظّ، استيقظتُ.

ومع عبارتها الأخيرة تسرّب حزنٌ عميقٌ إلى عينيها وتكوّرت دمعةٌ كبرى وانحدرت على طول جذعها.

أشفقت نينينا على اللاّندي العجوز، فقالت لها بصوتٍ ناعمٍ:

- لكن، أليْس هذا ما كنت تردّدينه دومًا؟

- ثمّة فرق أيّتها الصّغيرة. قبل اليوم، كنت أحلم يقِظةً. أمّا هذه المرّة فقد حلمت نائمةً. وأحلام النوم أقرب إلى الواقع...

- لنفترض أنّك لم تستيقظي، ماذا كنت سترين؟

- كما تعلمين. سأظلّ عامًا كاملًا معرّضةً لأشعّة الشّمس وعندما يحلّ الموسم الجافّ المقبل سيعود الهنود من أجلي فيجرّونني إلى شاطئٍ آخر بالقرب من قريتهم، ويشرعون في نحتي بفؤوسهم مزيلين من جسمي شرائط حتّى يحصلوا على شكلٍ مدبّبٍ شبيهٍ بزورقٍ. ثمّ يحرقون أحشائي. وبعد ذلك سيجرّونني إلى وسط القرية. وهناك سيدقّقون عملهم لأصبح في نهاية المطاف زورقًا. آه! كم قصّة سأسمعها من النّهر في كلّ مرّةٍ ألامسه...

صمتت شجرة اللاّندي مرّةً أخرى فحرّكت الخالة توكوم سعفها وقالت:

- لهذا إذَن كنت تضحكين على ذاك النحو؟

سارعت اللاّندي بالإجابة:

- أليس هذا سببًا كافيًا؟

مكتبة
t.me/t_pdf

- إنّها مسألة ذوقٍ لا أكثر...

احمرّت اللاّندي من الغضب وعلا صوتُها وهي تقول:

- نعم، إنّها مسألة ذوقٍ. لكن، على الأقلّ سأكون قد تخلّصت من رفقة بعض السيّدات اللّواتي يجهلن قواعد الحياة المشتركة.

- أهذا هو رأيك؟! حسنًا، نحن أيضًا سنكون محظوظين بالتخلّص من وجهٍ عبوسٍ ومتعجرفٍ...

قطع الجدّ جاتوبا المحاورة:

- الهدوء، الهدوء يا عزيزتيّ! لا تفسدا علينا صباحًا بدأ بديعًا ومختلفًا.

ومع ذلك واصلت شجرة اللاّندي تبرّمها:

- هذه النّحيفة المتعجرفة لن تكلّف نفسها عناء التّفكير على هذا النّحو.

وعقِب قولها جاء دور الخالة توكوم في فقدان السّيطرة على نفسها:

- أنا كما قلت، نحيفةٌ، أليس كذلك؟ حسنًا أيّتها الأخشاب المثقوبة الّتي ستؤول إلى زورقٍ بلا معنًى. واصلي العيش في أحلامك أيّتها الغبيّة. واصلي التّحدّث إلى نفسك، والضّحك بلا سببٍ. واصلي إزعاج العالم بأسره بأحلامك التّافهة... لكن (ومع تلك الكلمة تحشرج صوت الخالة توكوم إذ انتابها كرهٌ مباغتٌ)... لكن لن تخرجي من هنا أبدًا! أبدًا! لا تتوهّمي كثيرًا. لن يكتشفك الهنود أبدًا، وإن

اكتشفوك ستكونين وقتئذٍ عجوزًا مترهّلةً بأخشابٍ لا تصلح لأيّ شيءٍ. لن تري النّهر من قريبٍ! سيكون من الأسهل على نينينا أن تزور النّهر رغم...

سارعت إلى وضع يدها على فمها بحركةٍ يائسةٍ. وألقت نظرةً متألّمة على العجوز جاتوبا. ثمّ نظرت باضطرابٍ إلى جسم نينينا اليافع، وقد اغرورقت عيناها بالدّموع.

ساد صمتٌ ثقيلٌ تقاطعت خلاله نظراتُ الشّجرات فيما بينها، وكانت نظراتٍ بليلةً.

بدا وجه نينينا شاحبًا، وأصبح تنفّسها لهاثًا. لقد اكتشفت سرّ ذاك الاعتراف المنحوس. في بادئ الأمر لم تولِه اهتمامًا. لكنّ الجملة الأخيرة راحت تتردّد بصداها في أذنيْها: «سيكون من الأسهل على نينينا أن تزور النّهر، سيكون من الأسهل على نينينا أن تزور النّهر..».

أخذ الألم يخترقها حتّى أواخرها. لقد اتّضح مصيرها، كما اتّضحت تلك الجملة الغامضة الّتي تردّدت عند ولادتها: «من المؤسف أن تكون قد ولدت بالقرب من النّهر!».

خفضت رأسَها وأطلقت العنان لدموعها، فاستغلّت اللاّندي العجوز التعكّر العامّ للأجواء لتقدّم درسًا أخلاقيًّا للخالة توكوم:

– ها قد حقّقت ما تبتغين. هذا ما يحدث عندما نتكلّم كثيرًا.

وقال الجدّ جاتوبا بكلّ لطفٍ:

– لا تهتمّي كثيرًا لما قالته، نينينا. كلّ ذلك مجرّد هراءٍ. إنّها عصبيّةٌ لأنّ ثمارها تأخّرت، لا أكثر...

قضت نينينا ليلةً حزينةً. صارت النّجوم تبرق كأيّ شيءٍ يستطيع البريق. لقد توقّف إعجابها بكلّ شيءٍ لأنّ ذاك الكشف الغريب وضعها وجهًا لوجهٍ مع الحقيقة. لقد اكتشفت أنّ الجمال لا يكمن في الأشياء بل في دواخل النّاظرين إليه. وعندما يختفي تصبح تلك الأشياء مبهمةً وباهتةً وعاديّةً إلى حدٍّ غريبٍ. لم تكن تريد التحدّث إلى الجدّ، مع أنّ عينيها لم تنغلق ولو لحظةً واحدةً.

عند مطلع الفجر، ومع أوّل أشعّة الشّمس، كانت الخالة توكوم هي مَن يضحك في تلك المرّة. لقد تفجّرت غلالها مئاتٌ من البذور الخضراء راحت تمتصّ نهدَها بكلّ نعومةٍ.

- لآخر مرّةٍ أطلب منك أن تقول لي الحقيقة يا جدّي، ولن أزعجك مجدّدًا.

- هراءٌ، مجرّد هراءٍ يا نينينا. لقد جاؤوا لأنّهم يريدون ذلك.

- لا يا جدّي الصّغير، أنت من طلب منهم المجيء، أليْس كذلك؟

- أؤكّد لك نينينا، أنّي لم أفعل.

- إذن، هذا جيّدٌ.

غرقت في صمتها مجدّدًا وراحت تتأمّل قمّتها. كانت أوراقها متباعدةً، ومبعثرةً من كلّ النّواحي. لم تحزن لرؤية ذلك. تلك هي إذَن الحقائق النّهائيّة للحياة. بدا لها مؤسفًا ألّا تدوم الحال طويلًا. وخمّنت أنّ من الأفضل عدم إطالة التّفكير في شواغلها وتحويل الاهتمام إلى أفعالٍ تُفيد الآخرين.

تابعت النّظر بحيادٍ إلى أوراقها الّتي بعثرها زوجان من طيور أبي منجلٍ. كانت الأنثى بصدد الاستراحة من تعبها ونظرتها مشغولةٌ بشيءٍ مّا، فيما يرسم الذّكر مخطّطا لعشّهما المستقبليّ. ولم يلبث أنْ قال لها:

- حبيبتي، أعتقد أنّ بإمكاننا الحصول على مسكنٍ مثاليٍّ هنا.
- هذا مؤكّدٌ.
- سنكون محميّيْن هنا، وستُتاح لكِ رؤية النّهر باستمرارٍ.
- لو أكفّ عن رؤيته، في الحالة الّتي أنا عليها، فسوف أموت من ثِقَل الحنين.

رسمت نينينا ابتسامةً حليمةً. فكالمنتا يعرف كيف يوزّع صفعاته. إنّها الحياة وهي مازالت في بدايتها...

كانت تحمل في أعماقها فكرةً فحواها أنّ الجدّ هو من وضّب كلّ ذلك واستدعى زوجَي الطّيور حتّى يسلّيَهَا في حزنها...

وبنظرةٍ خاطفةٍ، لاحظت أنّ الجدّ كان يبتسم. ففي جميع الأحوال، لا يوجد سببٌ يجعله ينزعج، لقد كان طيّبًا باستمرارٍ، وكانت كلّ كينونته منشرحةً في كنف تلك الطّيبة...

عادت إلى مراقبة الطّيريْن. يا لمنقاريهما المهوليْن! يوجد في طرفيْهما ما يُشبه القطعة النّقديّة الكبيرة. لم تكن يومًا قريبةً من الطّيور كما في تلك اللحظة.

انطلق ذكر أبي منجل محلّقًا صوب فسحةٍ مكشوفةٍ من الغابة. ثمّ عاد حاملًا أعوادًا من اللّبلاب ليشرع في بناء العشّ.

كان ذلك سببًا كافيًا كي تنسى نينينا الحياة ووحشيّتها. لقد مرّ زمنٌ طويلٌ على قولها ذاك:

«لن أسمح لأيّ من الطّيور بأن يصنع عشًّا بين أغصاني أبدًا».

ما كان لها أن تقول ذلك لو شاهدت بأمّ عينيها الطائر وهو يحمل بمنقاره أغصان النّباتات، ثمّ يحطّ وينغمس في نسج جنبات العشّ، مغنّيًا بصوتٍ بهيجٍ:

أبني منزلي الصّغير

جميلًا ورفيعًا

لأُسْكِنَ فيه حبّي

وقبالة حديقةٍ

من زنبق وياسمين

ينتعش حُبّي...

توقّف الطائر برهةً وراح يتأمّل رفيقة دربه وهي تُتابع بنظرتها النّاعمة بناءه للمنزل المشترك مُصْغِيةً لأغنيته بكلّ غبطةٍ. ولم يلبث أن قال:

- ما رأيك؟ هل تظنّين أنّي سأنجح؟

- إنّه من الرّوائع، يا عزيزي!

وعندما أصبح العشّ جاهزًا، طار الزّوج في اتّجاه النّهر وعاد بعودٍ من القصب شديد الخضرة، وبزهورِ السّمبايبا الأرجوانيّة. وضّبها كلّها حول مدخل العشّ ثمّ قال لزوجته:

- ستكون هذه الزّهور الأرجوانيّة رائعةً وهي بالقرب من جناحيك ذَوَي اللون الورديّ.

- أنت زوجٌ رائعٌ، إنّك لا تترك شيئًا للصّدفة.

وراحت بثقلها تنزلق حذرةً على طول الغصن إلى أن استقرّت داخل العشّ. وكان رفيقها يتابع كلّ حركةٍ من حركاتها باهتمامٍ وحبٍّ حتّى قالت:

- إنّه مريح تمامًا.

- هل ينقصُكِ شيءٌ؟

- كلاّ. كلّ ما علينا هو أن نُدفّئه قليلًا وننتظر.

وفي غمرة النشوة صمتا.

كانت نينينا طوال ذلك الوقت تفكّر في أنّها لم ترَ على مدى حياتها كائناتٍ بتلك الرّفعة.

وسرعان ما استأنف الطائران حوارهما فقالت الأنثى:

- لا يبقى الآن سوى الانتظار...

واحمرّت قليلًا وهي تُضيف بكلّ فخرٍ:

- لن يتأخّر الأمر كثيرًا. غدا أضع بيضتي الأولى.

- كم فرخًا سيكون لنا؟

- تمامًا مثل المرّات السّابقة:

ثلاثة أو أربعة.

- وماذا لو داهمتنا الأمطار؟..

ظهرت سحابةٌ من القلق على جبينها، لكنّها سارعت إلى طردها بعيدًا وأجابت بثقةٍ:

مازال أمامنا متّسعٌ من الوقت قبل أن يحلّ موسم الأمطار: شهران أو ثلاثةٌ. وحين يحلّ سيكون الصّغار قد كبروا وقاموا بأولى محاولاتهم للطّيران.

خفضت نينينا عينيْها. فقد أثار زوجا الطّيور مشكلتها في نفسها الحزينة، وإن من دون قصدٍ. وبينما هي كذلك قالت أنثى أبي منجل لزوجها:

- إنّهم أربعةٌ يا عزيزي!

فصفّق بجناحيه فرحًا. وكانت هي بكلّ جلالها فوق الشّجرة، ترمي عينيْن متأمّلتين صوب النّهر. فبدت لها الشّواطئ البيضاء الفسيحة والعارية تمامًا شبيهةً بلوحاتٍ زيتيّةٍ كبيرةٍ ممتدّةٍ على الأرض.

فهم الزّوج الأمر فعلّق قائلًا:

- لكَمَ تحبّين النّهر يا عزيزتي! كم وقتًا يلزمك لحضن بيضاتك؟

- أقلّ من شهرٍ.

- لا أكثر؟

شعر بإحراجٍ كبيرٍ وكأنّه ارتكب حماقةً، فأضاف وهو لا يقوى على النّظر إليها:

- عزيزتي، هل ستسمحين لي بحضن البيض معك؟ إنّك

لم تزوري النّهر منذ أكثر من ستّة أيّامٍ، ولم تصطادي، ولم تُغرقي منقارك في المياه الصّافية... يمكنني أن...

- أيّها الأبله! سأسمح لك طبعًا. لا فائدة من البحث عن كلّ هذه الأعذار. كلّ الأزواج يقومون بذلك. حتّى أبي كان يحضن بيضات أمّي. ولك أن تبقى الوقت الّذي تشاء. والآن، وقد صرتُ خفيفةً، أودّ رؤية النّهر من قريبٍ على الفور، فالخريف يتقدّم حثيثًا والأشجار بدأت مشوار اصفرارها معلنةً قرب موسم الأمطار.

وقرنت قولها بالقفز إلى غصنٍ أعلى بقليلٍ وهي تُتابع:

- يمكنك أن تفعل ما تُريد منذ الآن.

لم يكن طائر أبي منجل يحتاج إلى التّوسّل ليفعل، فسارع إلى الجلوس في العشّ وكلماتها لم تنتهِ بعدُ، خجِلًا أوّل الأمر ثمّ مرتاحًا تمامًا بعد ذلك. أمّا هي فقد فردت جناحين كبيرين وموردين لتندفع في الفضاء الرّحب على الفور. دارت فوق العشّ دوراتٍ كي تتأمّل زوجها مليًّا، وإذ شعرت بطلاقة جناحيها تركت للرّياح مهمّة نقل جسمها النّحيف إلى حيث الشّاطئ.

ازدادت الأيّام حرارةً. وأخذت الشّمس تحرق كلّ ما يعترضها. وبعيدًا، كانت الأعشاب البرّيّة تفقد خضرتَها وتتحوّل إلى ما يُشبه شعرَ رقبةٍ حيوانيّةٍ واسعةٍ تضطرم فيها النّار وتتلوّى تحت الرّياح الملتهبة. أمّا الطيّور فما انفكّت تقضي أوقاتها سابحةً في المياه الصّافية. وأمّا حيوان «التّابير»، الوحيد والخجول، الّذي من عاداته

ألّا يقترب من النّهر إلاّ خلال ساعات اللّيل السّاكنة، فقد أصبح يظهر في أيٍّ وقتٍ من أجل تبريد جسمه الكبير والثّقيل.

لقد رحل الرّبيع، حاملًا معه كلّ الزّهور. وها هو الخريف، بحرارته وقسوته، يوزّع صفرتَه على كلّ الأوراق بلا تمييزٍ. فلا يُرى إلّا ما يقطف من ورقٍ ميّتٍ وهو يتساقط ويتراكم على الأرض. وفي الليل لا يُسمَع إلّا سيقان الوحوش وهي تدوسها.

لن تتأخّر السّلاحف في وضع بيضها، وسيعجّ الشّاطئ بنقاطٍ ضئيلةٍ إذ ترحل بحثًا عن الماء.

هناك بعيدًا، يوجد أناس ينشبون حرائق هائلةً تتصاعد منها الأدخنة وتمضي نحو النّهر فتطوف فوق المياه مثل غيومٍ كثيفةٍ. وإذ تعجز الشمس عن اختراقها تتحوّل إلى ما يشبه مرآةً مشتعلةً تبهر العيون.

أخذت نينينا تتفحّص أغصانها واحدًا تلو آخر فأفزعها القبحُ الّذي تمكّن من التّسرّب إليها. لقد حلّت طبقةٌ من الغبار اللّزج محلّ بياض قشرتها. وكانت تشمّ رائحة حرارةٍ خانقةٍ. والغيوم في السّماء تتقدّم كبطونٍ كسولةٍ وثقيلةٍ.

إنّه الإعداد للأمطار وارتفاع مستوى النّهر.

بدأت صغار زوجَي أبي منجل تخرج من البيض أعلى الأغصان. كانت الشجرة تصغي بوضوحٍ لصوت تكسّر القشور، وتتابع الأمّ وهي تساعد على ذلك بمنقارها الّذي في طرفه ما يشبه القطعة النّقديّة. حتّى إذا جاء المساء أطلقت أصواتًا مزعجةً يُمكن عدّها

تغريدًا يحمل معاني الأنين والغضب معًا. مع حلول اللّيل قام في عشّ زوجَيْ أبي منجل حفلٌ بهيجٌ. فقد جاءت كلّ الطّيور العائدة إلى أوكارها لإلقاء نظرةٍ على الفراخ. حتّى إنّ أوراق نينينا الجافّة والخالية من النّسغ أصبحت بيضاء من كثرة الرّيش. حضرت طيور البلشون ذات اللّون الصّافي، واللّقالق، وطيور مالك الحزين ذات المظهر المُشوّش ويرعات الماء وكلّ قبيلة طيور أبي منجل الّتي تقيم في الجوار على الأشجار القريبة.

وكانت الأمّ تعرض نسلَها بكلّ فخرٍ قائلةً:

- انظروا إليها!

ثمّ تحمل أحد فراخها بلطفٍ، فيعلو هتافٌ جماعيٌّ من الإعجاب:

- لا! هذا لا يُصدّق!

وتقتربُ جميع الطّيور لتفحّص جنس الفرخ عن كثبٍ:

- يا إلهي! إنّها فرخةٌ رائعةٌ!

- إنّها معجزةٌ!

- ما أروع عينيْها!

ولقد بدت الصّغيرة وكأنّها تفهم ما يدور. إذ كانت تقلّب عينيها الكبيرتين فتنعكس السّماء بزرقتها على سطح حدقتيها. يا للعينين المدوّرتين الواسعتين اللتين زادتهما الرّموش السّوداء من حولهما روعةً.

«إنّهما عينان بشريّتان!».

نطق أحد الحضور بذلك، فأجابه الطّائر الأب متأثّرًا:

- هذا ما لاحظته تمامًا.

وصرخ لقلقٌ هرمٌ ذو لحيةٍ بيضاء مندهشًا:

- يا إلهي، على امتداد حياتي الطّويلة، لم أرَ مثل هذا الأمر قطّ. صدق القائل «من يعِش طويلًا يتعلّم كثيرًا». أرجو ألّا تكون عيناها هاتان مجلبةً للمصائب!...

- لتكن السّماء في حمايتنا!

هتفت جموع الطّيور بتلك الكلمات على سبيل التفاؤل، أمّا الأمّ فبدت سعيدةً وغير قلقةٍ وهي تؤكّد:

- اطمئنّوا! لن تجلب سوى الخير! تأمّلوا معي عينيْها!

ورفعت الصّغيرة إلى أعلى قليلًا مُستطردةً:

إنّهما زرقاوان مثل السّماء، صافيتان مثل مياه النّهر. ولا يمكن أن تجلبا إلّا البركة الإلهيّة.

وتعالت ضجّةٌ في الشّجرة كلّها:

- هيّا، يا أصدقاء! قريبًا ترحل، ولن نراها مجدّدًا.

وعندئذٍ سأل طائرٌ ثرثارٌ الأمَّ وإن بصفةٍ متأخّرةٍ:

- هل ستمكثين هنا خلال موسم الأمطار؟

- لا. ففي ذلك الوقت، سيكون الصّغار قد كبروا، وأتقنوا الطّيران كما يجب. وهو ما سيُتيح لنا الذهاب إلى عمق الغابة.

تنهّد الأب وهو على غصنٍ متأرجحٍ في الظّلّ وقال:

- الجوّ حارٌّ. سيكون المطر رهيبًا هذه السّنة. وهذا ما ينبغي أن يحدث لأنّ النّهر خلال السّنوات الأخيرة لم يرتفع بالقدر الكافي.

ثمّ تثاءب وأضاف:

- أريد أن أنام. غدًا، عليّ أن أستيقظ باكرًا، لقد أضيف إلى عائلتنا أربعة أفرادٍ آخرين.

وغرق في نومٍ عميقٍ.

ظلّت الحرارة تزداد مع كلّ يومٍ جديدٍ. وأصبح صغار أبي منجل يغامرون خارج العشّ أحيانًا وقد بدأ ريشهم الأبيض والفضيّ يتّخذ مسحةً ورديّةً.

تعلّم «العفاريت الصّغار» التكلّمَ بطلاقةٍ، وكانت الأمّ تتبعهم لتنبّههم إذا ما ارتكبوا أيّ حماقةٍ.

وذات صباحٍ، فيما هم يتهيّؤون للقيام بأولى محاولات الطيران، تملّكهم الخوف فقفزوا معًا من الغصن وطاروا مرتعبين، حتّى إنّ نينينا سمعت خفقات قلوبهم الصّغيرة. جميعهم؟ لا. «هي» لم تكن تخاف شيئًا. هي التي تطير أوّلًا مقهقهةً، وتبلغ النهر قبل الجميع، هي التي تسبق الكلّ لتقف برجليها الطّويلتين والمبتدئتيْن في غمرة الماء لتصطاد. وهي التي إذا كشفت الأمّ بعضَ الأشياء لها ولإخوتها تسخر منهم قائلةً:

- تعلّموا سريعًا، أيّها الحمقى الصّغار! وإلّا ستظلّون هنا. انظروا إلى رحابة السّماء فوقكم.

وهناك، كانت الغيوم تتشكّل كثيفةً في البعيد وكأنّها تتوعّد الأرض.

بعد ثلاثة أيّامٍ تمكّن الصّغار من الطّيران بطلاقةٍ. فأمّهم لم تكن ترى فائدةً من إبقائهم معها.

وبعد أسبوعٍ من ذلك، أصبحت الغيوم قاتمةً وأكثر تهديدًا.

كانت عينا الجدّ جاتوبا ترمقان كلّ ما يحيطهما بغير رضًى واضحٍ. سيكون نعاسه الدّائم مقبولًا خلال الأمطار، لكن...

منذ اكتشف حزن نينينا صار يكتفي بالنظر إليها من دون أن يُطلعها على أفكاره.

لقد أصبح هرمًا. ولم يبق في عينيه سوى إيهامٍ بالحيويّة. كان يبدو متعبًا من الحياة. في موسم الجفاف، يظلّ مفتوح العينين أيّامًا معدودةً. ثمّ يغرق في نومٍ عميقٍ مُجدّدًا. وفي موسم المطر، يتكرّر الأمر نفسه. يا للحزن النّابع من شيخوخته!

في المرّات القليلة الّتي ينظر خلالها إلى نينينا، يبدو وكأنّه يحسدها على وضعيّتها، وهو الذي لم تعد الحياة تعنيه كثيرًا.

عادت نينينا من أفكارها على وقع صرخة يأسٍ تردّدت في الفضاء فجأةً. التفتت ناحية الصّوت. كانت شجرة اللاّندي العجوز، بحاجبيْها المقطّبيْن وعينيها المتّقدتيْن، ترمي بوابلٍ من اللّعنات صوب السّماء، وقبضتاها مشدودتان:

– يا لهذا الجحيم!... ستعود الأمطار مجدّدًا قبل أن أنجح في الخروج من هنا!...

ابتسمت الخالة توكوم وهي في حالتها المعهودة من الانتصاب والصرامة، وبدت وكأنّها تتكلّم في سرّها: «ألم أقل لك ذلك؟... أنا متأكّدةٌ تمامًا. هنا تموتين وهنا تنتهين إلى لا شيءٍ».

بعد ذلك مباشرةً انطلق الفرار الجماعيّ. كانت الغابة برمّتها ترحل، فلا ترى غير الحيوانات وهي تركض في كلّ الاتّجاهات. وفي غمرة الهرج قال كلب النّهر العملاق للتّمساح: «كفّ عن جرّ نفسك، إنّها قادمةٌ». فأجابه: «لا عليك، كلّ حقائبي جاهزةٌ».

وصرخ النّمر المرقّط في رفاقه يحثّهم على الرّحيل، فيما راحت النّوارس تتجمّع لتكون أوّل من يرحل إلى ضفّة بحرٍ بعيدٍ. وتعالت دمدمة الغابة المضطربة وقد اختلطت بزئير الوحوش. كانت الطّيور ذات الأرجل المكفّفة تركض وسط الأدغال، مكسّرةً النّباتات المتسلّقة والأعواد المنخفضة. وطفق القصب يقرقع متساقطًا على الأرض، وتساقطت بقايا الزهور الجافّة من النّباتات البرّيّة الّتي ما انفكّت تتقلّع تحت وطأة السّباق المحموم.

يا الله! من المؤكّد أنّ الغابة جُنّت تمامًا!

عمّ التّوتّر كلّ الكائنات الحيّة. وكان آكل النّمل قد سمح -وهو ما لم يفعله من قبل- لعشراتٍ من حيوانات القوطي بأن ترافقه في رحلته إلى عمق الغابة. إنّ الّذهاب إلى الأقصى هو الهدف الجماعيّ.

«أسرعوا... أسرعوا... سنلتجئ إلى نخيل الأغواجا عند بحيرة ماتا فيشادا!».

وكان هناك كابيبارا[1] أضاع عشيرته فأخذ ينشجُ في يأسٍ واضحٍ، طالبًا النّجدة، إلى أن مدّ قردٌ هرمٌ أصابعه النّحيفة ودلّه على الطّريق:

«من هناك، أسرع وإلّا ستجد نفسك وجهًا لوجهٍ مع حيوانات القوطي المفترسة».

لقد جُنّت الغابة حقًّا. النّهر وحدَه ظلّ على هدوئه، عاكسًا الغيومَ السّوداء الّتي راحت تتجمّع وتسبح في السّماء بِغَيْر رياحٍ.

في الآونة نفسها كانت طيور أبي منجل تتهيّأ للرّحيل، والكبيرة منها تهتف:

- الهدوء، الهدوء يا صغار! مازال أمامنا متّسعٌ من الوقت!

أمّا «هي»، فردّدت متوتّرةً وحازمةً:

- لنرحل في الحال! إذا وصلنا إلى البحيرة متأخّرين، سيكون الآخرون قد استحوذوا على أفضل الأماكن...

فابتسمت الأمّ وقالت:

- أيّتها الغبيّة الصّغيرة... لدينا مسكنٌ هناك... لا يوجد ما يدعو إلى الخوف...

- أعلم ذلك يا أمّاه. لكن ماذا لو وجدنا المسكن وقد شغلته «كسومة»؟

- أيّ شيطانٍ حيوانيٍّ تكون هذه «الكسومة»؟

---

(1) الكابيبارا: خنزير الماء.

- إنّها كلمةٌ من اختراعي. وهي جمعٌ بين «كسول» و«بومة».

هزّ الأب رأسه تعبيرًا عن الإحباط:

- إنّ لهذه الصّغيرة شيطانًا تحت جلدتها. هذا أمرٌ لا يُصدّق...

لكنّ الأمّ سارعت إلى الدّفاع عنها كما تفعل باستمرارٍ:

- اتركها. إنّها صغيرةٌ ذات خيالٍ جامحٍ.

تناول الأب عودًا طويلًا من إحدى النّباتات المتسلّقة وقال آمرًا:

- ليتمسّك كلّ واحدٍ منكم بواسطة منقاره بهذا العود، وليفعل ذلك بكلّ قوّةٍ. سنكون أنا وأمّكم على طرفيه وأنتم في الوسط.

غمغمت «هي» معلّقةً:

- مجرّد سخافةٍ!

- لتكن مجرّد سخافةٍ لكنّكم ستطبّقون الأوامر يا آنسة.

ثمّ فتّشوا العشّ تفتيشًا نهائيًّا. وكانت الحسرة هي ما يقودهم.

- هل نرحل الآن؟

تأمّلت الأمّ ما حولها بعينين بليلتين من الأسى. ثمّ أجابت بصوتٍ مرتعشٍ:

- هيّا بنا...

وصرخت كلّ الطيور معًا:

- الوداع، أيّتها الأشجار الصّديقة، الوداع! نلتقي في العام المقبل!

وتردّد صوتٌ متواترٌ من الأجنحة، وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى صار العشّ فارغًا، مهجورًا إلى الأبد.

بعيدًا... في أعلى الأشجار السّامقة، راحت طيور أبي منجل تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى نقاطٍ ضئيلةٍ... وبعد ذلك تختفي... واحدةً تلو الأخرى...

ظلّت الغابة فارغةً. ليس فيها غير الحيوان الكسلان وقد جثم على نبتة من الفلفل الأسود المتسلّقة وراح يغنّي:

لا تخيفني الأمطار.

لا البروق ولا الرّعود

تساقطي ناعمةً وخفيفةً، يا أمطار

تعاليْ وأنعِشي هذا القلب...

ثمّ كفّ عن الغناء بصوته الشّبيه بصوت قصبٍ مجروحٍ وراح يقضم بعض البراعم الّتي نجت بأعجوبةٍ، فيما كانت الغيوم تواصل تجمّعها في السّماء، وقد اختفى الضّوء تمامًا مع أنّ اللّيل لم يحلّ بعدُ.

هبّت ريحٌ عاصفةٌ وعصبيّةٌ مُحرّكةً سطح النّهر، فاندفعت المياه الّتي كانت هادئةً لتهاجم الرّمال بغضبٍ معلنةً أنّ الطّبيعة ستصبح منذ تلك اللحظة في أوج قوّتها.

وإذ نفخت الرّياح العاتية فوق الأشجار بدّدت الغبار الّذي تراكم طوال موسم الجفاف، ثمّ تفرّغت لجلد الغابة بكلّ وحشيّةٍ، فكان أنينها يُسمع واضحًا. استمرّ الجزع طوال اللّيلة. كانت ليلةً مرعبةً، حتّى إنّ النجوم تجنّبت البريق في ظلمتها.

ما انفكّت الرّعود تدمدم بعيدًا، والرّيح تتعاظم جاعلةً الأشجار العالية ترتعد إلى آخر غصنٍ فيها، وتصدر فرقعاتٍ تصمّ الآذان. وشيئًا فشيئًا راح هدير العاصفة يقترب وأصوات الرّعود تتقاطع مثل السّيوف.

أرادت نينينا أن تسدّ أُذنيها كي لا تسمع تلك الأصوات، لكنّ الخوف شلّ حركتها نهائيًّا. لم تعد قادرةً على فعل شيءٍ ضدّ الرّياح الناقمة وهي تلوي جذعها وتقلع أغصانها الصّغيرة والجافّة. وكانت الرّيح قد انتزعت آخرَ ما صمدَ من أوراقها بكلّ قسوةٍ وألقت به إلى الجذوع الكبيرة المجاورة. أمّا النّباتات المتسلّقة فلبثت تجلد نفسها بنفسها. نعم، لا شيء يمكن فعله تجاه الهياج الشّيطانيّ.

وإذ صارت البروق تعميها تقريبًا، أخذت نينينا تغمض عينيها ثمّ تفتحهما مجدّدًا. فتلمح النّهر مضاءً كما في وضح النّهار، بل ويعكس شُعلًا من النّيران.

وسرعان ما هوت صاعقةٌ من ناحية النّهر الأخرى، فأرعشتها حتّى العروق. بل لقد كادت نينينا تفقد وعيها من الخوف جرّاء لسانٍ ناريٍّ راح يتّسع وينتشر مسايرًا الرّياحَ، ويلتهم كلّ شيءٍ يعترضه.

وانقضّت الأمطار على الأرض. تشكّلت رائحةٌ قويّةٌ لأشياء بصدد الولادة واجتاحت المكان كلَّه. وتساقطت طلقاتٌ مائيّةٌ مهولةٌ. أمّا الرّياح فقد راحت تجرجر خلفها الأمطارَ النّازلة بتهوّرٍ.

كان من الجيّد أن تنعم لِحَى الأشجار الجافّة بطعم تلك الأمطار المتجدّدة والفائضة. وكانت العاصفة تخشى البقاء سجينة الأرض

إذ تمنعها رؤوس الأشجار من الرّحيل مع كلّ برقٍ، تلك التي تبدو كهاماتٍ سوداء مبلّلةٍ ولامعةٍ. وفي غمرة ذلك انبعثت من الأرض الغارقة في المياه رائحةٌ حادّةٌ اختلطت فيها روائح آلاف الأوراق والزّهور الميّتة.

في لحظةٍ مّا، سكنت الطّبيعة. واختفت الرّياح. وتوقّفت الأمطار. وأوحى كلّ شيء بأنّ الهدوء عاد ليكتنف الغابة، لولا أن انطلق فجأةً وميضٌ أخّاذٌ تبعه انفجارٌ هائلٌ تردّد في أرجائها كلّها. شعرت نينينا بألمٍ في كيانها بلغ حتّى جذورها الأكثر دقّةً. ثمّ لم تعد ترى شيئًا وفقدت وعيها.

لا يمكنها تحديد الوقت الذي استغرقته على تلك الحال، لكنّها تعلم أنّها عادت إلى رشدها شيئًا فشيئًا، وأنّ ذلك تمّ في ساعةٍ متأخّرة من اللّيل، وكانت العاصفة قد هدأت والأمطار ما تزال تنزل بغزارةٍ. وفي ما يخصّ النّار، كان الحريق قد خمد نهائيًّا.

ناداها في عمق اللّيل صوتٌ خفيضٌ يدلّ على الوهن:

- نينينا!... نينينا!... هل أنت هنا؟

تعرّفت على صوت الخالة توكوم بصعوبةٍ، وسمعتها تقول:

- هل أصابك مكروهٌ؟

- لا، لقد فقدت الوعي...

- أنا أيضًا. إنّه أعظم برقٍ شاهدته في حياتي.

- والآخرون؟

- شجرة اللاّندي قالت إنّها فقدت الوعي هي أيضًا.

ساورها شعورٌ بالقلق فتساءلت مرتعبةً:

- وماذا عن الجدّ؟

وسرعان ما نفضت عنها رعبها وهتفت:

«جدّي الصّغير! جدّي الصّغير!...».

فلم تحظ بغير الأمطار والظّلمة القاتمة ردًّا على ندائها. وكانت الخالة توكوم تُحاول تهدئتها قائلةً:

- اهدئي يا نينينا! هذا بلا جدوى. علينا أن ننتظر حلول النّهار.

وطلع النّهار مؤكّدًا بكلّ حزنٍ حدوثَ الفاجعة. كان ثمّة شيءٌ أسود محترقٌ تمامًا، والدخان ما يزال يتصاعد من خشبه. إنّه الجدّ يرقد على الأرض ميّتًا.

اختلطت دموع نينينا بالأمطار. لكنّها ظلّت دموعًا عاجزةً عن إيقاظ العجوز جاتوبا.

لقد التهمت الصّاعقة كلّ أوراقه وأغصانه الدقيقة. ولا أمل من مناداته همسًا:

«جدّي!... جدّي!...».

إنّه ينام نومته الأبديّة. لا الموسم الجافّ ولا موسم الأمطار بقادرَيْن على فتح عينيه النّاعمتيْن اللّتين بلغتا من الوهن أثقله في الأيّام الأخيرة..

ردّدت الخالة توكوم وهي تشهق بالدّمع:

«لقد أضعت كلّ ثماري بسبب الصّدمة. كانت ثمارًا كبيرةً!... على مشارف النّضج!...».

وغمغمت شجرة اللاّندي بكلّ ألمٍ، وقد أصبحت قشرتها سوداء ولامعةً وجميلةً:

«إنّه يرتاح إلى الأبد».

التزمت الأشجار الصّمت الكئيب أسبوعًا كاملًا، فظلّت الأمطار دون سواها تعبّر عن حياتها بقوّةٍ. أجل، تلك الأمطار الغزيرة الّتي سبّبت الموت للشيخ جاتوبا فرضت نفسَها على الأرض لتوقظ بذراتٍ جديدةً من سباتها في كلّ مكانٍ، باعثةً بذلك آلاف الحيوات الصّغيرة... حيوات صغيرة توهم برغد العيش...

تعالى صوتٌ من بين الأمطار. إنّه الحيوان الكسلان ذاته المنهمك في قضم براعم جديدةٍ من نبتة الفلفل الأسود المتسلّقة:

لا تخيفني الأمطار.

لا البروق ولا الرّعود

تساقطي ناعمةً وخفيفةً، يا أمطار

تعاليْ وأنعشي هذا القلب...

لم تستطع نينينا أن تكبح نفسها، فصرخت فيه:

«اصمت أيّها الحقير! عند نشوب العاصفة كنت ترتعش مثل نبتةٍ في مهبّ الرّياح. حتّى إنّك جعلت تُصلّي في سرّك. والآن تصدّع رؤوسنا بصوتك القادم من وراء القبور».

حَلَّ موكبُ المياه المرتفعة. كان ذاك الجزء النّهريّ الأبيض في السّابق قد التُهِم شيئًا فشيئًا جرّاء زحف نفاياتٍ موحلةٍ ما انفكّت تزداد يومًا بعد يومٍ. لقد التهمت المياه الشّرهة كلّ شيءٍ. وانهارت التّلال فعكّرت صفاء النّهر. كَبُر السّيلُ، والمياه الّتي كانت نائمةً خلال فترة الجفاف عادت إلى ركضها المتسارع هنا وهناك... إنّه الأمر نفسه يتكرّر كلّ عامٍ. كانت الشّواطئ تختفي محدثةً بقبقة اختناقٍ. قد يبدو ذلك خياليًّا، لكن لا شيء في وسعه أن يمنع حدوثه. فحيث كانت الهداهد البيضاء تصطاد، وحيثُ كانت اللّقالق الحكيمة تعقد اجتماعاتها قبيْل حلول الظّلام، وحيث يركض مالك الحزين برجليْه الطّويلتيْن، وحيث يحطّ دجاج الماء، والحجل، والنّوارس لنيل قسطٍ من الرّاحة، وحيث يزحف التّمساح ليعرّض البرد الكامن في مفاصله للشّمس، وحيث تردم السلاحف بيضها... في كلّ تلك الأماكن عمّت موجةٌ مائيّةٌ مستبدّةٌ، ثمّ راحت تدور وتدمدم وتغلي، وتغلي...

أمّا النّهر فإنّه يكبر باستمرارٍ. كوّنت الأمطار بِرَكًا حول الأشجار. وحول تلك البرك تكوّنت تجمّعاتٌ من البعوض الحاشد، فأضاع اللّيل موسيقاه جرّاء المطر الذي أفسد كلّ شيءٍ. مُسخ نشيد اللّيل، ومُسِخت النّجوم والقمر بأزيزٍ مزعجٍ لا ينقطع يُصدره بعوضٌ جائعٌ.

كانت نينينا لا تكفّ عن التّفكير في كلّ ما يحيط بها. وكان الأكثر قسوةً على نفسها هو جسم الجدّ الممزّق المسودّ الّذي واصل

التحلّل نصف غارقٍ في المياه، أخرس وميّتًا إلى الأبد. وقد بزغت مع الأمطار أعشابٌ كثيرةٌ راحت تحيط بجذعه الهامد.

على النّهر المحروم من ضفافه حرمانًا تامًّا، كانت هناك أشجارٌ تستغيث والتيّار يجرفها بلا رحمةٍ.

كان الخوف الذي استولى على نينينا شديدًا. ذاك هو مصيرها إذَن. ستبقى الأمطار إلى موفّى آذار. وربّما تتواصل إلى حدود منتصف أبريل. وما هم إلّا في الأيّام الأخيرة من نوفمبر... وقد تعاظم قلقها بسبب ما قالته شجرة اللاّندي:

«إذا ما كفّت الأمطار في شهر آذار فإنّ المياه لن تطالك».

أمّا الحيوان الكسلان فلبث يُكرّر النعيق نفسه:

«يا لشيطان الأمطار الّذي لا يكفّ أبدًا! منذ عامين، لم نشهد مثيلًا لهذا المطر ولم نرَ النّهر يعلو مثلما هو الآن...».

ظلّت الأمطار غير العابئة بجزع الشّجرة تواصل مهمّتها بلا كللٍ ولا مللٍ. ومن عمق الليل، كان يتردّد صوت جَرْف التيّار لجذوع الأشجار مرعبًا ومبلّلًا، فيوقظ نينينا من نومها ويزيد كوابيسها. وكان قلبها يقفز من مكانه في كلّ مرّةٍ، ولاسيّما حين تتعرّف على الشّجرة المنجرفة من بقايا أغصانها العالقة في المنحدر...

وأحيانًا، تشعر بغضبٍ شديدٍ يتردّد في جسمها اليانع، إنّه غضبٌ ضدّ مخطّطات كالمنتا. ولكنّها لا تكفّ عن تأمّل أوراقها الجديدة ذات الخضرة النّظرة، وجذعها الأبيض النّاعم والبرّاق بعد أن اختفى غبار الموسم الجافّ. وكانت الأشجار من حولها قد

اتّخذت كساءً أخضر، والأخضر عندهنّ يساوي الأملَ وسنواتٍ عديدةٍ أخرى من الحياة. وكم يبدو كلّ ذلك جميلًا عندما ينعكس على البركِ الصّغيرة المتفرّقة هنا وهناك من أرض الغابة.

لا يوجد أكثر قبحًا وحزنًا من جسد الجدّ، فقد كان في كلّ يوم يزداد سوادًا واختفاءً في عمق المياه. وكانت الشجرة الصغيرة كلّما نظرت إليه تكاد تشرق بالدّمع وهي تُفكّر في أنّ الأشجار لا تموت واقفةً دومًا.

غادر شهر ديسمبر وهو يُوجّه أصابعه الماطرة تُجاه يناير، فجاء أكثر بللًا وصمتًا، ثمّ سلّم مكانه لشهر فبراير.

ظلّ جزع نينينا مُتسمرًّا، وكانت عيناها لا تفارقان الفضاء، على أمل أن تعوّض الزّرقة لون الرّصاص الّذي ظلّ يشغل السّماء بعنادٍ كبيرٍ. ولكن لم يحصل شيءٌ من هذا! وكأنّ الأمر متعمَّدٌ، وفي مُقابل ذلك اتّخذت أغصان الأشجار خضرةً لم يُرَ لها مثيلٌ من قبل. أمّا هي نينينا فقد بلغت ذروة حياتها النّباتيّة. حتّى إنّها باتت تستطيع من مكانها العالي أن ترى الغابة الّتي كانت تتعفّن من فرط الخضرة، وأن تُدركَ اتّساعها، وأن تشمّ من جذعها الصلب عَبَقَ نُضجها. وفوق ذلك أن ترى بأطراف أغصانها النّهر الّذي يتقدّم مهدِّدًا.

لم يُنقص شهر فبراير شيئًا من السيلان اليوميّ. ولم يأتِ مارس بأملٍ جديدٍ. فبلغ مستوى النّهر أعلى ما يمكن أن يصل إليه. وازداد السّيل سُمكًا جارفًا مزيدًا من الأشجار الّتي كانت تسبح على سطحه بلا هدفٍ، ماضيةً مباشرةً نحو النّسيان.

«حسنًا يا أصدقائي. لقد سئمت وجودي هنا. سأرحل».

كذا تحدّث الحيوان الكسلان وهو يُودّع مَن حوله. وبلا مشاعر تُذكَر، خطا خطواته البطيئة مبتعدًا.

ومثلما كانت سماء اللّيل خاليةً من النّجوم، كانت شمس النّهار قد ماتت. أمّا الأمطار فلم تملّ الهطول. وإذا ما توقّفت قليلًا، فلكي تعود بعد مدّةٍ وجيزةٍ أكثر وحشيّةً وإصرارًا.

وحلّ شهر أبريل. فكبر النّهر حتّى لامس عروق نينينا. لكنّها لم تكن تشعر ببرودة المياه، بل ببرودة الرّعب المتسرّب من كلّ مسامّ جسمها.

ومع كلّ يوم يمرّ، كانت المياه تزداد تسرّبًا إلى عمق الغابة. ونتيجة لذلك بدأت الأكمة الّتي تشدّ عروق نينينا بالانهيار كاشفةً عن عروقٍ لم تنضج بالقدر الكافي ولم تتمكّن بعدُ من التّركّز في عمق الأرض.

كانت الأرض من حولها تنخفض.

لم يعد في وسعها أن تتحدّث عن الحزن. إنّه حزنٌ مقيتٌ ومخادعٌ وبلا دواءٍ! لماذا لا ينصبّ عليها مرّةً واحدة؟ وطوال الوقت كانت أغصانها ترتعد وسط جوٍّ من الترقّب الثّقيل.

لتتبارك الصّاعقة الّتي تكرّمت بالقضاء على الجدّ بضربةٍ واحدةٍ! فعلى الأقل هو لم يعش كلّ ذاك الحزن.

لم تعد الخالة توكوم تتكلّم مطلقًا. صارت مُكتفية بتركيز عينيْها في المياه طوال اليوم. ولم تعد اللاّندي العجوز تطلق

حشرجاتها المعتادة، كي لا تزيد في عذاباتها. أحيانًا، كانت الخالة توكوم تنظر إليها، بعظمةٍ ورفعةٍ وتقول في نفسها: «لن تصل هذه المياه إليها أبدًا. لكن إذا لم يكتشفها الهنود فإنّها ستموت هنا رغم ذلك...».

صار هبوب أبسط ريح قويّةٍ يكفي ليطيح بنينينا في المياه. آه، لو تتوقّف الأمطار على الأقلّ، فيكفّ النّهر عن التقدّم... لكن، هيهات! إنّها تزداد، وترتفع موحلةً أكثر فأكثر، مليئةً بالدوّامات.

في منتصف الشّهر تفاقمت الرّياح على النّاحية الأخرى من النّهر وما انفكّت تدفع المياه دفعًا غير مسبوقٍ. فأخذت نينينا تستعدّ بلا أملٍ للدّويّ النّهائيّ، والرّيح تهزّ أغصانها بلا شفقةٍ. وكان جسمها الّذي لم يعد مشدودًا كما ينبغي يزداد تأرجحًا.

«تمسّكي جيّدًا، يا نينينا!».

لكنّ الإحباط استبدّ بها.

فصرخت شجرة اللاّندي مجدّدًا بصوتٍ أجشّ:

«لا تستسلمي يا ابنتي! تماسكي، ستتمكّنين من الصّمود في وجه هذه الرّياح».

وللمرّة الأولى اكتشفت نينينا أنّ للاّندي روحًا ودموعًا غزيرةً إذ شاهدتها تسيل على طول جذعها الخشن وهي تُضيف:

«تماسكي يا نينينا! لقد صارت الأمطار أقلّ غزارةً، وستتوقّف خلال ثلاثة أيّام على الأكثر. لو تصمدين الآن، ستتمكّنين من العيش طويلًا جدًّا».

لكنّ الرّياح عصفت بأقصى حدّةٍ وكانت هشاشة الشّجرة الشّابة في ذروتها، فلم تزد على القول:

«الآن، لقد فات... الأوان... لقد فات...».

فتوجّهت اللاّندي إلى الخالة توكوم مفسّرةً:

«لم تعد ترغب في العيش!».

تردّدت كلماتها حتّى ضاعت بعيدًا، والرّياح تشتدّ أكثر فأكثر، مُغرقةً المياهَ في ما يشبه رقصة «السّرابندا»[1] المجنونة.

بدأت تشعر بالدّوار. كان عصف الرّياح يتردّد في كلّ نقطةٍ من جسمها وهي تتمايل ولا تستطيع السيطرة على نفسها. فتنتقل من هنا إلى هناك، وتدور في كلّ الاتّجاهات مغمًى عليها. وقد أصبح جسمها ثقيلًا لضعفٍ أصاب جهازها التنفّسيّ.

ثمّ تردّدت طقطقةٌ!... وخارت قُواها. وانطلقت صرخة فزعٍ من الخالة توكوم وهي ترى جسمها يهتزّ بنعومةٍ أوّل الأمر ثمّ بعنفٍ شديدٍ قبل أن يهوي نهائيًّا في المياه الموحلة.

وعندئذٍ شعرت نينينا بذاك البرد العظيم. جرفها النّهر وراح يديرها في قلب دوّامةٍ سحيقةٍ، ثمّ تكفّل السّيل بإلقائها بعيدًا.

رغم ضعفها وتهالكها استطاعت أن تتبيّن المكان الّذي وُلدت فيه. بذلت مجهودًا لتلقي نظرةً أخيرةً على هامة الخالة توكوم الواقفة تلوّح لها مودّعةً. ولكنّها لم تستطع أن تلمح من شجرة اللاّندي

(1) السّرابندا: Sarabande رقصة من التّراث الإسبانيّ تتميّز بحركاتها العنيفة.

سوى جزءٍ صغيرٍ من أغصانها الملتفّة. وإذ صارت عاجزةً عن التّمسك بأيّ شيءٍ تحوّلت إلى شبحٍ نهريٍّ على أهبة الاستعداد لتخويف القوارب العابرة.

وفي ظلّ فقدانها لقوّتها راحت تتجمّد شيئًا فشيئًا، وبدأت ذاكرتها تتلاشى. لم تعد تتذكّر شيئًا سوى طفولتها، وبضبابيّة. لكنّ فكرةً بعينها ظلّت تخترقها: «هل الرّيح مذنبةٌ لأنّها جعلتها تنبت قُرب النّهر؟» إنّها مجرّد حماقاتٍ... لماذا عليها أن تحمل كلّ تلك المرارة وذاك الهوس وما عادت هناك فائدةٌ من شيءٍ؟ لا شكّ في أنّ الرّيح تؤدّي مهمّةً مفروضةً عليها ممّن يفوقُها سلطةً.

وماذا عن الأمطار؟ لماذا جعلتها تولدُ؟ بدا لها أن لا فائدة من تفكيرها في ذاك الأمر أيضًا. وأنّها ستبدو فظّةً تجاه أصابع المطر المبلّلة الّتي امتدّت إليها كي تدفعها إلى ذاك الحزن المُسمّى حياةً. الأفضل أن تنام، فبنومها فحسب ستدّخر ما يلزم من الطاقة.

يا لذاك الصّقيع! كانت لا تكفّ عن التّقدّم ليلًا نهارًا. ولكن إلى أين؟

سمعت أناشيد الهنود، وصوت سريان زوارقهم، فتذكّرت شجرة اللاّندي العجوز الحالمة بأن تتحوّل إلى قاربٍ مثل تلك القوارب...

راحت أحلامها تتزايد. ولم يكن ذلك أمرًا سيّئًا. وفي لحظات تمكّنها من فتح عينيْها كانت تتبيّن بصعوبةٍ أغصانها الجرداء الشّبيهة بمخالب معقوفةٍ ومتآكلةٍ.

في أحد الأيّام، أصابها ضوء النّهار في عينيْها إلى حدّ الألم. وحين فتحتهما ببطءٍ كادت تبكي من شدّة المشاعر التي انتابتها، لكنّها اكتفت بالقول:

«صباح الخير أيّتها الشّمس الجميلة! من المؤسف أن تلقى أشعّتُك جسدي وهو بهذا القبح. هل ترين؟ لقد فقدت ذاك البياض الّذي يميّز جنسي من الأشجار. أشكرك على تدفئة ما تبقّى فيّ من حياةٍ».

بعيدًا، كان صراخ الحياة يتردّد في كلّ النّواحي. وثمّة هنديٌّ يخرج من كوخه الخشبيّ ويتوجّه إلى الله قائلًا: «لقد انتهت الأمطار... انتهت الأمطار!...».

فكّرت نينينا في الطّيور الّتي ستعود وفي الحياة الّتي ستُبثّ في تغاريدها أيضًا.

وغرقت في النّوم.

ماذا حدث؟ هل توقّف النّهر؟ لم تستطع فهمَ وضعيّتها الجديدة. لقد اختفى إحساسها نهائيًّا.

هل انتهى جسمها المتهالك إلى شاطئٍ من تلك الشّواطئ؟ لبثت تحاول التّفكير. ماذا إذَن؟ هل عاد موسم الجفاف؟ إذا كان الأمر كذلك فمعناه أنّها نامت طويلًا. مرّت أيّامٌ عديدةٌ قبل أن تتمّكن من سماع شيءٍ مّا. وماذا كان ذاك الصّوت؟ كان صوت خطواتٍ تترنّح فوق الرّمال. إنّهم «بنو الإنسان»، أولئك الّذين سمعت عنهم الكثير. وكانوا يتكلّمون بصوتٍ عالٍ:

«سنقطع هذه. ستكون نارنا لهذه اللّيلة».

لم تحزن. فهمت أنّهم صيّادون ويحتاجون إلى الحطب.

وانهال الفأس على ظهرها. قطعوها قِطعًا كثيرةً. وكانت مع كلّ ضربةٍ تهرب بحياتها إلى ركنٍ قريبٍ من عروقها.

ثمّ نامت مرّةً أخرى.

يا للغرابة، إنّها تتقدّم مُجدّدًا!... وتشعر ببرد مياه النّهر. ذلك صحيحٌ تمامًا. لكنّها لم تعد ترى شيئًا. بإمكانها السّماع فحسب. وكان جزءٌ من جسمها الصّغير يتدحرج مع التيّار. وتبعًا لذلك قدّرت أنّها نامت أكثر من سنةٍ كاملةٍ! إلى أين تتّجه ومتى تستفيق في المرّة القادمة؟ لكن، هل ستستفيق مجدّدًا؟

انطلق صوتٌ أليفٌ من عمق المياه، وقال لها:

- كيف حالك؟

سألت بسبب ما بها من عمًى:

- من تكونين يا سيّدتي؟

- ألم تتعرّفي عليّ؟

- بلى. يذكّرني صوتك بشيءٍ مّا.

- سأداعبك بأصابعي، فتتعرّفين عليّ مباشرةً.

شعرت بأصابع ناعمةٍ تمرّ على جسدها كلّه، وبرعشةٍ تدبّ فيه، ما من أحد قادر على نسيان تلك الملامسة الفريدة. فقالت متأثّرة:

- عرفتك. إنّك يد الحياة...

- نعم يا صغيرتي. أنا المطر الّذي ساعدك على أن تولدي.

- وكيف تعرّفت عليّ؟ لقد صرت هرمةً، مترهّلةً، مقطوعةً وعمياء...

- القلب لا ينسى الأشياء الجميلة الّتي خلقها.

- لكن، ألم يكن عليك أن تتحوّل إلى نهرٍ؟

- نعم، لقد فكّرتُ في ذلك. ولكن كلّ ما كان بإمكاننا صنعه مجرّد جدولٍ صغيرٍ عليه أن يلقي بنفسه في النهر. لا أكثر من ذلك! حسنًا، عليّ أن أسرع. وداعًا يا صغيرتي. كيف أنت الآن؟

ابتسمت نينينا بامتنانٍ كبيرٍ وأجابته:

- بخيرٍ، بخيرٍ تمامًا... لكنّي أشعر بنعاسٍ ثقيلٍ... الوداع!...

ونامت إلى الأبد.

صمتت روزينها، ونظرت إلى اللّيل، ثمّ إلى زي أوروكو وقالت: «لنذهب إلى النّوم الآن. لقد صارت نجمة العقرب فوقنا تمامًا، إنّها تعلن حلول منتصف اللّيل.

لكن زي أوروكو ظلّ غارقًا في أفكاره. ولم يلبث أن أشعل سيجارةً وعلّق قائلًا:

- كلّ مرةٍ تروين لي فيها هذه الحكاية، تكون أكثر جمالًا من السابقة. قولي لي روزينها، يا زورقي الصّغير... كيف عرفت ما عرفت وبهذه الدّقة؟

ابتسمت روزينها وأجابت بمودّةٍ:

- سأطلعك على سرٍّ أنت أهلٌ له. هل تتذكر شجرة اللاّندي العجوز الغاضبة دومًا؟ طيّب... لقد اكتشفها الهنود بعد طول انتظارٍ. وذات يوم... تحوّلت اللاّندي إلى «روزينها»...

(4)
ليلة ناعمة

كم بدت قاسيةً تلك الرّتابة الّتي تمرّ وفقها اللّحظات والدّقائق والسّاعات لاسيّما والحرارة تتزايد وتتزايد جاعلةً العشيّة غير محتملةٍ.

لقد أصبح الدّكتور عارفًا بكلّ أركان ضفّة بيدرا. ودأب على تأمّل النّهر فيرى الزّوارق نفسها تتشابك، والأنواع نفسها من السمك تُصطاد في الساعة نفسها. وهو ما جعله يُدرك أنّ لكلّ ركنٍ في ذاك المكان خاصيّتَه الأبديّة.

ولقد تعوّد أيضًا على أن يمضي في أرجحة سريره المعلّق. وفي كلّ مرّةٍ يشعر بأنّه ينقصه متّسعٌ من الفضاء للقيام بذلك على أكمل وجهٍ، إذ تكفي دفعةٌ قويّةٌ لجعل السّرير يُصدر أزيزًا ويرتطم مرّةً بالحائط وأخرى بالطّاولة القديمة.

وكان يغلق عينيْه مُستسلمًا للكسل العظيم، محاولًا خنق كلّ رغبةٍ، غير مكترثٍ بالعرق السّائل حتّى بطنِه مارًّا عبر صدره المُشعّر العاري باستمرارٍ. ثمّ يبدو له أنّ الأجدر به أن يجلس، فيجلس، وأنّ الأفضل له أن يدخّن، فيشعل سيجارةً يتصاعد دخانُها أوّل الأمر محتشمًا ثمّ يرتفع حادًّا ومستقيمًا. وحينما يُعكّر مزاجه ذاك الخمول

يدفع نفَسًا قويًّا ويتابع دخانَه وهو يرقص في توتّرٍ قبل أن يرتفع إلى أعلى مجدّدًا.

وفي واحدةٍ من تلك الساعات المتكرّرة انتصب واقفًا من أجل الذّهاب حتّى الباب. وكانت مادرينها فلور بصدد النّزول إلى حيث أكواخ الهنود وعلى رأسها صرّةٌ من الغسيل. من المؤكّد أنّ الغسيل غسيله. ومن المؤكّد أيضًا أنّها ستستحمّ.

بإمكانه أن يفعل الشّيء ذاته. نظر في ساعته فألفاها تُشير إلى الثّالثة. قدّر أنّ الوقت مبكّرٌ جدًّا. إذا ذهب مباشرةً، فسيعود بعد ساعةٍ ويعاني من الحرارة مرّةً أخرى.

وهناك على جزيرةٍ صغيرةٍ وسط النّهر انبرى رجلٌ يزرع الفاصولياء السّوداء، أو ربّما التّبغ، إن لم يكن البطّيخ... رجلٌ لا يلبس قميصًا، ولا يبدو مهتمًّا بالبعوض الّذي يهاجم صدره.

كان جيريبيل غائبًا منذ يوميْن. إذ عليه أن يتيه في الطّبيعة، إمّا لرعي المواشي أو للصيد في بحيرةٍ قصيّةٍ. إنّه صبيٌّ ودودٌ! إذا غاب، فهو ولا شكّ بصدد السّباحة في واحدةٍ من تلك الشّواطئ الواقعة على مقربةٍ من الجرف، حيثُ المياه عميقةٌ إلى حدٍّ مُخيفٍ. هناك يصطاد الصِّبيَةُ سمك البيرانا الضّارية عشوائيًّا. وهو أمرٌ لطالما فكّر فيه الدكتور ولطالما أشعره بالضّيق. كلّ ما في «السّيرتاو»(1) يتّسمُ بالجنون. فأسماك البيرانا الضّارية القادرة على التهام ثورٍ في نصف

(1) منطقة جغرافيّة في شمال البرازيل تتميّز بطقس شبه صحراويّ. والكلمة تعني «خلفيّة البلاد» أو «المنطقة العميقة».

ساعةٍ، تلك الّتي يصطادونها وقوفًا باستخدام خرقة قماشٍ حمراء مشدودةٍ إلى الصنّارة، بإمكانها أن تعضّ خارج المياه ولا تهاجم أحدًا بصدد السّباحة. يُقال إنّها تحترم المياه المكسورة. وهذه المياه المكسورة توجد هنا وهناك. والحقّ أنّ الطّبيب كلّما تأمّل المياه بدت له مُتشابهةً حيثما قلّب بصره. ومن حسن الحظّ أنّ الأسماك ليست أكثر جهلًا منه.

نفض بقايا كسله وقرّر التّحرّك. وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى غادر مسكنه لمجابهة النّهار.

فْلُوكْ، فْلُوكْ، فْلوكْ... تصاعد صوت زوجَيْ صندله المُحمّلين بالغبار، مثلهما مثل أسفل البنطال المرتفع قليلًا، ما جعله يمشي تاركًا وراءه آثارًا قاتمةً. اتّخذ مسلكًا ضيّقًا من حيثُ تبدأ الأعشاب، لكنّ الحرارة هناك كانت على أشدّها، وكان من الممكن أن يعترضه ثعبانٌ، زد على ذلك أنّ الوقتَ وقتُ القراد واليرقات الضّئيلة. حدّث نفسه قائلًا: «من الأفضل مسايرة حافّة النّهر حيثُ تُمدّد الأشجار ظلالًا وارفةً يتخلّلها هواءٌ ثقيلٌ، وحيث لا وجود لذرّة عشبٍ. آه! هذا جذع شجرة البيكي[1] التي نستخرج منها ذاك السّائل ونضعه في قوارير مخصّصةٍ في الأصل للنّبيذ من أجل بيعه بعدئذٍ في المدن.

شاهد عجوزًا هنديّةً تلفُّها الخِرقُ بصدد الصّعود إلى الضّفّة، كان شعرها يقطر ماءً وجسمها مبلّلًا. وكانت تحمل جرّةً تنتصب

(1) شجرة البيكي: شجرةٌ برازيليّةٌ محلّيّةٌ، اسمها العلميّ «الكاريوكار البرازيلي» يُستخرج منها سائلٌ يُستعمل في التّداوي والطّبخ.

متوازنةً على رقبتها الهرمة، ومن تحتها يتدلّى ثديان بَشِعان مثل بالونَيْن فارغين، حتّى ليُشكّ في أنّهما كان قد أطعما أطفالًا في ما مضى.

«ماذا لو أعود إلى الكوخ من أجل جلب منشفتي وصابونتي؟».

التفت حولَه. ومن حسن الحظّ لم يكن هناك شخصٌ ليتفطّن إلى مُحادثته نفسَه.

ما إن بلغ النهر حتّى هتف:

- هل أمسكت شيئًا كورونيل؟

ابتسم الشّيخُ حاشرًا عينيه بين تجاعيده، ثمّ نزع قبّعته تحيّةً للطّبيب وقال:

- شيئًا صغيرًا بلا قيمةٍ. مجرّد قطعةٍ قذرةٍ من السّمك. لم تعد البيرانا الضّارية تعترف بشيءٍ في أيّامنا هذه.

جلس الدكتور على حافّة الزّورق حيث كان الشّيخ يصطاد. وغمس رجليه المتعرّقتين في المياه الجارية. ولم يلبث الصياد أن سأله:

- ألا تمارسُ الصّيد يا دكتور؟

- لا أملك صبرًا كافيًا كي أمكث طوال اليوم بعصا صيدٍ في يدي...

ضحك الشّيخ فاختفت عيناه بين تجاعيده مُجدّدًا وقال مازحًا:

- وفي مُقابل ذلك تستطيع قضاء يومك المقدّس بكلّ صبرٍ وجَلَدٍ في ملء رأسك بكومة حروفٍ من تلك الكتب... حسنًا، أنت قادرٌ على ذلك، أمّا أنا فأراه أمرًا صعبًا جدًّا.

توقّف لحظةً ليرجّ الصنّارة قليلًا. كان الطُّعم قد نُزع، فراح يثبّت قطعةً أخرى من لحم السّمك في المخطاف الصّدئ، فعل ذلك بأقصى ما يُمكن من الهدوء. ثمّ عاد للتّحدّث مرّةً أخرى، وهو أمرٌ جيّدٌ لأنّ الدّكتور يشعر بجفافٍ في لسانه إذا قضى وقتًا طويلًا من دون أن ينبس بكلمةٍ.

- أصطاد في هذه النّاحية من النّهر لأنّي لا أجرؤ على الذهاب إلى غيرها. يكفي أن أسحب الزّورق إلى حدود هذه النّباتات الأسليّة، هنا حيث ينعطف النّهر، لأحصل على صيدي الوفير! ففي هذه السّاعة المشمسة، يقوم السّمك الأبيضُ بقفزاتٍ تصل إلى مترٍ من أجل الحصول على ثمار السّارندي. هل رأيت ذلك يا دكتور؟

- لا كورونيل.

- حتّى خلال سفراتك؟

- كُنت ما إن يشتغل المحرّك حتّى تنغلق عيناي تمامًا...

- الأمر راجعٌ إلى أنّك رجلٌ قادمٌ من مدينةٍ كبيرةٍ. لا تعلم شيئًا عن هذا كلّه. ولو أذهب أنا للعيش مكانك، سيحدث الأمر نفسه. ثمّة ركنٌ في النّهر تجتمع فيه الغربان بكثرةٍ، وهناك أيضًا مغارةٌ هي مأوًى لسمكة «توكوناريس»(1)... لكن كلّ

(1) نوعٌ من الأسماك الّتي تعيش في الأنهار والمياه العذبة في الأمازون، وتنتمي إلى فصيلة ما يُسمّى عندنا «البُلطيّات» تتميّز بزعانفها الشّعاعيّة.

هذا لا يساوي شيئًا أمام جمال سربٍ من «الماترينكساو»[1] وهي بصدد صعود النّهر، نهرٍ بلا نسمةٍ، ولا رياح. هل شاهدت ذاك المنظر مرّةً يا دكتور.

- مطلقًا، كورونيل.

نظر الشّيخ إلى الطّبيب نظرةً جدّيةً، ثم انفجر ضاحكًا. بدا واضحًا أنّه اندهش لإمكانيّة العيش من دون معرفة شيءٍ من ذاك كلّه، حتّى إنّه سأله مرّةً أخرى:

- أَلَمْ ترَ ولو مرّةً في حياتك سمكة بيرارا[2]؟ ألا تعرف ما تعنيه كلمة «ماترينكساو»؟ ولا حتّى «السّمك النّطّاط»؟ ولا «البراروكو»[3]؟

- لا أعرف من كلّ ما ذكرت سوى «البراروكو». وقصّةُ ذلك طويلةٌ.

وانفجرا ضاحكيْن معًا. ثمّ قرّر الطّبيب أن يسبر أغوار الشّيخ القصير والطّريف فقال له:

- قل لي يا كورونيل... حسب رأيك، هل سيأتي هذا المُسمّى زي أوروكو أم إنّه لن يأتي؟

---

(1) أسماك تتوفّر في كلّ المنطقة الجنوبيّة للقارّة الأمريكيّة وتتميّز بألوانها المتعدّدة. وتنتمي إلى فصيلةٍ اسمها العلميّ «بريكون» Brycon.

(2) البيرارا: سمكٌ عملاقٌ محليٌّ ينتمي إلى فصيلة ما يُسمّى «السّلوريّات» وتعيش في المياه النّاعمة.

(3) البراروكو: يقابلها في العربيّة المصطلح العلميّ: «الأربيمة العملاقة» الّتي قد يصل طول السمكة منها إلى المترين وأكثر وتزن في حدود المائة كيلوغرام.

- من أجل شيءٍ جدّيّ؟ أظنّه يأتي... ينبغي الانتظار قليلًا.

- هل هو حقًّا مجنونٌ؟

- هذا مؤكّدٌ. مجنونٌ لكنّه طيّبٌ!... لولاه ما كان لنا أن نعرف أشياء كثيرةً.

أصاخ الدّكتور السّمع وسأل باهتمامٍ:

- كيف؟

- إنّه من يعلمنا بموعد الفيضان الكبير، وبموعد الأمطار الغزيرة، وبوقت تغيير الأسماك لأماكنها...

- لكن، كيف له أن يعلم كلّ ذلك؟

- أصغ إليّ يا دكتور، لن تصدّقني لكن...

- لكن ماذا، كورونيل؟

- لزي أوروكو نوعٌ من القدرات الخارقة، إنّه يعلم الأشياء قبل الجميع...

- وكيف له ذلك؟

- إنّها هي، هي تخبره بكلّ شيءٍ.

- من هي؟

- روزينها، زورقه الصّغير.

قفز الطبيب قفزةً كادت تلقي الشّيخ في ماء النّهر. إذ بدا له أنّ زي أوروكو ليس المجنون الوحيد، وأنّ الجميع هناك يُعانون نوعًا من الخبل. حتّى إنّه جعل يتساءل عمّا إذا كان هو أيضًا يعاني من

شيءٍ مّا، إن لم يكن هو دون سواه المجنون الحقيقيّ. ابتعد قليلًا، خلع ملابسه وولج النّهر. تقدّم ببطءٍ حتّى لا يزعج سمك الصيّاد المسنّ، ثمّ التفت إليه مودّعًا:

- إلى اللّقاء، كورونيل... إلى اللقاء...

- إلى اللّقاء دكتور... إلى اللّقاء...

تركت مادرينها فلور فستانَها يسقط أرضًا وبقيت في تنّورةٍ تحتيّةٍ خفيفةٍ، فبذلك فقط يمكن تحمّل الحرارة الشّديدة.

تقدّمت من حافّة النّهر وركّزت عليها لوح الغسيل. وكان ذلك كلّ ما يمكن فعله طوال اليوم. لاحظت أنّ مستوى النّهر قد انخفض وصارت الحافّة الّتي تشدّ اللّوح تحتاج إلى بعض اللّمسات.

سكبت الصّابون المستحضر من دهون الحيوانات على حزمة الغسيل. ثمّ غمست رجليها في الماء ليدبّ فيها ذاك الإحساس بأنّ ملاكًا قد داعب كلّ جسمها.

فركت رجليها واحدةً بالأخرى في نعومةٍ. ثمّ توقّفت لحظةً لترى صورتها كاملةً وهي منعكسةٌ على صفحة الماء.

«كفّي عن ذلك يا فْرُو، وامضي إلى غسيلك!».

تبدّد الحلمُ وتركها مرتعشةً من فرط الرّغبة الّتي اجتاحت فخذيها الممتلئين.

انحنت لسحب الغسيل فخطر لها خاطرٌ: «كيف يمكن لرجلٍ أن يجلب إلى هذا البلد الضّائع قمصانًا بهذه الرّقة وهذا البياض؟

ما من شكّ في أنّه أنفق أموالًا طائلة حتّى يحصل على هذه الأشياء الباهظة. والأموال هي ما ينقص الجميع دومًا».

بسطت أكمام القمصان كلّها وتعمّدت تشمّمَ رائحة الرّجل. لم تستطع السّيطرة على نفسها، فقرّبت القميص من وجهها. إنّها رائحة رجلٍ! رائحةٌ حقيقيّةٌ!... رائحة جسدٍ مثيرٍ! لا رائحة العرق الخانق الممزوج بغبار الشّمس وملح الأسماك، تلك الّتي تضوع من رجال السّيرتاو بلا شفقةٍ.

بقيَتْ مذهولةً لحظاتٍ. ثمّ قالت لنفسها:

«رَجْرِجي نفسَك فْرُو، فأنتِ اليوم غريبةُ الأطوار!».

ومع ذلك، ما كان لها أن تُبعد القميص النّاعم المعطّر عن وجهها المتعرّق الجميل.

يحمل ذاك القميص الحياة، كلّ الحياة. فتفوح منه لتتسرّب إليها... كانت قد لامست الرّجل... والرّجل؟ أششت! تتذكّر أنّها قلّبت حافظة أوراقه وأنّها وجدتها مليئةً بالنّقود. لقد تركها على الطّاولة سهوًا. وكانت هناك صورةٌ فوتوغرافيّةٌ لزوجته ومجموعةٍ من الأطفال. وما يمُكن ملاحظته أنّ المرأة تُماثلها سنًّا لكنّها أكثر اعتناءً بنفسها لتبدو أصغر. أمّا ساقاها، وانطلاقًا من الجزء الصّغير المُطلّ من تحت فستانها، فلنا أن نقول إنّ مقارنتهما بساقَيْ مادرينها فلور جائزةٌ... نعم... هو ذاك.

«فْرُو، سيحلّ المساء ولن يكون غسيلك جافًّا...».

وما أهمّيّة ذلك؟ ستحمل عند عودتها كوم القمصان، وفي

الغد ستنشرها على الحبل. لقد كان من الجيّد أن تحلم، مادام الحلم لا يكلّف شيئًا. فكّرت في الصّورة الفوتوغرافيّة من دون أن تتخلّى عن القميص، فدبّت قشعريرةٌ خفيفةٌ في جلدها كلّه. نعم... الصّورة... ليس الرّجل ملكًا لها. لا بدّ من وقتٍ طويلٍ لإنجاب أطفالٍ بذاك العدد! كانت ليالي ناعمةً ولا شكّ. حسنًا، هي تعتقد أنّ الأمر يجري هكذا: يولد البيض بذاك الجمال لأنّ الأسرّة والأغطية تدفئ لياليهم. أمّا هناك في القرية فمؤكّدٌ أن الدكتور يشعر بالوحدة، وأنّه مضطربٌ. ولعلّه تلمَّس في قرًى أخرى واقعةٍ على ضفاف النّهر بعضَ الخلاسيّات البدينات. بل إنّها لا تشكّ في ذلك. فرجل مثله، برائحة العطور الثّمينة تلك، لا يمكنه أن يبقى مُدلّيًا ذراعيه.

«فْرُو، إنّ هذا ما يُسمّى أفكارًا شيطانيّة! ليس للرجل علاقةٌ بك! افهمي، إنّه طبيب من المدينة...».

وماذا في ذلك؟ إنّها لا تأخذ شيئًا من أحدٍ وهي تحلم أحلامها تلك... لا تأخذ شيئًا؟ أبعدت القميص واستنشقت رائحة المساء، لكنّ المساء كان قد تضمّخ بعطر الرّجل. يا لذاك الرّأس، وذاك الشّعر الفاتح، المبعثر في بياض السّرير المعلّق... سيكون من الرّائع أن تتخلّل أصابعُها ذاك الشّيءَ الحريريّ. ثمّ تمرّ اليدان بنعومةٍ على الصّدر المخمليّ. لن يتفطّن لقسوة يديها وخشونتهما بسبب الأعمال الشّاقّة الّتي تضطلع بها...

«هيّا، فْرُو، اذهبي إلى غسيلك، وصَوْبِنِي أحلامَك. ألا ترين

أنّ المساء قادمٌ؟ وأنّ رياح السّاعة الرّابعة قد هبّت على النّهر لتعدّه للنّوم؟...».

رمت بالغسيل كلّه في الماء، فتكوّنت فقاقيع زادت في حجم حزمة الثّياب. ثمّ طفقت تدلكه بالصّابون مترنّمةً بأيّ نغمٍ يخطر لها، حتّى تتشاغل. بعد ذلك نشرت الغسيل على الرّمال، وقرّرت السّباحة. وكانت الرّياحُ قد حملت البعوض بعيدًا.

فكّت مادرينها فلور فتائل شعرها وجلست في الماء. غمرت جسدها بالصّابون نفسه الّذي به غسلت القمصان. بللّت شعرها الطّويل وجلست على الرّمال في قاع النّهر، وإذ غطّى الماء جسدَها كلّه انتابها شعورٌ غامرٌ بالسّعادة وختمت استحمامها.

يا للحزن اللّعين المنبعث من المصباح المتدلّي من سقف الحجرة! ذاك الضّوء الضّئيل، سجين الغطاء البلّوريّ المدخّن، غير القادر على تضخيم ضلال الأشياء عن قُدرته على نشر حزنٍ شاسعٍ ولا نهائيٍّ.

أدركَ الطبيب أنّ النوم لن يُكحّل عينيه قريبًا، ومع ذلك سلّم نفسه لسريره المعلّق الّذي راح يتأرجح.

لم يعد شيكو دي أديوس بعدُ من الأراضي البعيدة. أمّا مادرينها فلور فسجينةٌ في غرفتها الضيّقة، لا تفعل شيئًا سوى إثارة أزيز سريرها في الظّلمة المدقعة.

وعلى الشّاطئ الأبيض من ناحية النّهر الأخرى، أخذت الدّوابّ تطلق صرخاتٍ مختلطةً بالشّكوى. ولكن لم يكن شيكو دي أديوس هناك كي يفسّر طبيعة كلّ غنّةٍ وكلّ نحيبٍ.

ألقى الدكتور نظرةً على ساعة معصمه، لم تكن الإبر تتحرّك. لقد نسي أن يعبّئها. حدّث نفسه قائلًا: «لهذا يتوقّف الوقت اللّعين! ولهذا أيضًا لم يصل حتّى الآن هذا الرّجل الأشدّ منه لعنةً!» ثمّ مرّر يده على جبينه لمسح القلق. من حسن حظّه أن اللّيل يأتي معتدلًا فيتخلّص جسده من حرارة النّهار المتّقدة!

نبح كلبٌ. كان هناك شخصٌ مّا يقترب راكضًا. زمجر الكلب مهدّدًا ثمّ صمت حالما تعرّف على القادم. وتوقّف ذاك الشخص عند الباب لاهثًا وهاتفًا:

«دكتور!... دكتور!...».

قفز الطّبيب من سريره المعلّق. وفتحت مادرينها فلور الباب على عجلٍ ناسيةً تخلّيها عن ملابسها. من المؤكّد أنّ شيئًا خطيرًا قد حدث.

«دكتور!... دكتور!...».

بدت عينا جيريبيل وكأنّهما تريدان القفز إلى خارج محجريْهما. وكان على وجهه اللّامع بعض الشّحوب. سألاه:

«ماذا حدث أيّها الصّغير؟».

لكنّ الصّوت أبى الخروج، كان مختنقًا، ميّتًا.

تمكّنا بصعوبةٍ من إدخال الصّبي إلى حدود غرفة الجلوس، وبعد أن تناول كوب ماءٍ وبذل مجهودًا واضحًا استطاع التّكلّم. ببطءٍ في البداية ولكن بعد ذلك، وكمَن تذكّر فجأةً خطورة الموقف، راح يسردُ الكلام متداخلًا. كان يُطلق الكلمات فتتدافع بلا فواصل:

- إنّها... إنّها... «الموهر - داما»... النّمر هاجمها عندما كانت قرب الحاجز، فتح لها بطنها، إنّها غير بعيدةٍ، يمكن للطّبيب أن ينقذها. هل يمكنك ذلك بحقّ الرّب؟!...

- ألا يمكنك جلبها إلى هنا؟ سأعالجها...

عدّل الطّبيب بنطاله وارتدى باقي ملابسه. ورمت مادرينها فلور على جسمه الغطاء الّذي كانت قد تلفّفت به لإخفاء تنّورتها الدّاخليّة.

أخذ الطّبيب حقيبته وطلب من مادرينها فلور أن تغلّي المحقنة. جمع ضمّاداتٍ ومطهّراتٍ... وبينما كان يفعل ذلك، منكبًّا على الطّاولة، انحدر شعره الأشعث على جبينه فاتّخذ في ضوء المصباح مسحةً فضيّةً فاتحةً شبيهةً بتلك المسحة الّتي يتّخذها الشّاطئ الأبيض عند اكتمال القمر.

لم يُرِد أن يستفسر أكثر، لكنّه تساءل في نفسه عمّا يمكن أن تفعله امرأةٌ في مثل تلك السّاعة بالقرب من الحاجز. وارتجف إذ انتبه إلى أنّ الحاجز غير بعيدٍ عن مسكنه وأنّه كثيرًا ما يمرّ بالقرب من هناك ولاسيّما في الأيّام الأخيرة. لقد قال جيريبيل إنّها «موهر - داما»(1)، وهو يعرف تمامًا ما تعنيه تلك الكلمة مع أنّه ليس من السّيرتاو. كانت المسكينة ولا شكّ على موعدٍ سرّيٍّ مع أحد أولئك الأزواج المُختنقين بزوجاتٍ غيوراتٍ إلى أقصى حدٍّ... وفجأةً، هجم النّمر! وبضربةٍ من مخالبه شقّ بطنها!. جال بخاطره عفويًّا، ومن دون نوايا

(1) موهر ــ داما: Mulher-dama، كلمة محلّيّة تعني المومس.

سيّئةٍ، أنّ قرب الحاجز جدولَ ماءٍ وأنّ المرأة تمدّدت ولا ريب خلال تلك اللّيلة النّاعمة على العشب لتُنْعِشَ جسدَها ولفّت ثيابها على شكل وسادةٍ... وعندئذ تقدّم النّمر بخطواته المخاتلة...

وصل الخبر إلى سكّان الأكواخ القريبة بعد أن نشرته صرخات جيريبيل، فهبّوا راكضين، ودخلوا على الطبيب بِلا استئذانٍ، وجعلوا يتأمّلون استعداداته في صمتٍ مطبقٍ.

اقتربت مادرينها فلور حاملةً قِدرًا به ماءٌ ما يزال يغلي.

وتوافد مزيدٌ من النّاس. وكان هناك رجلٌ ذو لحيةٍ سوداء يتكلّم معلّقًا وهو لا يكفّ عن مضغ قطعة تبغٍ ونقلها بين حنكيه:

- إنّها مجزرةٌ حقيقيّةٌ! بطنها مفتوحٌ من أعلى إلى أسفل... حدث ذلك في أقلّ من رمشتين، فلم تجد الوقت كي تصدر أوف!

توقّف الطّبيبُ لحظةً سائلًا وقد بدأ الانتظار يشعره بالقلق:

- ألمْ يأتِ الصّبيّ بعد؟

- لن يتأخّر يا دكتور، إنّه ينقلها ببطءٍ...

- ألم يذهب أحد لمساعدته؟ فهو ليس كبيرًا.

- هو لا يحتاج إلى ذلك دكتور. فالموهر - داما صغيرةٌ جدًّا.

ابتلع الطّبيبُ ريقه. مادامت صغيرةً، فعليه أن يعدّل من مجرى أفكاره. ربّما لم تكن مومسًا، وما الكلمة التي سمع سوى مجرّد كنيةٍ خاليةٍ من الذّوق تمّ إطلاقها على طفلة؟ وفي انتظار توضّح الأمر، سيكون حريًّا به أن يمحو صورة تلك المرأة العارية الممدّدة

على العشب... إلخ. أحسّ بالشّفقة، ربّما تكون مجرّد طفلةٍ ذهبت للبحث عن حيوانٍ هي مكلّفة بالسّهر عليه، فنادت من هنا، ونادت من هناك، إلى أن وجدت نفسها بعيدةً عن القرية، ولم تنتبه إلى حلول اللّيل بكلّ مخاطره. وعندئذٍ قدم النّمر، و«باف! باف!» من مخالبه... يا لسكّان سيرتاو المساكين! فكّر بشبه انشراحٍ في بناته الصّغيرات، المحميّات من النّمور والثّعابين، هناك في المدينة. ثمّ فرك رأسه متذكّرا الباصات الصّغيرة الخطرة، والكوارث الّتي قد تحدث على السّكك الحديديّة، والحوادث الأخرى، والزّحمة، وفوضى العاصمة...

صارت الغرفة تعجّ بالحاضرين إلى درجةٍ تستحيل معها رؤية الباب. ومن حسن الحظّ أنّهم ظلّوا يحيطون الطّاولة من بعيدٍ حتّى يتمكّن الطّبيب من القيام بعمله!

تعالت غمغمةٌ جماعيّةٌ معلنةً قدوم الموهر - داما.

فتح الجمهور ممرًّا أمام السائل الأحمر. كانت ذراعا الصبيّ ترتعشان وهو يتقدّم من الطّاولة مطلقًا ما يشبه الصّرخة المنتحبة، ومن إحداهما تتدلّى سلّةٌ تقطر منها الدّماء.

فتح السّلة. وما إن فعل حتّى كاد الطّبيب ينفجر ضاحكًا رغم خطورة الوضع.

أغلق الجمهور الممرّ وانطلقت التّعليقات متلاحقةً:

- إلى أين ذهبت تتسكّع؟...

- هذا ما كنت أقوله. فتعيسة الحظّ هذه لا تخاف شيئًا. إنّها تظنّ نفسها ملكةً على الأرض.

حالما انحنى الطّبيبُ على الطّاولة ساد الصمت وضاقت حلقة الحاضرين، ولكنّ مادرينها فلور عمدت إلى إبعادهم قليلًا حتّى لا يحجبوا النّور.

وسرعان ما توالت الانطباعات:

- لن أقبل أبدًا أن يحقنني أحدٌ بتلك الطّريقة!

- انظروا إليها، لقد نامت على الفور.

- دكتور، هل ستعاني كثيرًا؟

- لا، مُطلقًا جيريبيل.

- وهل ستتعافى؟

- نعم ستتعافى.

مكتبة
t.me/t_pdf

مسح جيريبيل دموعَه بأصابعه فلوّث وجهه بالدّماء. لم ينتبه إلى ذلك. ابتعد قليلًا، وقد بدأ يهدأ.

وعادت التّعليقاتُ فانبرى الرّجل الّذي يمضغ التّبغ يصف العمليّة:

- انظروا إليه وهو يُعيد الأمعاء إلى مكانها!...

- وماذا لو أخطأ؟

- ألا ترى أنّ الطّبيبَ يعرف كلّ شيءٍ؟

- نعم، لكن إذا ارتكب خطأً، فَسَتَنْسَدّ...

كانت مادرينها فلور أسيرةً لشعورها، فما انفكّت ترتشف الطّبيب بعينيْها «كم هو طيّبٌ، هذا الرّجل يا إلهي! وهذا الضّوء

القمريّ الّذي يسلّطه المصباح على شعره!... وهذان الذّراعان اللّذان ينشطان، وينشطان... وعضلاتهما المنتفختان تحت كُمّيهما المطويّين!...» ودّت لو تظلّ هناك تتأمّله نصف ساعةٍ من دون أن تتنفّس... نصف ساعةٍ، لا، بل يومًا!، يومًا؟ لا، بل ما تبقّى من عمرها الذي سيُقدّره لها اللهّ لتعيشه!...

- دكتور، هل مازالت قادرةً على الحمل؟

- طبعًا يا جيريبيل. فضربة النّمر لم تُتلف شيئًا من أعضائها التناسليّة.

وإذ سمع الرّجل ذو التّبغ ذلك تمتم:

«يا لغباء جيريبيل! المخالب لم تطل سوى البطن!... لو أنّها لمست فرجها، عندئذٍ...».

ثمّ التفت إلى امرأةٍ بالقرب منه وقال:

باستيانا، انظري إلى هذا، إنّ الدّكتور يخيط أفضل منك!

- نعم هذا صحيحٌ! كأنّه بصدد تطريز حاشية بنطال!

أمّا مادرينها فلور فقد تحجرّت في مكانها تحت وطأة الخيالات التي داهمتها...

ابتعد الطّبيب وقال للحاضرين مُبتسمًا: «انتهى الأمر يا أصدقائي. والآن، ليذهب الجميع إلى النّوم. فأنا مرهقٌ قليلًا...».

خرج الحاضرون بكلّ احترام. ولم يبق في الغرفة إلّا الطبيب وجيريبيل وموهر - داما الملفوفة بالضّمّادات.

- هل يمكنني حملها إلى منزلي يا دكتور؟

- لا، جيرييبل. انقلها بهدوءٍ لتنام في ذاك الرّكن. إن حرّكتها بقوّةٍ، ستموت.

وبكلّ الحنان الممكن، نقل الفتى الجسم الصّغير النّائم إلى المكان المشار إليه. ولم يكن سوى حيوانٍ صغيرٍ... مجرّد كلبةٍ صغيرةٍ...

ثمّ توجّه إلى مادرينها فلور سائلًا:

- هل يمكنني البقاء هنا مادرينها؟ قد تحتاج موهر - داما إلى شيءٍ...

- ابقَ...

ذهبت مادرينها فلور فجلبت إبريق ماءٍ كي يغسل الطّبيب يدَيه، وأخذت تسكب له الماء بهدوءٍ أمام الباب. مدّت إليه الصّابونة، لكن لم تكن للصّابونة أيّ رائحةٍ، ما كان يفوح هو رائحة الرّجل. تلك الرّائحة، إنّها قريبةٌ جدًّا... رائحةٌ جديدةٌ، وليست متأتّيةً من القميص.

دخلا. جلس الطّبيبُ على المقعد فيما راحت هي تُزيل بُقَع الدّم من فوق الطّاولة. بدا متعبًا وهو يتأمّل كلّ حركات جسد المرأة المحتفظ بيفاعته، الجسد الّذي لا يكفّ عن المطالبة بشيءٍ مّا.

رفعت مادرينها فلور عينيها فقابلتها ابتسامته. كان ضوء القمر قد هبط من شعره الفوضويّ ليلمع في عمق عينيه. دخلت غرفتها، وواربت الباب قليلًا، كان قلبها يخفق بشدّةٍ ولا يجد سبيلًا إلى التّوقّف.

أمّا جيرييل فظلّ جالسًا بجانب الكلبة الصّغيرة المريضة. ثمّ هدهده النّوم، نوم الطّفولة العميق... فداعب رأس الكلبة، ووشوش لها بعض الأسرار:

«هل ترين، أيتها المسكينة الصّغيرة، هل ترين ما فعلته بنفسك؟ لماذا؟ في المرّة القادمة سيتمكّن النّمر من قتلك حقًّا. لقد أسعفك الحظّ هذه المرّة، لأنّ الطّبيب كان هنا بالجوار».

تمدّد إلى جانب البكماء الصّغيرة مُبقيًا على مسافةٍ كافيةٍ حتّى لا يزعجها خلال نومها. صار حنانه متقطّعًا بالنّعاس. لم تعد لكلماته معانٍ واضحةٌ، مع أنّه مازال يريد أن يتكلّم عن الألم الّذي مرّا به.

كان الطّبيبُ قد تمدّد في سريره المعلّق وأشعل سيجارةً، وجعل يتأمّل حركات جيرييل.

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتّى نام الصبيّ.

خلع الطّبيب قميصه ولبث لحظةً في مكانه على السّرير المعلّق. ثم انتصب واقفًا وتقدّم مُتأنّيًا من الطفل ووضع على جسده غطاءً بكلّ حنانٍ. وبذلك صار على يقينٍ من أنّه لن يشعر بالبرد في تلك اللّيلة.

أطفأ المصباح وتوجّه إلى غرفة مادرينها فلور. وابتسم، لأنّه كان متأكّدًا من أنّها واربت الباب أقلّ ما يُمكن...

(5)
نَهْرٌ خَارِقٌ

ما هذه الأمسيات القصيرة والمنعشة إلّا مفتتحٌ لفصل الصّيف العظيم. ينبغي جمع كميّةٍ أكبر من الحطب على الشّاطئ. سيحلّ مايو قريبًا، ثمّ يطلّ من خلفه يونيو بصباحاته المتجمّدة، ومن بعده يوليو، وهكذا تحلّ اللّيالي الباردة الطّويلة، فيتكمّشُ الجسم أمام جمرات النّار منذ حلول اللّيل إلى طلوع الشّمس. إنّه البرد الصّيفيّ الكبير، كما يُقال.

كان زي أوروكو يفكّر في هذه الأمور وهو مستلقٍ على الشّاطئ يتابع ظلام اللّيل يتسرّبُ حثيثًا، ويغمسُ يده في الرّمال الدّقيقة ويتركها تنزل من بين أصابعه مثل السّيول. يبتسم. ويتذكّر أيّام كان طفلًا يدرس في المدينة بمدرسة «الآباء المسيحيّين»، كان المَثَلُ الّذي لا يكفّون عن ذكره هو الآتي: «إذا ظلّت حمامة تأتي إلى الأرض مدّةَ آلافٍ وآلافٍ من السّنوات لتحمل في كلّ مرّةٍ حبّة رملٍ، حتّى تنتهي رمال العالم كلّه، فعندئذٍ فحسب تُشرِعُ الأبديّة أبوابَها.»

«يا للحماقة، يا إله السّماء! إنّه أمرٌ لم يُرَ البتّة، أن تعيش حمامةٌ مثل هذه الحياة الطّويلة والتّعيسة.» قال ذلك وابتسم من جديدٍ.

في الغد، وقبل أن تشير زاوية الشّمس إلى انتصاف النّهار (هذا لأنّها لم تعُد في أوجّها وقتئذٍ)، سيكون زي أوروكو قد شارف على الوُصول إلى ضفّة بيدرا. هناك أناس كثرٌ في انتظار أن يمنحهم السّمك الّذي اصطاده وملّحه من أجلهم. سيحتفظ ببعضه له، وسيوزّع الباقي على الهنديّات الأرامل والأطفال.

توقّفت يده حول القبضة الرّمليّة الأخيرة. عليه إذَن أن يتحدّث إلى الطّبيب؟ مع أنّه لا يشكو من شيءٍ ما عدا بعض الألم العابر على مستوى الكتف اليمنى كلّما حلّ الصّيف. لكن، هذا أمرٌ ليس من مشمولات الأطبّاء. إنّه لا يتطلّب أكثر من دَلْكِ المكان بزيت الدّلافين المسخّن على لهب شمعة...

يا لحزنه المنبعث من فكرة التقاء طبيبٍ آتٍ من المدينة! إنّه لا يريد العودة إلى أيّ مدينةٍ بأيّ حالٍ من الأحوال!... مهما تكُن تلك المدينة! ومع ذلك، فإنّ رجلًا يقتلع نفسه من هناك كي يتفرّغ للكشف عن أمراض الفقراء هو رجلٌ طيّبٌ بما يكفي، هذا مؤكّدٌ.

جلس وراح ينفخ في النّار، ثمّ نظر إلى الحروف المقشّرة، «**روزينها**»، وسأل:

- هل أنت حزينةٌ، يا سيّدتي العجوز؟

تنهّد القارب بعمقٍ. فخمَّن زي أوروكو: «ها قد عادت إلى طبعها الشّجريّ القديم...»

- أنا أيضًا يا روزينها لستُ مُتأكّدًا من شيءٍ، كلّ ما أعرفه هو

أنّي أفضّل ألّا أفكّر أكثر في الأمر.

- كشنغو، ديلينغو، تينغو... أعرف.

- حدّثيني إذَن.

- إنّها تلك القصّة نفسها.

- مرّةً أخرى، روزينها!

- لن نتخاصم اليوم. لكن، يمكنك أن تعدني بهذا على الأقلّ.

- لماذا؟

- إنّي قديمةٌ ولم أعد أصلح لشيءٍ. إنّي مليئةٌ بالثّقوب.

- عندما نصل إلى القرية، سأصنع لك لَبْخة من القطران وفق القواعد المعروفة.

- هذا لن يؤدّي إلى شيءٍ، زي أوروكو. تسدّ ثقبًا من جهةٍ لينفتح آخر من الجهة الأخرى. لقد ترهّل خشبي، لم يعد ينفع معه شيءٌ.

صمتنا لحظاتٍ قليلةً. ثُمّ قالت روزينها مُلحّةً:

- إنّي عجوزٌ يا زي أوروكو، عجوزٌ وثقيلةٌ. هل تعتقد أنّي لم أكن أراك، عندما نكون على النّهر وتُقضّي وقتك في إفراغ المياه من هيكلي؟ إنّي أرى كلّ شيءٍ. ثمّ إنّي لا أريد أن أكون مثل بقيّة الزّوارق، تلك الّتي تنتهي مشلولةً ومهملةً على الشّاطئ لتُستخدم معالفَ للحيوانات. لا أريد أن تلعقني الخيول والماعز والثيران والكلاب، هذا أمرٌ مُحزنٌ للغاية.

- ماذا تريدين منّي أن أفعل؟
- ما طلبته منك مرّاتٍ عديدةً.
- لكن، روزينها! كم من السّنوات انقضت ونحن نكدح معًا؟ كم مرّةً نزلنا وصعدنا هذا النّهر الطّيب والصّديق؟ ماذا سيحلّ بي في غيابك؟
- ألهذا تُمانع؟ لقد قلت لك من قبل إنّ بقرية سانتا إيزابيل يوجد ذاك المُسمّى بـ«إيديارور» وإنّه يُريد بيع زورق يشبهني تمامًا، وتمامًا كما تفضّله...

شارف زي أوروكو على ابتلاع دمعته. ولكن رزوزينها، أبت التّوقّف:

- ذات مساءٍ، عندما تميل الشّمس لتصبح في لون واحدٍ من تلك الببّغاوات الحمراء الّتي تحبّها كثيرًا، ستقودني إلى أحد الشّطآن البيضاء، وَتجرّني إلى حيث الرّمال، ومن غير أن يتفطّن إليك أحدٌ، ستوقد فيّ النّار. بعد ذلك، ستبتعد قليلًا، لأنّي لا أريدك أن ترى كيف أختفي. لن يكون هناك سوى السّماء واللّيل. ستجرفُ رياح اللّيل رمادي، بعيدًا. سأكون سمادًا للأرض وسأنبُتُ في أشجارٍ أخرى.
- كفى روزينها! وإلاّ فإنّي عندما أشوي فيما بعدُ قطعةً من اللّحم على السّيخ، لن أقدر على ابتلاعها.
- لا، زي أوروكو. إمّا أن تعدني اليوم وإلّا لن تفعل أبدًا. هيّا عِدني.

- لكن روزينها...
- قلت لك مرارًا وتكرارًا إنّي لا أريد أن أنتهي معلفًا للحيوانات. هل تعدني؟

ظلّ زي أوروكو يمشي طولًا وعرضًا، عاضًّا على يديه، حاشرًا قدمَيه الحافيتَيْن في الرّمل البارد في محاولة منه لدفن انزعاجه. لا يمكن للجدال مع روزينها أن ينتهي إلى شيءٍ يُذكر. وفي نهاية المطاف قال:

- أعدك، لكنّي سأعاني مثل المحكوم بلعنةٍ أبديّةٍ.
- كلّ شيءٍ آيلٌ إلى نسيان.

قهوة ساخنةٌ ولذيذةٌ. الجسمُ مُلتفٌّ كما ينبغي قرب نارٍ موقدةٍ. واللّيل الحالك عامرٌ بنجومٍ شبيهةٍ بعددٍ لا يُحْصى من حبّات الدّقيق.

- روزينها، جاء دوري اليوم كي أروي لك حكايةً لم تسمعيها من قبل.
- وهل ستبدأ بـ«كان يا ما كان في قديم الزّمان؟».
- لا، ليس هذه المرّة.
- خسارة، لأنّ كلّ حكايات الإنسان تكون أجمل عندما تبدأ بـ«كان يا ما كان في قديم الزّمان...».

فرم زي أوروك قطعةً من ورق التّبغ في راحة يده ولفّها في قشّةٍ من الذّرة. أشعلها من جمرةٍ أمامه وراح يدخّن بتلذّذٍ وهو لا يكفّ عن النّظر في السّماء:

- هل تتذكّرين عندما كنت في ليوبولدينا، منذ عامين، على

متنِ سفينة ليوناردو فيلاس بُواس؟ حسنًا، لقد حدث أمرٌ لم أخبرك به مطلقًا.

- بالنّظر إلى هيئتك الشّبقيّة هذه، زي أوروكو، لا شكّ في أنّ هناك امرأةً في هذه القصّة.

- هناك واحدة منهنّ بالفعل.

ضحك، نفث نفسًا من الدّخان، وانطلق...

كانت للشّمس حرارةٌ شديدةٌ تؤذي العيون، وترقّص فيها صور الأشجار المُمتدّة على طول النّهر. لم تكن هناك ريحٌ ولا غيرها. وكان المحرّك من شدّة هزّه للسّفينة يُسبّبُ دغدغاتٍ تصل إلى أرنبة الأنف. في تلك السّاعات، مضى الجميع في بحثٍ محمومٍ عن ركنٍ ظليلٍ من أجل نسيان الوقت ولو قليلًا. وكان الهنديّ «كُووَا»، الّذي جلبه ليوناردو من شِنْجُو بسبب شِجارٍ، يقودُ الباخرة بعينيْن مرميّتيْن على الأبديّة.

أمّا أنا، فكُنتُ مستلقيًا في إحدى الزّوايا، وقد انتابني شعور بأنّ السّفينة ذات القرع المهول تسير فوق جسدي لا على النّهر. في العادة، عندما ينتهي السّفر، نقضي أيّامًا ونحن نشعر بتلك الاهتزازات حيثما ولّينا وجوهنا.

نادى ليوناردو على كُووَا - وهو الّذي كان البيضُ قد أعطوْهُ اسمَ «كريستاو دي سيريلو»، لكن لم يتمكّن أحدٌ من حفظه فاكتفوا بـ«سيريلو»- كُووَا! ناداه من بعيدٍ. إذ بدا له منشغلًا، كشأنه دومًا، فهو يخشى حدوث عطبٍ طارئٍ على المحرّك.

أومأ سيريلو برأسه عند منحنى النّهر:

«ها هي ساو بيدرو».

أيقظ ذاك الإعلانُ النّاس. فالجميع يعوّلون على شراء ما به يملؤون بطونهم من ساو بيدرو. إذ كان الأكل الّذي يوزّعونه على ظهر السّفينة قليلًا ومُعَادًا.

أحسستُ برغبةٍ في الضّحك. فقد بدأت النساء في المقصورة -وهي الوحيدة بالمناسبة- بوضع أنوفهنّ في الخارج، وَرُحْنَ يغمسن أياديهنّ في الماء من أجل طرد بقايا نعاسهنّ وإدخال بعض التّوضيب على شعورهنّ الشّعثاء. من سوء حظّ أيّ امرأةٍ أن تسافر على مثل ذاك المركب المترهّل صحبة رجالٍ. فقد ظلّت النساء طوال السّفر حبيسات تلك المقصورة الضيّقة. وكانت ثمّة عقباتٌ تطفو أمام الباخرة من حينٍ إلى آخر، فيقفز رجلٌ في الماء عاريًا تمامًا حتّى يزيحها... ولذلك تُسجن المسكيناتُ في مقصورةٍ بنافذةٍ مغلقةٍ من دون أدنى تهويةٍ في ذاك الحرّ الشّديد. وفي أوقاتٍ أخرى، حينما تضطرّ السّفينة البخاريّة إلى التّوقّف على الشّاطئ، تركض كلّ الإناث ليتخفّين داخل الأدغال من أجل قضاء حاجاتهنّ، وهنّ يرتجفن من فكرة ألاّ يُترك لهنّ الوقت الكافي لذلك، فالبحّارة لا يفكّرون في مثل تلك الأشياء.

حسب الصّحون الّتي يتمّ مدّها إلى المقصورة، عددهنّ أربع عشرة دون احتساب الأطفال. أمّا الحرّيّة فلم تكن متوفّرةً لهنّ إلّا عند حلول اللّيل على الشّاطئ، ساعة نوم الجميع بالقرب من النّار.

وكان ليوناردو لا يكفّ عن الشّكوى:

«ليس نقل الرّكّاب بالعمل المربح. إنّه لا يمنحك سوى مزيدٍ من الشّقاء كلّ يومٍ. الجميع يشتكون. لم أرَ في حياتي أناسًا فقراء كثيري التبرّم مثل هؤلاء: «آه! سيّد ليوناردو، أنا لا آكل سمك البيرارا، أنا أتبع نظامًا غذائيًّا مضبوطًا!... لا، بيض السّلاحف هذا يزيد في الميزان... لا أرغب في بيض النّوارس، هذا سيّئٌ جدًّا وأنا مؤمنةٌ...»».

ويختتم قوله بحركةٍ من ذراعيه:

«ينبغي ربطهنّ ربطًا محكمًا!».

لكن، يحصل أمرٌ مختلفٌ: عندما يشتغل المحرّك البخاريّ، يستفيق الرّجال، وتبتسم النّساء آملاتٍ في نصف ساعةٍ من الحرّية يقضينها متحدّثاتٍ عن بعض المشاهير أو عن خبرٍ سارٍّ.

دخلت الباخرة الخليج فلاحت منحدرات ساو بيدرو. هناك حيثُ يتركّز كوخ «كاشويرا»، الهنديّ الكاراجا الّذي يملك ستّ نساءٍ أو سبعًا. يدّعي أناسٌ بلا أخلاقٍ أنّ «كاشويرا» يؤجّر هؤلاء النّساء القادمات من جزيرة جاوة لصيّادين يظهرون في شهر يونيو أو يوليو. لكن لا يوجد مثيلٌ له في طعن سمكة البيراروكو العملاقة، ولم يحدث أن رآه النّاس بيدَين فارغتَين، إنّ ذلك من قبيل المستحيل...

اقتربت نساءُ «كاشويرا» من الجرف للتفرّج على وصول الباخرة. ورُحن يُجبن على عبارات التّرحاب بإشارةٍ مقتضَبةٍ، فالهُنود عادةً ما يفعلون ذلك.

تواصلت الرّحلة عبر القناة. وهناك فتح الرّكّاب عيونًا جشعةً. فثمّة دومًا بَيْضٌ وسكّرٌ بُنّيٌّ وجبنٌ حامضٌ عند السيّد «أليكسو».

«أَوْقِفِ المحرّك!».

صمتت الآلة وراحت الباخرة تقترب من الميناء ببطءٍ قبل أن تتوقّف نهائيًّا. ومن عند المُقدّمة، قفز بحّارٌ يحمل حبلًا وتسلّق المرتفع بخفّةٍ.

وَسرعان ما خلت الباخرة من الرّكّاب. لم تبق سوى المرأة المكلّفة بالطّبخ الّتي كانت توجّه نظرات حسدٍ إلى سعادة الآخرين. بقيَ سيريلو أيضًا، وأخذ يرمق بلامبالاةٍ كبيرةٍ كلّ ما يدور حوله من دون أن يغادر مكانه.

كان ليوناردو يسير بجانبي. إنّ ساو بيدرو هذه ليست أكثر من بعض المنازل المتفرّقة، ولقد تجمّع أمام أكبرها حشدٌ من النّاس، فيما تعالت ضحكات رجالٍ واقفين في دائرةٍ من جملةٍ صادمةٍ نطقتها امرأةٌ.

ومن عند الأكواخ الأخرى كانت النّساء يقابلن وقاحة الرّجال بأعينهنّ الشّرسة. ويلقين علينا تحيّةً خاليةً من كلّ دماثةٍ.

اقتربنا من الحشد. كان السّبب في كلّ هذه الضّجة: امرأة بدينةٌ، قصيرةٌ، بنهديْن مهتزّين تحت بلوزةٍ من الموسلين الشّفّاف، وتنّورةٍ سوداء ملتحمةٍ بفخذيْها، وبزوجَي حذاءٍ لهما كعبان عاليان. أمّا ما يُمكن عدّه بمثابة الإهانة عند غيرها من النّساء الفقيرات فهو الوشاح المعقود في مستوى مؤخّرة عنقها ليشدّ شعرها. كانت تضع

يدها اليمنى على وركها وتمسك باليسرى مظلّةً وتقهقه كاشفةً عن فمها الخالي من الأسنان، مع أنّها تبدو في مقتبل العمر.

جذبني ليوناردو فيلاس بُوَاس قائلًا:

«تعال، عليّ أن أشتريَ أشياء ومازال أمامنا شوطٌ من النّهر لنقطعه اليوم».

قبل أن نبتعد، تناهى إلى مسمعي ضحك الرّجال من مزحةٍ أطلقتها المرأة.

ثُمّ علّق صوتٌ غليظٌ ضاحكًا:

«يا لشيكا دوادا هذه!... شيكا المجنونة!... إنّها حقًّا مجنونة!...».

ومع هذا، تفتقر ساو بيدرو إلى كلّ شيءٍ. لم نجد لا بيضًا ولا سكّرًا. وبعد بحثٍ عميقٍ لم نحصل إلاّ على دجاجةٍ هزيلةٍ...

لم يكن أمام سيريلو إلّا أن يطلق صافرته حتّى يجمع المسافرين. صعدنا إلى المركب وظللنا ننتظر حتّى تتمكّن النّساء من تجاوز الجسر الخشبيّ بخطواتهنّ الحذرة.

فجأةً، قطّب ليوناردو حاجبَيه. فتابعتُ نظرته.

- لا! هذه، لا أريدها!

- لا بأس، لا بأس...

كانت شيكا دوادا تنزل المنحدر في اتّجاه الجسر الخشبيّ متبوعةً، كشأنها دومًا، بمعاكساتٍ رجاليّةٍ فظّةٍ، وكانت مظلّتها مفتوحةً وهي تمسك حقيبةً بيدٍ وكيسًا باليد الأخرى.

ناولها أحدهم دجاجةً قائلًا:

«خُذي، هذه من عمق قلبي. ستحتاجين إليها في الطّريق...».

لا شكّ في أنّ نساء البرّ قد انشرحن لرحيل الموهر-داما. لكنّ اللاّتي ستشاركهنّ السّفر، أصبحن عابساتٍ. وانطلق الصّراع محتدمًا.

قال ليوناردو معلّقًا:

«يا للشّيطانة! لم تقل شيئًا، لم توافق على السّعر، ولم تقل إلى أيّ وجهةٍ تتّجه...

- لا بأس، لا بأس...

لا يمكن لشيكا دوادا أن تعتبر نفسها مهزومةً منذ المناوشة الأولى. لا تريد النّساء أن تكون معهنّ داخل المقصورة؟ حسنًا، كان ذاك أفضل لها بكثيرٍ... لذا تركتهنّ وذهبت للجلوس في المقدّمة...

بدأت بزيارةٍ عامّةٍ للباخرة وسلّمت حقيبة سفرها حتّى تُحفَظَ بأمانٍ بين الآلات. ثمّ حشرت الدّجاجة بين يديَّ غير مركّزةٍ تمامًا على شخصي: «خُذ هذه، أيّها الصّديق. سنأكلها فيما بعد مع قليلٍ من البفرة[1]...».

أخذتُ الدّجاجة من يدها وذهبت لربطها في المطبخ.

حكّ ليوناردو رأسه. وقد بدا من هيئته أنّه لن يرفض مرور شخصٍ يحتاج إلى التنقّل عبر هذا النّهر الشّبيه بصحراء خاليةٍ، ولاسيّما في جزيرةٍ مثل جزيرة البانانال.

---

(1) البفرة:، مسحوقٌ لعروق شُجيرةٍ تنبتُ في أمريكا الجنوبيّة يُستخدَم بديلاً من الخبز.

كنتُ ممدّدًا على سطح المركب مشرفًا على كلّ ما يدور. وسرعان ما انطلقت الحرب.

كانت شيكا دوادا قد قسمت الرّكّاب إلى فريقَيْن. أي إلى نارَيْن: النّساء العدائيّات والصّامتات من جانبٍ، وهي والرّجال من الجانب الآخر. كانت تقول:

- لم يأتوا للبحث عنّي إلّا في تلك اللّحظات. كانت هناك امرأةٌ عجزت عن الولادة. مصيبة. أنا، لم أكن أعرف شيئًا على الإطلاق، وبوصفي غريبةً عن البلد كان عليّ أن أبدو متعاطفةً معهم. دخلت إلى الكوخ، فوجدتُ المسكينة تئنّ، وتئنّ... وتُدير عينيْها في كلّ النّواحي والجنينُ يرفض الخروج. قال لي الرّجال: «افعلي شيئًا، شيكا دوادا، فأنت من المدينة...

- وبعد؟ ماذا فعلت؟.

انفجرت شيكا دوادا ضاحكةً، وهي تدير خصرها وتُرعشُ صدرها الهائل:

- ماذا فعلت؟ حسنًا سأخبرك.

جلست على رمال الشّاطئ، كاشفةً عن فخذَيْها لرجالٍ لم يروا موهر- داما منذ زمنٍ طويلٍ. وتابعت:

- ذهبتُ إلى الزّوج. كان لون الرّجل قد انتقل من الأسود إلى الرّماديّ. وسألته: «هل يوجد فلفلٌ في المطبخ؟ هل هناك شيءٌ من دقيق الذّرة وقطعةٌ من السّكّر؟»، فأجاب بنعم.

كانت شيكا تتحدّث وتجسّد المشهد. وضعت على النّار قدرًا وهميًّا، وبعد أن سكبت بعض الرّمال الدّقيقة، راحت تتظاهر بتحريك الخليط مستطردةً:

- حملتُ الدّواء... كان خليطًا من الفلفلِ الصّافي. لقد أثارت المسكينةُ شفقتي. لكن، لا بدّ لهذا اللّعين الصّغير أن يولد... قلت لها: اشربي. فمدّت يدها مرتعشةً. كان عليّ أن أمسك يدها وقد بدوت جدّيةً في كلّ ما أفعل، مع أنّي كنت أودّ أن أظهر في مظهرٍ آخر».

توقّفت شيكا لحظةً واحدةً. ثمّ قلّبت عينَيْها مقلّدةً المرأة وقالت:

- لقد تصاعد الدّخان من كلّ مكانٍ منها، حتّى من الأذنيْن. وفي أقلّ من عشر دقائق شرع الصّغير في الخروج.

- وكيف عرفت أنّ الفلفل يصلح لهذا؟

- لا أعرف. لقد حاولت، ونجحتُ.

تعالى ضحكٌ صاخبٌ رجرج الجميع. وقفت شيكا دوادا وتمطّت مُعلّقةً:

- أنا ذاهبة للنّوم.

ونظرت حولها لترى ما إذا كان أحدهم سيعرض عليها نفسه. لكنّها لم تكن محظوظةً، فكلّ الرّجال متزوّجون ولا أحد منهم جَرُؤَ في تلك اللّحظات على الاقتراب من مثل تلك النّار. وهكذا ابتعد الرّجال ماشين على أطراف أرجلهم.

بعد يومين من السّفر، ومن معاناة المحرّك الذي يطلق حِزَقًا تدغدغك إلى حدود أرنبة أنفك... عبرنا مدخل جزيرة لويس ألفيس، وكان معنى ذلك أنّنا إذا ما تابعنا إبحارنا قليلًا، سنبلغ مقاطعة المونتاريا قريبًا.

قال ليوناردو:

- في المونتاريا، عند «بيدرينهو بنهيرو» سنتمكّن من الحصول على بعض شرائح اللّحم المجفّف وبعض الدّقيق والبيض والحليب.

ابتسمتُ له وزدتُ:

- وعصير اللّيمون لنضيفه إلى اللّيكير...

- وفضلًا عن ذلك الشّاطئ ملائمٌ هنا، إنّه قريبٌ من الميناء. ماذا عن هذه؟...

والمقصودة بـ«هذه» هي شيكا دوادا. لقد مُنع الرّجال المسافرون من التّحدّث إليها. ولم تعد المسكينة قادرة على الثّرثرة إلّا مع الطبّاخة وأنا أو ليوناردو.

- قالت إنّها تقصد ليوبولدينا، ومنها ستتّجه إلى غويانيا.

- ستقوم بسفَر كلّ الشّياطين مجتمعين!

- إنّها متعوّدةٌ.

في تلك الأثناء انتابني ضحكٌ شديدٌ إذ تذكّرت ما حدث عندما علقت الباخرة في الرّمال وظلّت النّساء رغم ذلك حبيسات

مقصورتهنّ، وقتها لم تجد شيكا دوادا مكانًا تقصده. لكنّها انفجرت ضاحكةً وعلّقت قائلةً:

- يا للحماقة، يا أصدقاء! هل رأيتم من قبل دجاجةً تعتني بلحم دجاج الآخرين؟

توقّف زي أوروكو قليلًا ونظر إلى روزينها مُستفهمًا:

- ماذا هناك؟ أَلَمْ تعجبك حكايتي؟

- بلى، هذه الحكاية لم أسمعها من قبل.

- طيّب، إذا أردت، فيمكنني التوقّف هنا.

- لا. لا تكترث لصمتي. إنّما هذا لأنّي حزينةٌ. تابع أرجوك...

- لقد نسيت إلى أيّ مستوًى وصلتُ...

- كنتم قد وصلتم إلى مقاطعة المونتاريا.

- آه! نعم، تمامًا!».

واقفًا فوق مقصورة المحرّك ومشدودًا بخيطٍ، كان الدّيك يصيحُ. وما هذا الدّيك سوى تلك الدّجاجة الّتي جلبتها شيكا دوادا. فلم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتّى أدركنا أنّ تلك الدّجاجة ليست في الحقيقة سوى ديكٍ في طور النّموّ. وقد صار في الأعلى غير قادرٍ على أن يرى كوخًا أو ساكنًا فيفتح منقارَيْه ليعلن عنه. ولكن ظلّ الأمر مُمكن الحُدوث في أيّ وقتٍ. كان ما أنقذ حياة الديك الصّغير هو غبطته وهو يجرّب صوته. فمن ذا الّذي يقدر على أكل ديكٍ مكلّفٍ بالإعلان عن السّكّان؟ لو كان مجرّد دجاجةٍ حمقاء لمرّ

بالمقلاة منذ زمنٍ. وقد خمّنَا أنّنا بإمكاننا أن نستبدل الدّيك الصَّيَّاحَ بدجاجةٍ حقيقيّةٍ، وأنّ ذلك قد يحصل في مقاطعة «بيدرينهو بنهيرو» ذاتها. وبذلك يكون قد نجا من السّكين ليضمن سنواتٍ أخرى من الاسترخاء وهو محاطٌ بدجيْجاتٍ كثيراتٍ.

أطلّت علينا إقامة «بيدرينهو بِنهيرو» منتصبةً على مرتفعٍ قرب الشّاطئ، وقد بدت عليها علامات الثّراء والرّحابة، من دون المبالغة في رفاهيّتها.

مرّةً أخرى تدافعت النّساء. فقد كان يكفي أن يصيح الدّيك معلنًا وجود أناسٍ حتّى يُسرعن إلى مدّ رؤوسهنّ من نافذة المقصورة الضيّقة.

في الليل، كانت تتّقد ناران على الشّاطئ: الأولى، نارٌ تابعة لشيكا دوادا، وهي الوحيدة بلا احتياطيٍّ كبيرٍ من الحطب وبلا رفيقٍ، والثّانية، وهي أكبر حجمًا، محاطة بجمعٍ كبيرٍ لأنّ البرد شديدٌ ولأنّ اللّيل عادةً ما يبكي بدموعٍ من ندًى.

وكنّا نسمع أحيانًا أنّاتٍ قادمةً من المقصورة وهي أنّات عجوزيْن يشكوان من الرّوماتيزم.

ممدّدًا كعادتي على سطح الباخرة، اندَسست تحت أغطيتي. ولم تكن في السّماء الرّحبة سوى نجمةٍ واحدةٍ. لا شيء غير اللّيل الحالك والصّمت وعصافير تُغادر الغابة المجاورة وقد أفزعتها نيران الشّاطئ المتّقدة. ولَكَم بدا العواء الآتي من عمق الغابة أو من المراعي المجاورة حزينًا.

في تلك اللّحظات بالذّات، انطلقت صرخةٌ هائلةٌ لتخترق الصّمت اللّيليّ المطلق:

«ما هذا الصّوت؟ من يكون صاحبه؟ ومن أين يأتي؟».

والتفت كلٌّ من صدمهم الصّوت إلى ناحية نار شيكا دوادا. كانت المرأة واقفةً بشعرها الّذي يبدو كطرفٍ في معركةٍ حاميةٍ.

«هل لدغكِ ثعبانٌ؟ هل هاجمكِ وحشٌ؟...».

ولكنّ شيكا دوادا لم تكفّ عن صراخها، واستمرّت تبكي ومن عينيها يتطاير شررٌ في اتّجاه بريق النّجمة الوحيدة.

نسيَتِ النّساءُ ما قد تعنيه «موله داما». وهبّ الجميع متدافعين ليحيطوا بالمرأة.

قفز ليوناردو من سريره الّذي كان معلّقًا في مطبخ الباخرة وركض في اتّجاه الصّراخ.

أمّا أنا فلا. ظللتُ مستكينًا في بردي، أترقّب من ركني ما سيحدث من دون حركةٍ. ثمّة ما يكفي من النّاس...

- ما الّذي حدث، موله؟

- ماذا حدث؟ تكلّمي!.

تغلّبت شيكا دوادا على صرخاتها الباكية، وراحت تتحدّث بوجهٍ لامعٍ من الدّموع:

- ساعدوني، باسم الإله! لقد أضعتُ...

وتوقّفت بلا صوتٍ، مرتعدةً من هول الفاجعة.

- ماذا أضعت موهر؟

- لقد أضعتُ، يا إلهي، لقد أضعتُ كلَّ نقودي، كلّها.

- وهل كان مبلغًا كبيرًا؟

- أظنّ ذلك! إنّه مبلغٌ يقارب المائتين وخمسين. نعم أتذكّر ذلك جيّدًا. ورقتان من خمسمائة، وورقة من فئة العشرة وكانت جديدةً تمامًا، وورقة بالية من فئة الخمسة.

- لكن، كيف أضعت هذه النّقود، موهر؟

- وهل أعرف كيف، يا سيّدة! كانت هنا في حقيبتي الّتي أحتفظ بها دومًا تحت ذراعي.

- لماذا لم تتركي نقودك في المقصورة؟

ضربت شيكا دوادا يدًا بيدٍ وانفجرت قائلةً:

- يا إلهي! كيف لي أن أترك نقودي هناك وأنتنّ لم تسمحن لي بالدّخول، كيف؟.

وساد صمتٌ مطبق لم يكن تُعكّره سوى شهقات شيكا دوادا. وبعد برهة قالت إحدى النساء:

- هل بحثت جيّدًا، قد تكون انزلقت داخل ثيابك؟

- نعم، لقد فعلت سنيورا.

حاولت شيكا دوادا ألّا تُبقي على أيّ شكوكٍ: اقتربت من النّار وخلعت ملابسها. وإذ انكشف فخذاها، راحت ترجرج جسدها ليهتزّ نهداها. وهي تردّد:

«ليس هنا، ولا هنا، ولا حتّى هنا...».

وعندئذ حدث أجمل ما يمكن أن يحدث في العالم. تناولت جلّ النّساء فوانيس، فضلًا عن الأخريات اللّواتي بحوزتهنّ مصابيح يدويّةٌ وأخذن يساعدن شيكا دوادا في بحثها عن نقودها الضّائعة في رمال الشّاطئ. راح موكبُ النساء يتقدّم في الظّلمة، النساء اللّواتي نسين كلَّ الاحتقار الّذي وجّهنه إلى المومس طوال الأيّام الخوالي. كُنّ يخطين ببطءٍ مُغرقاتٍ سيقانهنّ في الرّمال المتجمّدة.

قالت إحداهنّ:

- هل يمكن أن تكوني قد أسقطتها في المياه؟

ردّت شيكا في شبه شهقة بكاءٍ:

- ممكن. فقد انحنيْت من الباخرة لغسل وجهي.

- آه! يا ابنتي، إن كنت قد فعلت هذا حقًّا، فإنّ السّمك هو الذي سيعثر على نقودك!.

وفْلُوكْ...فْلُوك، تواصلت الجولة البطيئة مليئة بالتّعليقات. وكان اللّيل لا يكفّ عن التّقدّم.

قال ليوناردو ناصحًا:

- إن كانت النّقود قد سقطت هنا، فإنّ سيقانكنّ ستطمرها في الرّمل أكثر فأكثر. من الأفضل انتظار حلول الصّباح، وهكذا سيشارك الجميع في البحث.

توقّفت فرقة البحث متردّدةً. ما يقوله صحيحٌ. ويُمكن أن

يُضاف إليه البرد الشّديد الّذي يدفع الجميع دفعًا إلى أن يلوذوا بالأغطية.

انطفأت المصابيح شيئًا فشيئًا. وابتعدت الهامات مثقلةً بقدرٍ من الحزن متّجهةً صوب النّار، النّار الثّانية.

لقد كان الأمر مؤسفًا حقًّا، واصلت شيكا دوادا بحثها يائسةً دون أن تتوصّل إلى شيءٍ. كانت وحيدةً في تلك اللّيلة الباردة، بشعرها المتداخل، برجليها اللتين تحرثان الرّمل، وبعينيْها المنكبّتين على الأرض، كانت تبحث عن الأمل. تذهب، تجيء، تدور حول نفسها، تتوقّف وتبكي. ثمّ تمشي، تتقدّم، تنحني وتبكي بصوتٍ أعلى.

كنت على الجسر أتابعها، وقد بدأ قلبي ينقبض. لم يكحّل النّوم عينيّ. فتلك المخلوقة المسكينة تكسب مالها بصعوبةٍ كبيرةٍ! هي المنحدرة من شوارع البؤس الأسود، لتحصل بعرقها على أموالٍ تفوح بعرق رجالٍ قذرين، أموالٍ آتيةٍ من مناجم الماس المتعفّنة، جمعتها فلسًا إثر فلسٍ، ثُمّ... يا لهذه الحياة العاهرة! يا لهذا المصير الشّيطانيّ!

ظلّت شيكا دوادا تائهةً في ظلمة اللّيل.

تركت الشّاطئ وراحت تقترب شيئًا فشيئًا من ضفّة النّهر.

أرى الآن هامتها الباكية منعكسةً على المياه وهي تتقدّم أكثر فأكثر. وإذ وصلت إلى مكانٍ قريبٍ جدًّا من الباخرة. استبدّ بها البكاء مجدّدًا، فانفجرت بصوتٍ يائسٍ تمامًا:

- ما أنا إلّا تعيسة حظّ!...

تصاعد أنين إحدى العجائز في المقصورة شاكيةً من ألم الرّوماتيزم وعلقّت أخرى:

- لا تقولي هذا يا ابنتي. اللّه يرزق ويأخذ. لا تتكلّمي بهذه الطّريقة!...

- أعرف تمامًا كيف رزقني تلك الأموال!...

غمغمت العجوز مردّدةً مقطعًا من صلاة «آفيه مارِيّا» طالبةً العفو عن ذاك التّجذيف. أمّا شيكا دوادا وبكاؤها الشّبيه بالشخير، فقد مرّا بالقرب منّي. وحينها لم أعد قادرًا على التّماسك. التففت ببطانيّتي واعتدلت للجلوس قائلًا:

- اتركي هذا دُونَا. واذهبي إلى النّوم. غدًا سنعثر على نقودك.

توقّفت المرأة عن البكاء لحظةً، نظرت إليّ ثمّ صبّت عويلها غزيرًا مرّة أخرى:

- آه! سيّد زي أوروكو، لطالما كان الأمر كذلك! منذ أن كنت طفلةً، إنّي مجنونةٌ، برأسٍ لا عقل فيه. وُلدتُ بفلوريانو في ولاية بياوي، هل تعرفها؟ كانت أختي تقول لي دومًا: «انتبهي يا شيكا دوادا، إنّك مخبولةٌ تمامًا».

جدّ صمتٌ طويلٌ. أبعدت شعرها المبعثر عن وجهها وكفكفت دموعَها بظهر يديْها السّمينتيْن ثُمّ أردفت:

- أوه! أرجو المعذرة! هذا لا يهمّك في شيءٍ، إنّها حياتي. لكنّي احتجت إلى أن أخفّف عن نفسي. فقلبي مليءٌ بالأحزان...

- حسنًا، خفّفي عن نفسك يا ابنتي.

شخرت شيكا دوادا من جديدٍ وراحت تسرد ذكرياتها متلاحقةً:

- هل تعلم كم كان عمري عندما غادرتُ المنزل؟ لقد كنت في الثّالثة عشرة... كنت بدينةً هكذا وكان الشّيطان يعمّر جسدي. لكنّ أبي لم يكفّ عن إلحاق الأذى بي إلى أن اضطررتُ إلى... منذ ذاك الحين تحوّلت إلى ما أنا عليه اليوم. كنت فَتاة الجميع، فتاة جنود القوّة العامّة، فتاة البحّارة في الموانئ، والملّاحة على متن السّفن الكبيرة... رُدْتُ البيوت الحقيرة والمرفّهة. تعرّفت على كلّ الشّرائح. والآن، صرتُ في التّاسعة عشرة من عمري وها إنّي أبدو في الثّلاثين. تسكّعتُ مع المنقّبين عن الماس في المناجم. وتمكّنت من جمع تلك الأموال في مدينة شيكيارو. كنت في طريقي إلى غويانيا، هل تعلم. لي فيها قريبةٌ وهي طفلةٌ مثلي تمامًا. أردت استغلال الأمر كي أحصل لي على أسنانٍ. قلت لعلّي أتمكّن من ذلك يومًا... لكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق!...

وانهمرت دُموعها وهي تردّد:

- إنّي تعيسة الحظّ حقًّا...

نسيَت العجوز التي في الدّاخل معاناتها من الرّوماتيزم وشقّت برد اللّيل لتقول:

- بحقّ الرّبّ، يا ابنتي، كفّي عن التّحدثّ على هذا النّحو! سنغرق جميعًا.

- أقسم لكِ أنّه سيكون أفضل من أن تظلّي تجرّين خلفك هذا

الرّوماتيزم في هذا العالم الحقير! لستُ أدري ما بال العجائز يَخَفْنَ الموت بعد كلّ ما عاشوا!...

ردّدت العجوز صلاة أخرى، وواصلت سرد قصّتها:

- كما قلت لك، سيّد زي أوروكو، إنّي حقًّا مجنونة. في آخر سفراتي على متن باخرةٍ، كنت قد اشتريت بذلة «محّيكهْ» (نطقت الكلمة هكذا بتشديدها على الحاء) وقد كلّفتني خمسمائة كروزايور[1] بعد مساومةٍ مضحكةٍ قمت بها مع تاجرٍ متجوّلٍ. لبستها مرّةً واحدةً. ثمّ غسلتها وعرّضتها لأشعّة الشّمس كي تجفّ. لا تظنّنّ أنّي نسيتها معلّقةً، لا... بففف، لقد حملتها الرّياح إلى عمق النّهر!

كان البرد يشتدّ من دقيقةٍ إلى أخرى. حتّى إنّ الدّيك في مرقده صار يحاول إيجاد ملجإٍ يحشر فيه نفسه بحثًا عن بعض الدّفء.

بدأ التّعب يتمكّن من شيكا دوادا. فقلتُ لها مُواسيًا:

- اذهبي للنّوم، دُونا. غدًا، نعتني بالأمر. سيستيقظ الجميع باكرًا من أجل البحث عن نقودك.

- سأفعل ذلك بنفسي! حسنًا، طابت ليلتك!

- طابت ليلتك!

وتوجّهت المرأة نحو وحدة نارها، جثمت على ركبتيْها، باكيةً ونافخةً على جمراتٍ نصف مخفيّةٍ تحت الرّماد.

---

(1) الكروزايرو Le cruzeiro العملة الّتي كانت معتمدةً بالبرازيل من 1942 إلى 1967، ومن 1979 إلى 1986 ثمّ من 1990 إلى 1993 وهو تاريخ تعويضها نهائيًّا بالرّيال البرازيليّ.

التفّت بأغطيتها واقتربت من نارها أكثر. ففعلتُ الأمر نفسه بأغطيتي. ظللتُ أحملق في اللّيل قبيْل إغماض عينيّ، وعندئذٍ مرّ شهابٌ، وهو أكبر ما شاهدت في حياتي من الشّهب، ليتدحرج من السّماء بحثًا عن فضاءٍ لانهائيّ آخر. طلبتُ منه أن يساعد تعيسة الحظّ. لكنّي كنت في قرارة نفسي متأكّدا من أنّها...

وتابعنا الرّحلة من جديدٍ. واشتدّت حرارة الشّمس النّاريّة من جديدٍ، ومن جديدٍ ارتعدت أرنبة أنفي بسبب اهتزاز الباخرة المستمرّ. ومن جديدٍ أيضًا، غابت النّساء في مقصورتهنّ.

كنت جالسًا في المطبخ، أرتشف قهوةً خفيفةً، مرّةً وساخنةً. وكان الحزن اللّعين يرزح بثقله على كلّ الباخرة. لم يكن لأحدٍ أن يتجرّأ على النّظر إلى المقدّمة حيثُ تقبع شيكا دوادا منطوية على نفسها. لم أرَ قطّ أحدًا تمكّن منه الحزن إلى ذاك الحدّ. بدا لي أنّ كتفيها قد تقلّصتَا. نعم. لقد تجسّدَ إحباطها على هذا النحو.

راحت الطّبّاخة تسحب الماء من النّهر كي تغسل أواني فطور الصّباح المتّسخة. وأواني ليوناردو فيلاس بواس لا تحتوي إلّا صحونًا طينيّةً وأكوابًا بلاستيكيّة. «إنّها أوانٍ حقيقيّةٌ بلا جدالٍ! وهم يهشّمون كلّ شيءٍ حتّى بهذه المحاذير، ينبغي تجديدها من حينٍ إلى آخر، لأنّ أناس نهر الأراغوايا يبتلعون الصّحون.» هذا ما ردّدته الطبّاخة كدأبها كلّما نظّفت الأواني. ثُمّ توجّهت إليَّ قائلةً:

– إنّه لأمرٌ حزينٌ، سيّد زي أوروكو. أعرف ذلك عن قربٍ. أعرف فتيات المنقّبين عن الماس. لا يوجد ما هو أفظع من

ذلك. هل تعرف ماذا يعني أن تعبث بك يدان متحجّرتان وكيف تمسكان بك عندما يصل صاحبها إلى الذّروة؟...

- مؤكّد.

- وقد تمكّنت المسكينة الصّغيرة من ادّخار القليل من تلك الأموال. لقد ادّخرت أوهامًا، فمقابل ألفين وخمسمائة كروازايروس، لا يمكنها الحصول إلّا على طاقم أسنانٍ من قشور البرتقال. لكن أن تفقد في النّهاية كلّ ما بحوزتها دفعةً واحدةً، فهذا محزنٌ جدًّا...

سحبت سطلًا آخر من النّهر. وتابعت:

- لم تعد تملك حتّى ما تسدّد به ثمن الرّحلة. لم أستطع اليوم ابتلاع ولو نصف كوبٍ من القهوة، لقد صارت تأبى المرور من حلقي...

أنهيْتُ شرب قهوتي. ناولتُ الطبّاخةَ كوبي البلاستيكيّ. ومرّرتُ يدي على كليتيّ المترهّلتين من البرد وأنا لا أكفّ عن النّظر إلى شيكا دوادا. فكّرت في شهاب اللّيلة الماضية. ثمّ قلت للطبّاخة:

- أصغي إليّ دونا ماريّا، سوف تقدّمين لي خدمةً.

مسحت يديْها بتنّورتها وابتسمت بعينَيْن تلمعان بشعاعٍ ضوئيٍّ أكثر بريقًا من الشّهاب. فاستطردت:

- خذي هذه النّقود وأعطِها للمرأة. لكنّي لا أريد لأحدٍ أن يعرف ذلك ولا أريد أن تشكرني.

كانت يدا الطّبّاخة ترتعشان عندما دسست فيهما ورقةً ماليّةً من ألف كروزايروس. ثمّ ابتعدت ماشيةً على طول الباخرة، مقتربةً من شيكا دوادا. لم أتمكّن من الاستماع لما قالته لها بسبب ضجّة المحرّك. لكنّي لمحت شيكا دوادا وهي تلتفتُ ناحيتي، فتظاهرتُ بالنّظر إلى سربٍ من الهداهد البيضاء الّتي كانت تصطاد على شاطئٍ بعيدٍ...

عادت دونا ماريّا حاملةً خبرًا جديدًا:

- يا للمعجزة، سيّد زي أوروكو! لقد جلبت نقودك نقودًا أخرى. لقد تبرّع أحد رعاة البقر من ريو دي كوكو بمائتي كروزايروس لشيكا دوادا.

- حسنًا، هذا أفضل بكثيرٍ.

- هل ترى ما صنعت، زي أوروكو؟

كان ليوناردو يشير إلى المرأة، وهي على الشّاطئ، بالقرب من النّار. وقد استغلَّ الرّجال فترةَ سِلْمٍ منتحتهم إيّاها النّساء فأحاطوا بها. وكانت تضحك بكلّ ما أوتيت من قوّة. ما جعل ليوناردو يُضيف:

- ها قد عادت الحرب.

- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ لقد أشفقتُ عليها! لو لم أعطها النّقود في وقتها لكانت الآن في عداد الأموات من فرط حزنها!

- هذا مؤكّدٌ، ما تقوله صحيحٌ، لكن كان يمكنك أن تنتظر

حتّى نبلغ مشارف ليوبولدينا. انظر معي إلى هذا...

هبّت نساء النّار الأولى وذهبن لجرّ أزواجهنّ من أذرعهم، وبذلك أنهيْن الحفل. لا بدّ من القول إنّ صرخات كلّ الشّياطين قد تعالت حينئذٍ.

عادت شيكا دوادا إلى وحدة الموهر-داما المحفوفة بالمخاطر. وفي الغد، كانت المقصورة مغلقةً تمامًا أمام هامتها الممتلئة وأمام حياتها الفضائحيّة البائسة. وقد بدت النساء مُختلفات عمّا كُنَّ عليه قبل ليلةٍ فقط، بَدَون كأنّهنّ لسنَ من ساعدنَ في البحث عن نقود الفتاة على الضوء الضّئيل المنبعث من الفوانيس والمصابيح...

لكنّ شيكا دوادا لم تكن تكترث لتلك الوضعيّة الّتي طالما تكرّرت في حياتها. كانت هناك، جالسةً في ركنها عند مقدّمة الباخرة لتصدح بصوتها من حينٍ إلى آخر وهي تغنّي أُغنيات تتحدّث عن الحبّ الجدّيّ والسّعادة المُثلى.

قام ليوناردو بعدّ المسافرين. ثُمّ قال لي:

- سنصل اليوم في نهاية الأمسية إلى كوكالينهو، فنُقضّي ليلتنا على الشّاطئ ومن الغد سنكون بليوبولدينا قبل السّاعة الثّانية.

- هل ستتوقّف هناك طويلًا؟

- لا. لا أكثر من الوقت الّذي يستغرقه التّحميل والنّزول قليلًا على اليابسة. لا أكثر من يومين.

- سأعود معك. سأذهب للحصول على نقودي، سأطّلع على بعض الأخبار الجديدة، وأقرأ جريدة وأعود إلى كوخي على الفور...

توقّفت الباخرة على شاطئ كوكالينهو. كان النّهر جافًا للغاية، ما يعني أنّ العمق لم يكن كافيًا حتّى نرسو بالميناء. قُلت:

- إذا ما أردت الوصول إلى كوكالينهو، فإنّ الزّورق ينتظر كي يقطع النّهر.

تجمّلت دونا ماريّا وتأنّقت من أجل زيارة بعض الأقرباء. ولم تلبث أن سألتني:

- أَلَنْ تذهب سيّد زي أوروكو؟

- لا سنيورا، أحسّ بكسلٍ شديدٍ.

ابتعد الزّورق وهو يغصّ بالرّاكبين. تناولت صابونةً ومنشفةً وذهبت للاستحمام. وعند عودتي، غرقتُ في تأمّل المساء وهو يزداد قتامةً بكلّ بطءٍ، في جوٍّ من الهدوء النّاعم، وكانت صرخات طيور التّينامو[1] في الأفق البعيد تُشعرني ببعض الوحشة. سمعتُ خطوات آتيةً من ورائي على الشّاطئ. التفتّ. إنّها شيكا دوادا.

- أَلَمْ تذهبي معهم؟

- لا سينيور، أردت التّحدّث إليك.

---

(1) التّينامو، طيورٌ قريبةٌ جدًّا من فصيلة النّعاميّات وهي بريّةٌ تعيش بالخصوص في أكريكا الجنوبيّة. وتُعرف بعزلتها الشّديدة.

دبّ في كياني شعورٌ بالانزعاج الثّقيل. هل هذه المرأة سوف... فقط لأنّي أعطيتها ألف كروزايروس...

نظرت إليّ المرأة بانصياعٍ حيوانيٍّ. كان صوتها مرتجفًا. وكانت لا تكفّ عن فرك مُشطَي ساقيها على رمال الشّاطئ من دون أن تعرف كيف تتابع كلامها لكنّها رغم ذلك قالت:

- هل تعلم سيّد زي أوروكو، أنت رجلٌ طيّبٌ. هذا في خصوص النّقود.

- مجرّد حماقات. انسَيْ هذا. لا تحدّثيني في الموضوع مرّةً أخرى...

- لكن ينبغي أن أحدّثك في الأمر.

وقبيْل أن تنفجر بشهقة بكاءٍ، وتغلبَ الدّموع على أقوالها، قالت معترفةً:

- هل تعلم، سيّد زي أوروكو، أنا فتاةٌ ضائعةٌ، ولا أستحقّ شيئًا. لطالما بحثتُ عن تعاستي...

- لماذا أتيت لتقولي لي كلّ هذا؟

- قلت لك إنّه عليّ فعل ذلك. إن أردت، سأعيد إليك النّقود. ها هي.

فتحت يدها السمينة فظهرت الورقة وقد أصبحت مترهّلةً بالكامل. فقلتُ:

- لقد صارت ملكًا لك. منحتُك إيّاها. وانتهى الأمر.

- لكن، لعلّي أطلعك على الحقيقة. قلتُ لك إنّي لا أستحقّ أيّ معروفٍ. لم أكن أملك مالًا على الإطلاق. لم أُضِعْ شيئًا.

تنهّدت وأنا لا أعرف كيف أجيب، لكنّ شيكا دوادا تابعت تقول:

- هل رأيت؟ هاه؟ لم يكن في وسعي فعل شيءٍ على هذه الباخرة. لا يمكن لرجلٍ في حضور كلّ أولئك النّسوة أن يقترب منّي. وأنا، كان عليّ أن أصل إلى غوايانا. لهذا فحسب اصطنعت تلك القصّة. كنت متأكّدةً من أنّ الرّجال سيشفقون عليّ. وليس في الأمر أكثر من هذا. هل تريد أن أعيد إليك نقودك؟

نظرتُ إلى النّهر الّذي كان يسيل غير عابئٍ بما يحدثُ. فبدا لي لأوّل مرّةٍ نهرًا خارقًا.

- يمكنك الاحتفاظ بها، دونا. غدًا ستتّجهين إلى غوايانا... أَلَمْ يكن هذا ما تريدين؟

- شكرًا، سيّد زي أوروكو. أعرف أن لا قيمة عند السّماء لصلوات مَن هم مثلي، لكن رغم ذلك سأصلّي من أجلك...

استدارت، بيدَين منقبضتين. وكان وركاها الهائلان يطلّان من تحت الفستان الضّيق. توقّفت وهلةً والتفتت نحوي وعلى وجهها اليافع والمُتعب ابتسامة ملائكيّة أعقبها قولها:

- لكنّ قصّة البذلة «المحّيكهْ»، أقسم لك بكلّ ما أعرف من قدّيسين أنّها كانت صحيحةً، ينبغي أن تصدّقني!

- هل أعجبتك، روزينها؟

- نعم.

- هل ننام الآن؟

- قبل ذلك، قل لي، في أيّ عامٍ حدثت هذه القصّة؟

- منذ ثلاث سنواتٍ. عندما اشتريت الطّلاء الأحمر لكتابة اسمك.

- آه! حسنا! وهي؟

- هي... من؟

- شيكا دوادا!... ماذا أصبحت فيما بعد؟

- مساءَ وصولي إلى ليوبولدينا، كانت هناك شاحنةٌ في طريقها إلى «غواس فيلهو»[1] وغويانا. وَكانت شيكا دوادا جالسةً بين السّائق ومساعده تضحك بأعلى صوتها...

- وماذا عن الدّيك الذي في الأعلى؟

- بقيَ في مقاطعة المونتاريا، عند «بيدرينهو بينهيرو». لا شكّ في أنّه صار سيّدًا على المزرعة، يمرح مع كلّ الدّجاجات اليافعات. هل ننام؟

- هيّا بنا.

- غدًا نصل إلى حاجز بيدرا. إلى الغد يا روزينها.

تقلّب قليلًا تحت غطائه. وقد وجد بعض الصّعوبة في نومه.

---

(1) غواس فيلهو، إحدى المدن التّاريخيّة التّابعة لولاية غوياس الّتي عاصمتها غويانا.

شيءٌ مّا ثقيلٌ يرزح على صدره، معلنًا عن حزنٍ مّا... في النّهاية، نام زي أوروكو.

(6)
خُفّان أبيضان

في تلك السّاعة، حين تكون الغابة في أوجّ جمالها، وتكون الشّمس نصف مُخفاة خلف الأشجار الّتي تجانب النّهر، حين تهبّ النّسمة بتلك النّعومة الّتي تجعلها شبيهة بتنهّداتٍ، وتسيل المياه في كنف الهدوء مُنتظرةً حلول سلام اللّيل... في تمام تلك السّاعة كانت مادرينها فلور تُسلم ظهرها إلى الباب، متأمّلةً الحياة من حولها، فلمحت الزّورق الصّغير لزي أوركو وهو يرسو على الضفّة.

ابتسمت مادرينها فلور. ودارت ناحية داخل المنزل لترى الطّبيب بصدد توضيب شعره المبلّل النّاعم والفائح برائحة حمّامٍ معطّرٍ أنهاه لتوّه. قالت له:

- لقد وصل الرّجل، دكتور.

اقترب الطّبيبُ من الباب وقلّب الميناء بعينيْه. وكان صدره القوّي قد ضغط على مادرينها فلور بلطفٍ.

مسحت يدها في تنّورتها بتوتّرٍ وعادت إلى التّفكير في تلك الحقيقة الّتي كانت تخفيها عن نفسها. لقد عاد زي أوروكو، ومن المحتمل أن يأخذه الطّبيب ويرحل، وسواء أخذه أو لم يأخذه، فإنّ الطّبيب سيرحل في الحالتيْن. وعندئذٍ تعود وحدتها الأليفة

لتخيّم على كوخها. سيتسلّل الهجر والحسرة حتّى إلى مقابض القدور وصرير السّرير المعلّق. زد عليها مشدّات الأقمشة المخمليّة الّتي ستظلّ تبحث عن حرارة جسده الفاقدِ لبريقه بعدَ أن بدَأت الشّيخوخة تَغزوه.

نظرا كلاهما، في صمتٍ، إلى الرّجل الّذي كان يشدّ الزّورق بحبلٍ. ثمّ حمل حقيبة سفرٍ قماشيّةً. وصافح كلّ من اعترضه من معارفه، وهو في كلّ مرّةٍ يقول شيئًا لم تسمح النّسمة ولا المسافة بتبيّنه.

بعد ذلك صعد زي أوروكو الجسر فاختفت هامته مطمئنّةً في اتّجاه كوخه.

تهرّبت مادرينها فلور من حرارة الطّبيب وتمتمت:

- مازلنا بعد في النّهار.

- لماذا تقولين هذا؟

- انظر إلى الأشجار، دكتور.

أشارت بإصبعها. كانت العصافير تصرخ مضطربةً، وكأنّها تتحادث عن شيءٍ خَطِر فيما راحت كأنّها تروي شيئًا خطيرًا فيما بينها، فيما راحت أخرى تظهر مُنجذبةً إلى هذا الصّراخ.

- توجد طيور التّانجارا[1] وحمام الصّخور والحمام ذو الحراشف، وتوجد أيضًا طيور الكناري الصّفراء، وجميع

(1) التّانغار Tangaras: عصافير تجمع أجناسًا عديدةً تنتمي إلى فصيلة ما يُسمّى «التّناجر»، وتعدّ أكثر من 240 نوعًا تعيش بالقارّة الأمريكيّة وتتميّز بتعدّد ألوانها.

أنواع العصافير يا دكتور. عندما يكون هناك عددٌ كبير منها، فهذا يعني أنّها ستتطير جميعًا إلى منطقة البيكيزايرو. هكذا هي الأمور دومًا. إنّه منظرٌ بديعٌ.

قالت مادرينها فلور ذلك وتقدّمت مترَين، ثمّ تابعت مقترحةً على الدّكتور:

- يمكننا الاقتراب أكثر. أنا متأكّدةٌ من أنّك لم ترَ شيئًا مشابهًا.

وعَقِب قولها مُباشرةً غزا الأشجارَ سربٌ جديدٌ. كان من عصافير الغدران، وقد راحت تُصدر ضوضاءَ فرحةٍ تصمّ الآذان.

- أَلَا يغضبُ مُطلقًا؟

- مطلقًا يا دكتور. لكن ينبغي أن نبقى بعيدين حتّى لا نُفزع العصافير.

ظلاّ يمشيان متلاصقيْن. كانت يده من حين إلى آخر تلامس جسدها. فتشعرُ في كلّ مرّةٍ بما يشبه تساقط بتلةٍ من زهرةٍ دون أن يتمكّن أحدٌ من رؤيتها. كان حزن تلك الأمسية أشدّ من حزن الأمسيات الأخرى. ومع أنّها لا تفتقر إلى جمالها الاعتياديّ، كانت أمسيةً يلوّنها الحزن.

اختفت الشّمسُ نهائيًّا وهما يتمشّيان خلال تلك الخيوط النّهاريّة الّتي تسبق اللّيل. وبعيدًا، راحت الأكواخ تتحوّل إلى كتلٍ قاتمةٍ، ولكن بعد ذلك بقليلٍ ستُضاء بعض المصابيح الزّيتيّة أو بعض الشّموع، وسيحلّ ليلٌ آخر مثل كلّ اللّيالي الّتي لا تكفّ الحياة عن تكرارها.

في الطّرف الآخر من القرية شرع أحدُهم في العزف على أكورديون عتيقٍ. وفي تلك المرّة، كانت الموسيقى تؤلم مادرينها فلور حتّى عمق روحها.

مكثا في حماية أَجَمَةٍ كبيرةٍ من العشب، مشرفيْن على كلّ ما يحدث.

كان زي أوروكو قد فتح النّافذة وأشعل فانوسًا زيتيًا. فعلَا الدّخان مُتخلّلًا الفجوات الموجودة غب سقف القشّ.

كانت الأمطار الأخيرة قد أوصلت النّهر إلى هُناك فاجتاح الماء المكان وأسقط جوانب الحيطان المتداعية.

وَلَكم بدَا رائعًا مشهد السّرب وهو يحوم حول جذع شجرة «البيكي» صاخبًا بكلّ ما أوتي من قُوّةٍ. وفي الآن ذاته كانت عصافير أُخرى تطير إلى حدود كوخ الرّجل، لتحطّ على القشّ، ثمّ تعود إلى البيكيزايرو.

فتح زي أوروكو النّافذة الأخرى، ثمّ أطلّ من الباب باسمًا.

اقتربت منه العصافير وهي تكادُ تُجنّ من الفرح. حطّت على النّوافذ، على كتفيْه وعلى رأسه. فراح يكلّمها بلطفٍ لا متناهٍ، ذاك اللّطف الّذي ينشرح له قلب كلّ من ينصت إليه:

«ها قد عدتُم يا كائناتي الصّغار، ها قد عدتم. هل أنتم سعداء مثلي؟ حسنًا، لقد اتّقدت النّار. سأعدّ بعض الأرزّ للجميع. وسأضع لكم بعضًا من طحين البفرة في صحونكم، يا طيور الكناري الصّفراء. وأنت يا عصافير الغدران الثّرثارة، ستوقظونني قبل طلوع النّهار، أَلَيْس كذلك؟»

ثُمّ دخل إلى الكوخ.

- هل هو على هذه الحال دومًا؟

- نعم، دومًا يا دكتور. يمكن لكلّ الحيوانات أن تتعرّف عليه من بعيدٍ. رأيته مرّةً وهو يمسك بكلبٍ مصاب بداء الكلب لم يتمكّن أحدٌ من الاقتراب منه.

أحاط الطّبيب بيدٍ حنونٍ كتفَي المرأة وضغط عليهما، فشعرت بطعنات الوداع القريب. لم تستطع فعل شيءٍ، لا شيء على الإطلاق. لقد ظلّت طوال ما يقارب الأسبوع تحبّ أشياء لم تكن ملكها. إلى أن حان أوان صرف النّظر عن حنانٍ مُستعارٍ بطريقةٍ أبسط من تلك الّتي ظهر وَفْقَها أوّل مرّةٍ.

خرج زي أوروكو بصحنيْن طينيّيْن صنعهما الهنود ووضعهما على الأرض وهو يردّد:

«إليكم الأرزّ. لكن حذار، مازال ساخنًا، انتبهوا لئلّا تحرقوا ألسنتكم الرّقيقة».

ودخل مُجدّدًا، وعاد على الفور:

«الآن، هذا طحين البفرة لكم أنتم، يا طيور الغدران الشّرهة».

ووضع الطّحين فوق قطعة حصيرٍ قديمةٍ، ثُمّ دخل للمرّة الأخيرة كي يعود بآنيةٍ مليئةٍ بالماء مُواصلًا التحدّث إليهم:

«أعرف أنّ العطش يصيبكم ما إن تفرغوا من أكلكم. لقد صار الوقت متأخّرًا حتّى تطيروا إلى حدود النّهر».

جلس زي أوروكو على عقب جذع شجرةٍ يستخدمه مقعدًا وأسند ظهره إلى حائط الكوخ متفرّجًا على حفل العصافير البهيج. أدخل يدَه إلى جيبه دُون تسرّع وأخرج تبغًا وورقة لفّ، فتلها بأطراف أصابعه على مهلٍ، ثُمّ أشعلها بولاّعته وأخذ نفسًا عميقًا.

أخذت العصافير في الطّيران عائدةً إلى الشّجرة، فابتسم الرّجل وقال:

«نعم، هذا تمامًا. لقد حانت ساعة النّوم. تصبحون على خير يا أصدقائي الصّغار!».

لم تبقَ سوى طيور الغدران تُتابع نقرها الصّاخب للقشّ، وتنثر طحين البفرة في كلّ مكانٍ باحثةً عن الحبيبات الأكبر حجمًا.

ضحك الرّجل.

التفتت مادرينها فلور ناحية الطّبيب فألفته يبكي، وسُرعان ما قالت له:

– لنعد إلى المنزل، ينبغي أن أستغلّ ما تبقّى من النّهار. عليّ أن أعدّ العشاء.

وعادا يتمشّيان بكلّ بطءٍ محاولين إطالة توهّم السّعادة الّتي لا طائل من ورائها. بعد تناول قهوة العشاء، مرّر الطّبيبُ أصابعه خلال شعره المتموّج الذي اتّخذ لونًا فضّيًّا تحت ضوء المصباح. كانت حركته تعبيرًا عن تردّدٍ غامضٍ. ظلّ يجترّ السّؤال الّذي طرحه مرارًا عند الأكل. ثمّ انتصب واقفًا وقال مُستفهمًا من غير أن تُفارقه ابتسامته:

- هل تعتقدين أنّه سيرافقني؟ أَلَنْ يحذر شيئًا؟

- إنّه لا يحذر شيئًا على الإطلاق. ولا يفكّر بأنّ أحدًا يمكنه إلحاق الأذى به.

- وهل كان دومًا على تلك الحال؟

- في البداية، لا. لكن، منذ أن أصبح بحوزته ذاك الزّورق...

أشعل الطّبيب سيجارةً... وتناول المصباح الكهربائيّ:

- سأذهب لزيارته.

أشعل المصباح ووجّهه إلى الأرض وخرج.

«يا إله السّماء! كيف يمكن هذا؟ يا لهذه النّجوم المبالغ في عددها! إنّها أكثر من حبّات البفرة الّتي وضعها زي أوروكو على قطعة الحصير!»

نبح كلبٌ تابعٌ لأحد الهنود من منزلٍ قريبٍ. فنهره صوتٌ رجاليٌّ:

«اصمت أيّها الغبيّ! عد إلى النّوم!».

صمت الكلبُ وتابع الطبيب خطواته التي كانت تحدث صريرًا على الطّريق.

اقترب من الكوخ. كان فتيل الفانوس طويلًا، لذلك كشفَ ضوؤُه القويّ غُرفةً فارغةً تقريبًا. توقّف الطّبيب أمام الباب المفتوح. وقبل أن يعلن عن حضوره، ألقى نظرةً متفحّصةً على المسكن المُتواضع. هناك ما يشبه الطّاولة، تحيط بها المقاعد من كلّ جانبٍ.

وفوقها وُضِع طستٌ كبيرٌ. وفي الطّست تغرق صحون من الطّين المحروق مع ملعقةٍ وشوكةٍ. في ركن الغرفة يقف حاملٌ ثلاثيٌّ، تتركّز عليه جرّةٌ هي أيضًا محلّية الصّنع.

تقدّم حتّى وقف على عتبة الباب. لم يكن في حاجة إلى التكلّم، لأنّ الرّجل دعاه بكلّ لطفٍ:

«ادخل من فضلك، دكتور».

دخل الطّبيبُ، وفي ركن الغرفة الّذي لم تتسنَّ له رؤيته، كان زي أوروكو يحلق لحيته مركّزًا نظره على مرآةٍ أمامه. مكشوف الصّدر، وبوجهٍ نصف حليقٍ. قال:

- لقد رأيتك في المرآة.

اقترب من ضيفه وهو يمسك شفرة الحلاقة بيده اليمنى. مرّرها إلى يده اليسرى ومدّ يمناه للمصافحة، فَعَل ذلك بعد أن مسحها ببنطاله، واستطرد:

- كنت سأزورك. لهذا تراني بصدد توضيب نفسي. من الأفضل أن نظهر دومًا في منظرٍ لائقٍ.

وضحك، ثمّ أضاف:

- تفضّل بالجلوس يا دكتور. أنت في منزلك.

امتثل الطّبيب للطلب. وقال زي أوروكو مُعتذرًا:

- إذا ما سمحت لي سأُنهي ما تبقّى في طَرفة عينٍ.

ثمّ انتهى من الحلاقة وتناول وعاءً ليغترف بعض الماء من

الجرّة. غسل وجهه وأزال ما تبقّى من رغوة الصّابون... أخرج منديلًا بمربّعاتٍ من جيبه وتنشّف. وهَمَّ بالمغادرة قائلًا:

- أذهب للبحث عن قميصٍ وأعود على الفور.

لكنّ الطّبيب أوقفه:

- ابق كما أنت. أنت في منزلك.

جلس زي أوركو من النّاحية الأخرى للطّاولة ونظر إلى الطّبيب:

- من الملائم لي أن أبقى عاريًا هكذا، لأنّي قمت بمجهودٍ لعينٍ تحت شمس الجحيم هذه، ولم يكن اللّيل قد برُد بعد.

ثمّ ساد الصّمت، وراح الرّجلان يتبادلان نظرات تفحّصٍ.

أثار البياض المزرقّ الّذي بدا على وجه زي أوروكو، وقد أطّل مكان اللّحية الّتي لم يلمسها أيامًا عديدةً، إعجاب الطّبيب. وفيما هو يتأمّل ذلك قال له مُضيفًا:

- هل تريد قهوةً؟

بعد ذلك أصلح قوله:

- أعني ما يشبه القهوة.

وتوجّه إلى غرفةٍ أخرى وعاد حاملًا إبريقًا متفحّمًا وكوبيْن مُعلّقًا:

- لماذا علينا أن نكون من المدينة، القهوة هنا رهيبةٌ. لكن بعد شهرٍ من العيش في هذه النّواحي، ستكون ليلة عزلة مثل هذه كفيلة بجعلك تشعر بالنّشوة رغم كلّ شيءٍ...».

تناول الطّبيب الكوب، وأداره بين أصابعه ثمّ وضعه فوق الطّاولة. إنّه لا يعرف من أين يبدأ. لكنّ جليسه أنقذ الموقف إذ قال:

- أعرف أنّك دعوتني يا دكتور...

- فعلًا. لقد فحصت النّاس هنا واحدًا واحدًا على طول الأراغوايا، وأعني كلّ النّاس الّذين تمكّنتُ من الوصول إليهم. وأعتقد أن لا أحد ينقص سِواك. لعلّي أكون نافعًا لك طبّيًّا... إذا كنت...

مسح الطّبيب حبّة عرقٍ انسابت على جبينه. فإذا كان المرء متوتّرًا، تكون المحاورة كذلك. وإذا ما تواصل الأمر على هذا النّسق فإنّه لن يتوصّل أبدًا إلى فحص الرّجل. فبالنّظر إليه، وجهًا لوجهٍ، يبدو في صحّةٍ وطيبةٍ استثنائيّةٍ جدًّا. لكنّ زي أوروكو سرعان ما قال:

- إنّي أعاني من شيءٍ، دكتور، أعاني من الحزن، لكن هذا أمرٌ إمّا أن نعالجه بأنفسنا وإمّا أن نموت.

- رأيتك هذا المساء وأنت تحلّ بالقرية. هل تتعرّف عليك العصافير دومًا؟

- نعم، دومًا. يمكن لأيّ إنسان أن يجعلها تتعرّف عليه إذا اعتاد مثلي أن يقدّم لها الطعام.

شرب الطّبيب قهوته في جرعةٍ واحدةٍ وأخذ علبة سجائر من جيب قميصه. مدّ إليه سيجارةً فتناولها منه بيدٍ هادئة وواثقة.

وأثناء إشعال الطّبيب سيجارته وهو يقلّب وجه الرّجل، كان

يتساءل في حيرةٍ. ماذا يفعل؟ هل يسأله بصريح العبارة عمّا إذا كان مجنونًا؟ وما إذا كان حقًّا يحادث زورقه؟ وهل الذي يتحدّث إلى الأشجار مجنونًا أم لا؟... لا يوجد غير حلٍّ وحيدٍ أوحد: أن يتبع النّصائح الّتي أسدتها إليه مادرينها فلور.

- جئتُ أتحدّث إليك لأنّك الوحيد الّذي بإمكانه أن يسدي إليّ خدمةً كبيرةً. وهي خدمة من الصّعب طلبها، خصوصًا اليوم وقد عدت لتوّك من رحلةٍ شاقّةٍ. لكن ليس في هذه الأنحاء شخصٌ غيرك يتحلّى بالشّجاعة الملائمة للقيام بها.

نفث زي أوركو نفسًا طويلًا من دخان سيجارته وقال:

- أَلَيْس من الأفضل ترك تعيس الحظّ ذاك في سلامٍ؟

- قد يكفي حضورٌ مّا أو كلمةٌ ودّيّةٌ لمساعدته...

- إنّه لا يترك أيّ أحدٍ يقترب منه. إنّه بعيد دومًا، وإذا اقترب منه أحدٌ، يختفي في عمق الغابة.

- في أيّ حالٍ هو؟

- بلا أصابع تقريبًا، بلا أذنين. هذا كلّ ما تمكّنت من معاينته. لمحت عليه أيضًا حزنًا عميقًا يؤلم كلّ من يشاهده...

- هل تعرف ماذا يفضّل... أن يتلقّى... أو أن يمتلك؟

- أمّا أنا فكلّما مررتُ من هناك أترك له بعض السّمك المملّح، أو بعض السّكّر البُنّيّ والتّبغ.

- يمكن أن نأتيه بكلّ هذه الأشياء مع بعض الأدوية...

سنذهب معًا إلى هناك، هذا إن أردت مُساعدتي...

- يلزمنا ثلاثة أيّامٍ كي نصل إلى المكان، ويومٌ ونصفٌ من أجل العودة.

- أَلَيْس على ضفّة النّهر؟

- لا. علينا أن نساير النّهر مدّة يومٍ ونصفٍ، ثمّ نتابع المشي عبر ممرٍّ ضيّقٍ مدّة نصف يومٍ. وبعدَ ذلك، بما أنّ كلّ شيء مازال جافًّا فإنّ علينا قطع الأغصان المتدلّية والأعشاب العالية حتّى نتمكّن من الوصول إلى البحيرة. وهُناك، نعثر على ممرٍّ سرّيٍّ يؤدّي إلى كوخه.

- هل نذهب إذَن؟

غلبت طيبة زي أوروكو على حذره فأجاب:

- نعم دكتور، سنذهب. أحتاج فقط إلى يومٍ إضافيٍّ أقضيه هنا. لديّ أعمالٌ كثيرةٌ وجب عليّ القيام بها. سننطلق بعد غدٍ في الصّباح الباكر.

انتصب الطّبيب واقفًا وقال:

- شكرا لك. لا شكّ أنّك متعبٌ من رحلتك الطّويلة.

رافقه الرّجل حتّى الباب مُودّعًا:

- طابت ليلتك دكتور. سأمرّ عليك غدًا لأعلمك بما تحتاج إليه من أجل الرّحلة...

في الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، لم يكن زي أوروكو يحتاج إلى

أكثر من تنظيف كوخه وتوضيبه وتوزيع السّمك المملّح على الهنود وبعض السّكان الآخرين. هناك أمرٌ آخر أيضًا: عليه إعداد أواني الأطعمة من أجل العصافير وتكليف جيريبيل بأن يُعطيها القليلَ منها كلّ يومٍ.

كانت أوّل مرّة ينام فيها الدكتور على الشّاطئ. في ذاك المساء، أوقف زي أوروكو الزّورق قبل أن يسود ظلام اللّيل. وقال:

– انتظر قليلًا، دكتور. سأجمع الحطب من أجل نار اللّيلة.

– يمكنني المساعدة.

– لا تشغل بالك كثيرًا، دكتور. إنّه عملٌ خاصٌّ بالنّاس المتعوّدين على ذلك. ابقَ قرب الزّورق، لكن لو أردت بإمكانك مساعدتي على إخراج مستلزمات النّوم...

وبينما كان في طريقه للابتعاد، سأله الطّبيب:

– ألَا تشدّ القارب؟

– لا حاجة إلى ذلك، «إنّها» لن تتحرّك من هناك.

وتوغّل في الشّاطئ.

أمّا الطّبيب فالتفت ناحية الزّورق وتفحّصه من كلّ الجوانب. في نهاية المطاف، «هي» زورقٌ مثل باقي الزّوارق. ولاسيّما في نظره، وهو لا يملك خبرةً كبيرةً بمُمارسات البحر أو النّهر.

لكنّه شعر بتعكّرٍ مّا راح يتعاظم في صدره. فماذا لو شرعت في الكلام؟ حتمًا سينتابه أكبر خوفٍ يمكن أن يشعر به في حياته.

جثم قبالة مقدّمة المركب. وسرعان ما تعبت ربلتاه فجلس غامسًا ساقيه في المياه الصّافية والدّافئة.

قرأ بصوتٍ خفيضٍ اسم الزّورق: روزينها.

هي حروفٌ حمراء، مصبوغةٌ على نحوٍ متسرّعٍ، ومبرّزة باللّون الأسود. إنّها روزينها. الزّورق الّذي يخشاه الجميع. سأل نفسه: «لكن كيف يمكن لزورقٍ بهذه الفظاعة، وهذا الترّهل (وكان من السّهل ملاحظة الأضرار النّاجمة عن الزّمن، والشّمس والرّيح والمطر الّتي لامسته من كلّ الجهات)، زورق صغيرٍ مهلهلٍ أن يشيع هذه الأسطورة المخيفة والمجنونة في كلّ المنطقة؟» في الحقيقة، عليه أن يعترف بأنّه لا يكفّ عن الشّعور بالاضطراب ما إن ينظر إلى روزينها.

غمس يده في الماء وملأ راحة كفّه محاولًا التّخلّص من اضطرابه. كانت عيناه تزدادان شيئًا فشيئًا إعجابًا بالحروف المطليّة بغير عنايةٍ تُذكر: «روزينها». قد يكون ذلك بسبب الفتور الّذي أصابه على إثر مجابهته حرارةَ المكان الأولى، وربّما بسبب الرّتابة الّتي جعلته يكتشف أمرًا مهولًا، فالإنسان الّذي يلامس الطبيعة رغمًا عنه ويستسلم لتقلّبات المناخ من دون أن يعرف كيف يجابهها، الإنسان الّذي تشرّب في نهاية المطاف ما يكفي من هذه القصص الّتي تخصّ الزّورق حتّى سوف تمارسُ عليه جاذبيّتها...

وقف وحاول أن يهرّب نظراته بعيدًا. كان زي أوروكو قد اختفى خلف تلّةٍ وما عاد يسمع سوى ضجيج المنشار وهو يقطع

الأغصان اليابسة. راحت نسمة المساء المنعشة تحرّك كلّ شيءٍ حتّى قماش قميصه وبنطاله، مثلما راحت تُرعشُ سطح النّهر، فتكوّنت تموّجات صغيرة ما انفكّت تلامس الزّورق بنعومةٍ.

«إنّي ألعب دور الأحمق!».

ضحك. هكذا تمامًا يتكلّم أناس المنطقة. من حسن حظّه أنّه على مشارف الرّحيل وإلاّ سينتهي بتبنّي كلّ التّشويهات المحلّية.

كان يرغب في الضّحك أكثر، أن يضحك ملء شدقيْه. فهذه أمورٌ تضحكه. ليس في غاية السوء أن يكون مثل الجميع هنا، ضائعًا في أحد الأركان البرازيليّة.

التجأ إلى المشي في الماء بقدَمَيْن حافيتيْن. لقد حقّق في هذه السّاعة اكتشافًا جديدًا. إنّ الحياة بالغة الجمال هنا وإذا ما سئم العمل يومًا فإنّه سيعود إلى المكان نفسه ليقوم بجولةٍ في هذا الصّمت الّذي تفرضه الحياة.

وجد نفسه مرّةً أخرى في مجابهة الزّورق. ساوره قلقٌ مشوبٌ بالفضول وتملّكه رغم أنفه. هل هو قادرٌ على التكلّم حقًّا؟ أم إنّه استغبى النّاس جميعًا؟ ومن غير أن يتمكّن من التّحكّم في نفسه، قال:

«ماذا إذَن، هل أنت روزينها؟ روزينها الشّهيرة؟ القارب الّذي يتكلّم، القاربُ الّذي يعرف كلّ شيءٍ؟ كيف يكون ذلك ممكنًا...».

نظر إليها بخبثٍ. لكنّها لم تنطق بكلمةٍ.

«أَلَا يوجد سربٌ من سمك «الماترينكساو» روزينها؟ هكذا يقولون «ماترينكساو» أَلَيْس كذلك، إيه؟».

واستمرّ الصّمت، ما دفعه إلى الصّراخ.

«لكن، تكلّمي أيتّها الصّغيرة، تكلّمي أيّتها المركبة الحمقاء! إذا تكلّمت، فالمجنون سيكون أنا، أو بالأحرى سأكون مجنونًا من بين المجانين. هل تفهمين قصدي؟»

لم يكن هناك غير الأمواج الّتي كانت تبلّل بياض الشّاطئ...

لم يعد الطّبيب قادرًا على التحكّم في نفسه. كان عليه أن يتخلّص من توتّره، أن يروّح عن نفسه كما يقولون:

«تكلّمي، روزينها! دونا روزينها، أرجوك، لكن عليك أن تتكلّمي، باسم محبّة الرّب! أحتاج إلى الاقتناع بأنّي مجنونٌ أنا أيضًا..».

وفي نهاية المطاف استسلم وهو يشعر بخيبة أملٍ غامضةٍ:

«حسنًا، مادمتِ لا تتكلّمين، فإنّي مضطرّ إلى نقل رفيقك إلى مكان بعيدٍ من هنا».

جلس الدّكتور بعيدًا عن الزّورق، مُحبطًا. لاحظ أنّ رياح المساء في تفاقمٍ وأنّها راحت تقذف ببعض حبيبات الرّمل الصّغيرة على البطانيّات الّتي كان قد أخرجها بنفسه. في شبه التّوتّر هذا -وهو أسوأ ما يمكن أن يعيشه لأنّه يشعر بالهدوء والإحباط في الوقت نفسه- كان يغرق يديه بين حبيبات الرّمل الضّئيلة. ثمّ يرفع يديه عاليًا ويسمح للرّمال بأن تتخلّل أصابعه. وكانت الرّمال تسيل مثل سوائل الحياة، الحياة الأبديّة الّتي لا يمكن شرحها، نعم، تسيل مرتبكةً وحزينةً.

لن ينسى، مهما طال به الأمد، الإحساسَ بالسّلام والهجر

اللّذين ملآ روحه في ذلك الوقت. لن ينسى طقطقة النّار وهي تتلقّى صفعات من الرّياح الباردة، ونواحَ الطيور بعيدًا، والصّرخات الغريبة، المتنوّعة، وهي صرخاتٌ يمكن لشيكو دي أديوس أن يتبيّنها صرخةً صرخةً، وكذلك الجسد الّذي يختفي نصفه تحت الأغطية، والرّمال المتجمّدة وبالأخصّ وفرة النّجوم في سماءٍ قريبةٍ وداكنة الزّرقة...

- كوب قهوة، دكتور؟

قَبِلَ ذلك.

- هل يلائمك الفراشُ، دكتور؟.

تحسّس الحفرة الّتي أنشئت في الرّمال، حفرة مازالت تحتفظ ببعض حرارة الشّمس ممّا سيساعد على التّخفيف من حدّة هذا البرد الّذي لن يشكّ أحدٌ من المدينة في وجوده.

- بارد قليلًا، إيه؟.

ضحك زي أوروكو وأضاف:

- لم يحلّ البرد اللّاذع بعدُ، يا دكتور. عليك أن ترى ذلك في نهاية يونيو، أو منتصف يوليو... آنذاك ستتعرّف على البرد الحقيقيّ...

ثُمّ انتصب واقفًا وقال بودّ:

- أنت متعبٌ يا دكتور، عليك أن تخلد إلى النّوم.

- وأنت، أَلَن تنام؟

- هناك، بالقرب من الزّورق. لكن لا تخشَ شيئًا. لقد تركتُ ما يكفي من الحطب حذو النّار. عندما تبدأ درجة الحرارة في الانخفاض، سأستيقظ وآتي لتزويدها. لا عليك، هذا أمرٌ بسيطٌ. لقد تعوّد رجال الغابة على كلّ هذه الأمور. تصبح على خير، دكتور.

تابع الطّبيب بعيْنيه الهامة المتوجّهة نحو حافّة النّهر. كان الرّجل يزوّده بثقةٍ جعلته يكفّ عن تخيّل إمكانيّة اقتراب أحد النّمور أو التّماسيح من المكان الّذي يقضيان فيه اللّيل. تأمّل فسحة السّماء الجميلة إلى أن ارتخت عيناه واستسلمتا للنّوم.

لم يستطع تقدير الوقت الّذي استغرقه نومُه، ومهما يكن استيقظ بشدّ عضليّ في ذراعيه الموضوعتيْن تحت رأسه. كانت النّار قد تناقصت رغم بعض الخشخشة. دلك ذراعيه ونظر في ساعته ليعرف التّوقيت... فألفاه منتصف اللّيل والنّصف. كانت النّجومُ قد غيّرت مواضعها، وتقدّمت كثيرًا في ترحالها اللّيليّ. أُغمضتْ عيناه لكنّه لم يتمكّن من النّوم. ثمّة نُتفٌ من أفكارٍ راحت تشكّل ما يشبه غطاءً من القطع المفكّكة، بألف لونٍ ولونٍ. ضحك. كم كان غبيًّا عندما تكلّم إلى زورقٍ! هل كان يُريد لزورق تافهٍ أن يتكلّم! ماذا عن دونا فلور؟ متى يرحل عنها؟ يا لوحدة تلك المرأة الّتي تتمسّك بآخر بصيصٍ من النّور في خريف عمرها! عند رحيله، سوف يأخذ معه الرّجل الثّاني الّذي كان معها في يومٍ من الأيّام.

مرّر يده ببطءٍ على صدره المشعّر مُحدّثًا نفسه: «يا لهذه الحياة يا

إلهي! ربّما كانوا دومًا على حقٍّ في خصوص صعوبة الحياة بالمدن الكبرى، في خضمّ الوحشيّة والضّغط والغموض، وفي جوّ الأنانيّة واللّامبالاة الّذي يميّز العواصم الكبرى...» لماذا عليه التّفكير في أشياء بهذا التّعقيد مادامت أيّامُه في الغابة تشارف على نهايتها؟ كان ثمّة برعمٌ من الحنين قد بدأ بالتّكوّن داخل روحه قبل الأوان.

والرّجل؟ كيف سيتمكّن من إقناعه بمرافقته والشّروع في تلقّي العلاج الملائم؟ ومادرينها فلور؟ لطالما أحسّ على صدره بتلك النّار المتأتّية من ملامستها، وبالحنان المطلق الّذي تمنحه يدا المرأة فيها.

عاد إلى فراشه الرّمليّ كي يعدّل من وضعيّته. كادت الرّياح الّتي غيّرت اتّجاهها أن تجعله ينتفض من مكانه من الخوف. وللحظة أصغى لصوت زي أوروكو وهو يتكلّم بصوتٍ مهموسٍ. وماذا لو حدّثه الزّورق بما بدر منه على إثر محاولته محاورته؟

تزايدت الرّياح فوصله صوت الرّجل وهو يقول شيئًا في ما يشبه الوشوشة. لا شكّ في أنّها -ومرّر الطبيب يدَه على جبينه كي يطرد الخوف- لا شكّ في أنّه، نعم، لا شكّ في أنّه تحدّث إليها طويلًا. بدا له أنّ المحاورة توشك على نهايتها، وأنّ الرّياح قد حمت سرًّا. دقّق السّمع، فسَمع:

«إنّه رجل طيّبٌ، روزينها...»

«سيعود بسرعةٍ روزينها...»

«سنذهب من أجل رؤية الرّجل المصاب بالطّاعون، روزينها...»

«لقد شكا من البرد روزينها...».

وعقِب ذلك تلقّى الطّبيب صفعةً في القلب، صفعةً من تلك الصّفعات الّتي لن تقدر حتّى مادرينها فلور على تهدئة الرّعب المنبعث منها. لقد... لقد... تردّد صوت امرأةٍ مطالبًا بشيءٍ مّا... يمكن له أن يُقسم على أنّه سمعه. يمكن له القسم بحياة أطفاله على أنّ صوت امرأةٍ قد نطق بشيءٍ واضحٍ:

«البرد في مثل هذا الفصل؟».

ثمّ ابتسم زي أوروكو قائلًا:

«إنّه ليس متعوّدًا. إنّه لا ينتمي إلى هذا المكان».

بعد ذلك سمع الدكتور تثاؤب زي أوروكو وقوله:

«هيّا إلى النّوم الآن، روزينها. غدًا، أمامنا مسافةٌ طويلةٌ لنقطعها. تصبحين على خير...».

وساد الصّمت اللّيليّ فأصبحت فرقعات الحطب أهمّ من أيّ شيءٍ آخر.

هدأ قلبُهُ. فرك عينيْه... لقد حلم. ذاك هو ما جرى. لقد كان إيحاءً ذاتيًّا، ليس أكثر من إيحاءٍ ذاتيٍّ.

لقد أثّرت فيه كثرة الحكايات الّتي استمع إليها عن الزّورق فرآه في الحلم. نظر إلى ساعته. فوجدها تُشير إلى الواحدة إلّا الربع. لقد كذّبت ساعته اليدويّة منطقه. وبنظرةٍ أخيرةٍ ألقاها على الزّورق اللّعين، استطاع تبيّن جسد زي أوروكو المتقوقع على نفسه وهو ينام...

راح الطّبيب يفكّر في عائلته، في ابنه الّذي تركه يستعدّ للحصول على شهادته في الحقوق، وفي ابنته الّتي تدرس بمعهد الموسيقى، في المساءات الّتي كانت تعزف خلالها من أجله، فكّر أيضًا في أطفاله الآخرين الّذين يتناقشون حول الطّاولة عن كرة القدم... غزته غمرة من الحنان دفعةً واحدةً. وفي هذه اللّحظات فقط تمكّن من النّوم مجدّدًا.

- إنّنا نضيع وقتنا كما أضعنا قبله طباعنا، زي أوروكو.

ضحكا في الوقت نفسه. لقد تخلّصا من كلّ ما هو رسميٌّ. وهما الآن رجلان من العمر نفسه بصدد السّفر معًا، إنّهما رفيقان في النّهاية.

- كنتُ قد نبّهتك إلى ذلك دكتور...

- لكنّها كانت جولةً رائعةً. لم أرَ في حياتي بحيرةً بذاك الجمال.

- سيكون عليك أن تشاهدها في فصل الرّبيع... عندما تكتسي الأشجار الّتي تحيطها بحلّةٍ من الألوان. ومع قُدوم المساء تأتي كلّ أنواع العصافير والطّيور أسرابًا لتحطّ على الأغصان. نعم، إنّها جميلةٌ. وهو السّبب الّذي دفع السكّان المحلّيّين هنا إلى تسميتها «لاغو ريكو»[1].

كانا في طريق عودتهما. لكنّ الرّجل لم يرد أن يُفاتحه في الأمر. لقد اختار الحياة في عمق الغابة ليعيش عزلة مرضه. ولم تُجْدِ مناداته ولا التّوسّل إليه بأن يخرج من مخبئه. لم يتوصّلا معه إلى شيءٍ. لذلك

(1) لاغو ريكو: Lago Rico وتعني البحيرة الغنيّة.

تركا له بعض الأدوية والسكّر البنيّ والتّبغ والسّمك المملّح ومبلغًا من المال. لقد حاولا التّخفيف من عزلة المريض. وهذا كلّ ما توصّلا إليه.

- ستتمكّن من رؤية النّهر قبل منتصف النّهار.

- نعم، إنّي أفتقده.

- لو تبقى هنا وقتًا أطول، سترى بأمّ عينيْك أنّنا كلّما اكتشفنا هذا النّهر أكثر صرنا غير قادرين على العيش خارجه: نصبح مهووسين به.

ضحك الطّبيب، من دون اقتناعٍ كبيرٍ. واستطرد زي أوروكو:

- هل تعرف بماذا يسمّي هنود الكاراجا النّهرَ دكتور؟ أستطيع التأكيد أنّك لا تعرف ذلك.

وراح يفسّر، بنبرةٍ ودودةٍ:

- إنّه «البيروكان». وهذا يعني المياه العظيمة.

وقطعا بقيّة الطّريق صامتَيْن، لكن مرتاحَين للمهمّة التي قاما بها، حتّى هتف زي أوروكو:

- هناك!

وأشار بيده إلى النهر الذي أطلّ بأبّهته الزّرقاء من بعيدٍ. وعلّق قائلًا:

- يا لهذا النّهر الطّيب والعجوز!

والتفت ناحية الطّبيب:

- ستكون العودة أسرع. إذا أردت سنسافر ليلًا، لأنّ ركوب الزّورق يصبح أسهل عندما ينحدر النّهر.

- لا، زي أوركو. أريد العودة بكلّ هدوءٍ، حتّى نستمتع بمسارنا».

توغّلا في ممرٍّ تغطّيه الأعشاب الطّويلة، ثمّ فتحا طريقًا واقعةً على منحدرٍ وبلغا شاطئًا بعد أن عبرا منطقةً بها نباتات السّارندي الشّوكيّة. كان الزّورق ينتظر في المكان نفسه، غير مشدودٍ ومائلًا على ضفّة النّهر المتناقص يومًا بعد آخر.

لمسه لمسة صداقةٍ:

«ماذا إذَن يا صغيرتي روزينها! هل تأخّرت عليك؟».

ومدّ يده إلى الطّبيب حتّى يساعده على تجاوز منطقةٍ وعرةٍ من المنحدر. وقال له:

- سأستحمّ أوّلًا. لا يوجد أفضل من الغطس في الماء بعد رحلةٍ مُشابهةٍ على القدمين. أَلَا تريد أن تفعل مثلي؟

شرع الطّبيب في نزع ثيابه ولم يلبث أن سأل:

- أَلَا توجد أسماك البيرانا الضّارية هنا؟

- بلى. هي موجودةٌ. لكنّها ليست ضاريةً. إنّها البيرانا الأليفة هنا. ما إن تسمع ضجّةً حتّى ترحل بعيدًا.

ارتمى في الماء الدّافئ. وفعل الطّبيب مثله.

بعد نصف ساعةٍ من ذلك، كانا يتقدّمان على متن الزّورق إلى داخل النّهر، باحثيْن عن العمق الملائم للعوْم.

- هل تعلم، دكتور، أنّ أعماق الأراغوايا ليست دومًا في المستوى نفسه. فهي تغيّر مسارها مع كلّ موسمٍ ماطرٍ من كلّ عامٍ. ينبغي التّدرّب على معرفتها لنتجنّب الطّميَ. ليس على متن زورقٍ صغيرٍ بل على قوارب أكبر. فالزّوارق خفيفةٌ. يمكن المرور من المياه الأكثر سطحيّةً. عندما تحين السّاعة الثّالثة، سنبحث لنا عن شاطئٍ جيّدٍ ونصنع لنا قهوةً أجود.

- هذا مثاليّ!

راح زي أوروكو يغنّي بصوتٍ خفيضٍ، فهبّت موجةٌ من النّعاس أغمضت عينَي الطّبيب. لكنّه كان لا يكفّ عن التّفكير. لقد حانت اللّحظة كي يشرع في إعداد الرّجل للرّحيل. فتح عينيه عاقدًا العزم على ذلك وقال:

- زي أوروكو.

- نعم دكتور.

- هل تعتقد أنّي قادرٌ على إيذاء أحدٍ؟

- لا أعتقد ذلك، دكتور. لكن لماذا؟

- لا شيء. هل تعتبرني صديقًا لك؟

- لنرَ دكتور، لماذا عليّ أن أشكّ في كلّ ذلك؟

توقّف الطّبيب عن الكلام لحظةً. كان عليه أن يتحوّل إلى طفلٍ حتّى يتمكّن من اكتشاف السّرّ. لأنّه رغم كلّ القدرات الطّبيّة لم

يتوصّل بعد إلى الاطّلاع ولو على تفصيلٍ واحدٍ من كلّ ما يحبّ.

- ما أريد قوله... لو طلبت منك شيئًا هل ستجيبني من غير أن تغضب؟

- شرط ألاّ يتعلّق الأمر بماضيّ...

قال ذلك بشيءٍ من الأسى. فردّ الطّبيب سريعًا:

- لا. الأمر لا يتعلّق بذلك على الإطلاق. لكنّك تعرف عمّا يتحدّث النّاسُ جميعًا... هذا بسبب كلّ ما قالوه لي... لقد قالوا إنّك...

كان الدكتور يتحدّث ملتفتًا من عند مُقدّمة الزّورق الضّيّق، ولا يكفّ عن توجيه نظراتٍ قلقةٍ إلى الرّجل الطّيّب.سألَ هذا الأخير:

- عمَّ تتحدّث، دكتور؟

- عن زورقك، اسمه روزينها. أَلَيْس كذلك؟

لاحت ابتسامةٌ هادئةٌ على وجه زي أورروكو:

- هذا إذَن؟ هذا وقتٌ مناسبٌ تمامًا لذلك، دكتور! بماذا حدّثوك بالضّبط؟ بأنّ الزّورق يفهمني وبأنّي أكلّمه، أَلَيْس كذلك؟

- نعم. لكنّي لم أصدّقهم. لقد تفاجأتُ لا أكثر. لا يمكننا أن نتصوّر رجلًا يتحدّث إلى زورق يفهم ويجيب.

انفجر الرّجل ضاحكًا:

- لا تصدّق ذلك؟ لكنّ براري السّيرتاو عامرةٌ بمثل هذه الغرائب، بل بغرائب أكثر تعقيدًا.

- أنا متأكّدٌ من وجود كثيرٍ منها. لكن أن يتحدّث رجلٌ إلى زورقٍ يفهمه... إنّها ليست أكثر من حكاياتٍ موجّهةٍ إلى الأطفال.

توهّجت نظرات الرّجل من الفرح وقال:

- وماذا لو أجعلك تشاهد بأمّ عينيْك استعراضًا لكلّ ذلك، كيف سيكون حالك فيما بعد؟

- لن أصاب بالفزع لأنّي تعوّدتُ على هذه الفكرة. لكنّي مثل القدّيس توماس تجاه هذه الأشياء، ينبغي أن أرى...

- إذَن، تفرّج أيّها الطّبيب. هل أنت مستعدٌّ؟

تمدّد زي أوروكو، ووضع رجليه على حافّة الزّورق، ثمّ شدّ المجذاف إلى صدره ورمى برأسه ليرتكز على المكان الّذي كان جالسًا فيه قبل ذلك وقال:

- أترى المجذاف، دكتور؟ أنا الآن لا أقود الزّورق، أَلَيْس كذلك؟ حسنًا، انظر...

وانطلق يتمتم بنعومةٍ لامتناهيةٍ:

«روزينها، تقدّمي قليلًا، في الاتّجاه نفسه وفق خطٍّ مستقيمٍ».

فعل الزّورق ذلك بِلا أدنى انحرافٍ.

«الآن، روزينها، تقدّمي عشرة أمتارٍ وأنت مائلةٌ على جنبك».

وتقدّم الزّورق عشرة أمتارٍ، وكان مائلًا تمامًا، وفيها بعدُ استعاد وضعيّته العاديّة.

«الآن روزينها، تقدّمي بجزئك الأماميّ ثمّ استديري وعُودي إلى الخلف».

لفّ الزّورق نصفَ لفّةٍ وفعل ما طُلب منه بالتدقيق. فابتسم زي أوروكو للطّبيب وقال:

- إذا لم أُصدر لروزينها أمرًا آخر، فإنّها ستظل تتقدّم إلى الأبد من دون أن تغيّر هيئتها.

- هذا لا يُصدّق، زي أوروكو! لم أر في حياتي أمرًا مماثلًا!

كان الطّبيب مندهشًا في أعماقه. لكن أَلَا يكون قادرًا على التّحكّم في الزّورق بجسده الممدّد؟

فاجأهُ الردّ من زي أوروكو وكأنّه قرأ أفكاره:

- تبدو غير مصدّقٍ تمامًا، دكتور. ولكن لست أنا مَن يوجّهها. كم السّاعة الآن؟

طرح هذا السؤال من دون أن يغيّر هيئته.

- السّاعة الثّالثة تقريبًا.

- طيّب، إنّه وقت إعداد القهوة. انتبه يا دكتور، أنا لا أُصدر أيّ حركةٍ.

وتحدّث مرّةً أخرى للزّورق:

«أمّا الآن، روزينها، فعليك أن تعيديني إلى مكاني، وتوجّهي

فيما بعد إلى الشّاطئ. هل ترين تلك الجزيرة المرتفعة قليلًا بالقرب من الشّاطئ؟ سنذهب إلى هناك».

لبث الطّبيب ينظر بفمٍ فاغرٍ، بينما راح الزّورق يقترب ببطءٍ من الشّاطئ.

«سنتوقّفُ هناك».

أشار زي أوروكو إلى المكان بيده، فانصاع الزّورق للأوامر. لكنّه بينما كان يتهيّأ للتّوقّف نهائيًّا، تلقّى أمرًا مخالفًا:

«سيكون من الأفضل التّوقّف في مكانٍ أبعد، بعد ذاك القوس، هناك حيث المياه أعمق قليلًا».

وهنا، شاهد الطّبيب أغرب ما يمكن أن يشاهده في حياته. فقد توقّف الزّورق لحظةً، ثمّ تراجع إلى الوراء، عدّل اتّجاهه، وسار نحو الشّاطئ الأعمق قليلًا ليتوقّف في النّهاية قُرب الرّمال.

ضحك زي أوروكو من ذهول رفيقه:

- والآن، ماذا يا دكتور؟

قفز الطّبيب على الشّاطئ، لم يكن يعرف ما يقول. انحنى وغمس معصميه في الماء، ثمّ فرك وجهه بيدَيه المبلّلتيْن.

وجدا نفسيْهما مرّةً أخرى على شاطئٍ، بالقرب من نارٍ تلتهم الحطب، يغمرهما دفء النّار كما يقالُ. وكان مكان نوم الطبيب محفورًا بجانب مكان زي أوروكو على ضفّة النّهر. فبعد أن تبدّدت شكوكه، صار يرى أنّ عليه دراسة الحالة. لكنّه الآن، وكأغرب ما

يكون، يشعر بحزنٍ وتمرّدٍ مؤلمٍ أمام ضرورة هذه البحوث. شعر بأنّه أسيرُ ضرورةِ المضيّ قدمًا. فقد تمكّن الرّجل من المضيّ بروحه إلى أبعد ما يكون. حتّى إنّه أسرّ له بأنّه لم يطلع غيرَه على مثل تلك الأسرار.

- إنّك صامتٌ اليوم، دكتور...

- أفكّر في بعض الإشكاليّات.

- هل يبدو لك أنّ الرّحلة طالت قليلًا؟

- لا. لا يتعلّق الأمر بهذا.

- إنّي أتساءل عمّا إذا كنت قد تعوّدت على فكرة محادثاتي مع روزينها...

- ثمّة أشياء لم أستطع إدراكها بعدُ.

مكتبة
t.me/t_pdf

- مثل ماذا؟

- هل أنت الوحيد القادر على فهم ما تقول؟

- نعم، أنا الوحيد.

- وهي؟ هل هي قادرة على فهم ما يقول الآخرون؟

ضحك أوروكو بنشوةٍ وقال:

- نعم، إنّها تفهم.

- كيف اكتشفت أوّلَ مرّةٍ أنّها قادرةٌ على التّكلّم وفهمِ الأشياء؟

- كان ذلك ذات يوم، دكتور، كنت متألّمًا كثيرًا وقتها بسبب شيءٍ لا أستطيع أن أُطلع عليه أحدًا. ولقد تحصّلت في الفترة

نفسها على كتاب أحد القدّيسين. وأنا، باستثناء اللّه، لم أكن أؤمن بأشياء أخرى تخصّ الدّين، لكنّ حياة ذاك القدّيس كانت نافعةً لي بشكلٍ كبيرٍ.

- أيّ قدّيسٍ تقصد؟

- القدّيس فرنسيس الأسيزي. هل تعرف عنه ولو القليل.

- القليل، نعم. ما يقوله عامّة النّاس.

- هذا مؤسفٌ، دكتور. لقد أصبح القدّيسُ صديقًا مقرّبًا لي حتّى إنّي تعوّدت على مناداته في سرّي «شيكو».

بدأ قلب الطّبيب يتأثّر بسبب بساطة محدّثه ونقائه، فابتسم من غير شجاعةٍ وأصغى إليه وهو يُضيف:

- حسنًا، لكن ليس هذا سوى البداية.

توقّف زي أوروكو عن الكلام وتناول جمرةً ليشعل عقب سيجارةٍ. وراح يمتصّ الدّخان وكأنّه يتهيّأ لإطلاق الرّصاص على ماضٍ بعيدٍ. بعد ذلك عاد يسرد:

- توجد تلك الظّروف الّتي تتخلّل حياة النّاس، فلا يبقى التّفكير إلّا في الاختفاء نهائيًّا والرّحيل إلى حيثُ لا أحدَ يعرفك أو يعرف أنّك على قيد الحياة أو المهات. هذا ما حدث لي وقتها. في ذاك الزّمن، لم نكن نتنقّل مثل اليوم، ولم يكن ثمّة مثل هذه الطّائرات الّتي تخترق السّماء. كان كلّ شيءٍ يوحي بصعوبة السّفر. وكنت أعلم أنّي سأقوم في يومٍ من الأيّام بما

يقوم به السيّد أورلاندو فيلاس بواس، هناك في ريو شينجو. أو تحديدًا بعمل الكابتن فاسونسيلو، هل سمعت عنه دكتور؟

- نعم. يقولون إنّهم يقومون معه برحلاتٍ مجهّزةٍ بطاقمٍ طبّيٍّ.

- جيّد. كانت الوحدة كلّ ما يوجد في ريو شينجو. كنّا ننتقل على طول خمسمائة مترٍ في اتّجاهٍ وثلاثمائة مترٍ في اتّجاهٍ آخر. وليس بإمكاننا الصّيد، الصّيد لا أكثر. لأنّ هنودًا يأتون من كلّ صوبٍ، طالبين الأدوية والحياة. لم يكن في وسعي التّحدّث لأيٍّ كان. ولذلك حين ينتهي التّبغ والقهوة والشّحوم والفاصوليا ولا يبقى سوى الأرز بلا ملح لنأكله مع بعض القرع... وكان علينا أن نبتلعه سريعًا لأنّه أكل بطعمٍ مقزّزٍ لا يمّحي بسهولةٍ.

أخذ نفسًا من السيّجارة قبل أن يُتابع:

- في موسم الأمطار، تسوء الأمور أكثر بسبب الجروح الّتي يخلّفها البعوض على جسدك، وكان هذا البعوض يتزايد ليلًا حتّى ما عاد اللّيل سوى طنينٍ متواصلٍ، وفي إحدى المرّات، وأعتقد أنّ الأمر حدث في شهر أبريل، كانت الطرقات والممرّات ما تزال مبتلّةً، وأنا في طريقي من مكتب البريد القديم إلى آخر جديدٍ كانوا بصدد بنائه، كنت أمشي قافزًا فوق البرك بخُفيّ الأبيضين، بحثًا عن مواقع جافّةٍ. إنّي أتذكّر ذلك كأنّه يحدث الآن...

ضحك وتابع:

-أَلَا ترى أنّ الأمر جميلٌ، إنّهما خُفّان أبيضان يا دكتور.

- لا شكّ في أنّهما جميليْن.

- نعم، لقد كانا جميليْن. كنت أقفز هنا وهناك، متقدّمًا إلى أن وجدتُ أمامي كتلةً طينيّةً جافّةً تمامًا، بها عددٌ مهولٌ من النّمل الأحمر، من ذاك المجهّز برؤوسٍ عظيمةٍ وبأعينٍ بارقةٍ. رحت أسحق رؤوس تلك الكائنات الصّغيرة بطرفَي خُفّيّ. كلاكْ... كلاكْ... كلاكْ. فجأةً دبّت رعدةٌ موحشةٌ في ظهري. من أطراف رجليّ إلى حدود منابت شعري، أصبح قلبي يقفز في مكانه وتجمّدت رجلي وهي معلّقةٌ في الهواء، وكان خيط النّمل وقتها قد شرع في الذّهاب بعيدًا. وأوقفني صوتٌ بقوله: «لماذا تفعل هذا بمثل هذه الكائنات الصّغيرة؟ إنّها لم تلحق بك أيّ أذًى». ازداد خفقان قلبي قوّة. نظرتُ حولي لأرى ما إذا كان يوجد شخص مّا، لكن لا أحد على الإطلاق. لا أسود ولا أبيض ولا هنديّ. «اترك النّمل في سلامٍ، إنّها مخلوقات الله. تشعر بالألم مثلنا نحن الأشجار» ما إنْ سمعت ذلك حتّى نظرت حولي بتدقيقٍ أكبر فلمحت شجرة جاتوبا عجوزًا، بأوراقٍ شديدة الخضرة، تلمّعها بقايا أمطارٍ عابرةٍ. لقد كانت هي المتكلّم، وكانت على حقٍّ. ومنذ ذلك اليوم، لم أجرؤ على قتل حيوانٍ دكتور.

- ولا حتّى البعوض؟

- إنّه لا يزعجني كثيرًا.

- وماذا بعد؟

- بعد ذلك، بعد ذلك لا شيء. مع الوقت، أصبحت قادرًا على فهم لغة الأشياء. لكن، ما أفهمه أكثر من غيره هو الأشجار...

مرّر الطّبيب يديه على وجهه. كانت عيناه مبلّلتيْن تقريبًا، لكنّه مجبرٌ على الكلام:

- زي أوروكو، هل ترى أنّي صديقك؟ كنت قد سألتك هذا مرّةً. هل تعتقد أنّي قادرٌ على إلحاق الأذى بك؟

- لا أعتقد ذلك، دكتور. للأشرار مظهرٌ آخر مختلفٌ.

- حسنًا يا صديقي، إنّك مريضٌ. أكثر ممّا تتصوّر. عليك أن ترافقني إلى المدينة. أعدك بألّا يؤذيك أحدٌ. لكن عليك أن تأتي معي.

ظلّ الرّجلان يتبادلان النظرات على الضّياء المنبعث من النّار. ولم يكن على وجهَيهما حقدٌ.

بكلّ البساطة الممكنة... وقف زي أوروكو ومرّر يده على الزّورق. حاوِل أن يكتم ما يعتمل داخله من مشاعر فأعلن بهدوءٍ:

«لقد قالت لي روزينها كلّ شيءٍ، دكتور».

(7)
أغنية الشّيخوخة

مرّ جيريبيل من أمام الكوخ فوجد مادرينها فلور مُتّكئةً على أحد أعمدة الباب، ويداها ملقاتان على ركبتيها وهي لا تنفكّ تراقب المركب ذي المحرّك الّذي كان بصدد الاختفاء في منحنى النّهر، وضجيجه يجلد المكان.

كان شيكو دي أديوس منحنيًا من النّافذة، يتابع هو أيضًا اختفاء المركب في غمرة التيّار المائيّ. وسرعان ما علّق في علاه:

«يا للشّيطان، لو كنت منزعجًا من الفقّاعة التي أعيش فيها لكنت ودّعت الجميع يومًا. لكنّنا عندما نولد بعروقٍ لا نسافر أبدًا.»

نظر جيريبيل إلى مادرينها فلور متسائلًا:

- رحل زي أوروكو أيضًا، أَلَيْس كذلك مادرينها؟

مرّرت يدها على رأسه الحليق مجيبةً:

- نعلم، لقد رحل.

سحبت يدها، فتهاوت بلا حياةٍ كقطعةٍ من الرّصاص، الرّصاص الّذي يثقل صدرها وكلّ جزء من كيانها. كانت قوّتها ولحمها يذويان في أغنيةٍ يائسةٍ. لقد اختفى في تلك السّاعة شيءٌ لم

يكن يومًا ملكًا لها، حاملًا معه انبعاثها الخاطف إلى الأبد. سيصبح اللّيل أطول ممّا كان عليه وسيلاحقه النّهار كمكوّنيْن أبديّين متوازيَين لا يلتقيان أبدًا.

تمكّنت مادرينها فلور من الدّخول إلى الكوخ. لكنّ شخير المحرّك الآتي من بعيدٍ تحوّل إلى رقّاص ساعةٍ حقيقيٍّ. لقد كشف لها الزّمن مرارةً حقيقيّةً. ستضع وشاحًا على شعرها حتّى تخفي الأبيض الّذي سيشتعل في جدائلها الطّويلة. ستزيل عرق أشخاصٍ آخرين، وتُغذّي أفواهًا أخرى، لكنّ كلّ شيءٍ سيكون مختلفًا... سيصبح كلّ شيء ميّتًا، ومطفأً.

تناولت المرآة وجلست على المقعد. ارتكزت على مرفقيْها وراحت تتأمّل صورتها المنعكسة. إنّها لا تكذب. إنّها لا تقبل أيّ وهمٍ. كان فمها يتدلّى محاطًا بتجعّديْن عميقيْن، لقد طوّقت الشّمس عينَيها ببقعتَيْن مظلمتيْن، وقد توسّلت عيناها بعض الشّفقة وبعض التّجدّد.

ضغطت بيديها على صدرها المتغضّن، وشوشتْ بصوتٍ خافتٍ، وقد ألصقت شفتيها بالمرآة الصّديقة وردّد قلبها مرتعبًا:

«إنّي عجوزٌ... إنّي عجوزٌ...».

القسم الثّاني

حبيبتي، روزينها

(8)
لَيَالٍ بلا أُغْنِيَات

بعيدًا، بعيدًا جدًّا... تلاشى كلّ شيءٍ... وماذا عن ليالي الغابة الفسيحة؟... ماذا عن أغنيات الغابة الّتي تسكنُ أعماقَه؟... لم يعد يسمع شيئًا من كلّ ذلك، لم يعد يسمع الهديرَ المتذمّرَ لطيور المانغاري ولا صراخ الببّغاوات قُبيْلَ حلول اللّيل. أين رحل كلّ ذلك؟ ماذا أصبحت تلك السّباقات المحمومة لحيوانات الكابيبارا السّمينة وهي ملاحقة من نمور الثّلوج، لتلقيَ بنفسها في المياه جارّةً خلفها ذرّات من «البيروكان»؟ إنّه لم يعد يعرف شيئًا من كلّ ذلك... صارت أبسطُ محاولةٍ للتّذكّر توجعه وتسبّبُ له قلقًا أعمى يثقل صدره، ويتعاظمُ، ويتفاقم أكثر فأكثر، ذاك الحزن...

في البداية، وصل إلى بنايةٍ كبيرةٍ محاطةٍ بأشجارٍ مغطّاةٍ بالصّدإ، في مكانٍ بعيدٍ عن المدينة. من أعلى الأسوار العالية والمنيعة كانت تتدلّى أغصانٌ من اللّبلاب الجافّة والمقلّعة منذ جذورها. ثمّة ساحاتٌ مربّعةٌ تنتشر فيها الأوراقُ الميّتةُ ويتردّدُ صدًى رتيبٌ لوقعِ خُطًى غير منتظمٍ. وثمّة أناسٌ كثرٌ غامضون ودائمو الصّمت، وهم في فرارٍ متواصلٍ، اتّقاءً لشمس لا تكفّ عن متابعتهم حيثما ذهبوا.

كان زي أوروكو يجترّ أفكارَه، محبطًا. ويراجع كلّ الحقائق ليقول في نفسه إنّه لا بدّ لتلك الأشياء من أن تعود إلى ذاكرته من جديدٍ. ومع كلّ عودةٍ، تبدو الصّور باهتةً وبعيدةً. هل حدث حقًّا كلّ هذا الّذي يفكّر فيه، أم هو مجرّد حلمٍ دام كلّ هذا الوقت وهو في الحقيقة لم يغادر الرّكن الذي يقبع فيه منذ ولادته؟ لم يتهجّم عليه أحدٌ، و«أحدٌ» هذه تعني هؤلاء الآخرين الّذين يلهثون في ذهابهم وإيابهم على مدى الأروقة، متّسخين، بشعورٍ شعثاء، وهم غير مُنتبهين إلى شيءٍ ممّا يحيطهم وغير واعين معظم الوقت.

لقد حاول مرارًا أن يفاتح اثنيْن منهم بالحديث بعد أن بَدَوَا له أقلّ موتًا. اكتفى الأوّل بالابتسامة وبالقول إنّه يصغي... ما الّذي يصغي إليه تحديدًا؟ لم يكن يعرف. كان تائهًا في قصّةٍ غامضةٍ عن عائلةٍ استعجلت موتَه كي ترث ممتلكاته. وبما أنّه لم يمت، فقد جرّوه إلى هنا. لكنّه (في هذا الوقت، يصبح عنيفًا ويصرخ بأعلى صوته، رافعًا يديه صوب السّماء، واللّعابُ يسيلُ من فمه وعيناه منقلبتان من فرط الحمّى)، مازال في انتظار العدل الإلهيّ. إنّه -تعود إليه الابتسامة- ينتظر أن يتذكّره الله. ومن طول ما انتظر، فَقَدَ شعرُه سوادَه، فلم يعد السّواد سوى ما يمكن تخيّله بين البياض الذي آل إليه. لقد انضافت السّنوات إلى سلسلةٍ أبديّةٍ من الانتظارات، وتكوّنت حلقاتٌ لانهائيّة حيث يمثّل اللهُ الأملَ الوحيد. وإذا ما ظهرت العدالة الإلهيّة، فلا شكّ في أنّها لن تكون بالقوّة ولا الحزم اللاّزميْن لمعاقبة عائلةٍ لم يرَها صاحبُ الشّأن منذ زمنٍ طويلٍ، وقد تكون خلاله غيّرت من طباعها الشّرّيرة. أمّا الثّاني فكان يخيّر عدم

الكلام. لقد نسيَ تمامًا مأساته الدّاخليّة الفظيعة. وهو من الّذين يقضون أيّامهم يمشون متفادين الآخرين. لم يكن ينتعل حذاءً، لكنّه أمرٌ لا يسبّب له أيّ أذًى لأنّه من فرط المشي حافيًا نبت لرجليه نعلان صلبان صلابة قرون الكباش. كان يرتدي منامة يجدّدها، ويزوّده بها كلّ أسبوعٍ أحدُ أفراد عائلته. يطلّ من سترته بطنٌ أبيضُ متهدّلٌ، يهتزّ مع كلّ خطوةٍ يخطوها. وكان دومًا يتأبّط حزمةً من الجرائد البالية. وسواء أكان الجوّ ماطرًا أم مُشمسًا، فإنّه لا يأبه لذلك ولا لأيّ شيءٍ آخر. ولا أحد يعلم عمّن يَبْحَث في الجرائد، من المُمكن أنّه يبحث عن خبر جديد أو عن إعلان وربما هو يحملها هكذا بلا جدوى تُذكَر. استطاع زي أوروكو الاقترابَ منه يومًا وأعطاه سيجارةً. فقَبِلَها منه ووهبه جريدةً، ثمّ عاد إلى مشيته قاطعًا أشواطًا من الأبديّة.

تصفّح زي أوركو الصّفحات المصفرّة. لا شيء مهمٌّ. إنّها تواريخ قديمةٌ. عشر سنوات من القدامة المطبوعة انفتحت أمام أصابعه. جلس محبطًا وراح يتذكّر بداياته. كان توتّره ساعتها محتدمًا حتّى إنّ قلبه راح يخفق بوحشيّةٍ. إنّه الخوف من أن تجرّ حياتُه خيبتَها في هذا المكان العامر بالأشباح والقبح... يا لغباوة قبوله بالمجيء إلى هنا!... بأن يقطع هذه المسافة مصدّقًا وعدَ «الدّكتور»، وعدَ صديقٍ طيّبٍ تمكّن من سرقة كلّ أسراره. أمّا الآن، فمن المؤكّد أنّه، وبعدما اطّلع على كلّ شيءٍ، سيعود إلى أحضان الأراغوايا وسيستعيد زورقه وسيتعلّم من جديدٍ كيف يتحدّث إلى الأشجار. لقد سلبه الطبيب كلّ سعادته. حتّى إنّه حاول مرارًا الاقتراب من

الأشجار الهرمة، وفي كلّ مرّة يزداد يقينًا من أنّه لم يعد قادرًا حتّى على فهم أنّاتها. وكيف تسنّى له ذلك؟ ما هي إلّا أشجارٌ معقّدةٌ بلا أنساغٍ، بجذوعٍ نَخِرَةٍ وأغصانٍ منكسرةٍ وأوراقٍ قليلةٍ!... لم تعد تصلح سوى لحجب بعض أشعّة الشّمس وصنع ظلالٍ حزينةٍ تزيد السّاحات الكبيرة قبحًا على قبحٍ.

يوجد دومًا رجالٌ في زيٍّ أبيض مكلّفون بمراقبة حركات كلّ واحدٍ من هؤلاء وسكناته، وهم يَبدُون دومًا غير عابئين بتهوّر هذه الكائنات الغريبة.

كم كان عددهم؟ لك أن تحاول ما استطعت معرفة ذلك... أحيانًا تغصّ بهم السّاحة والأروقة. وأحيانًا أخرى، ولاسيّما عندما تمطر، قليلون هم الذين يخرجون من الغرف الّتي يُسمّونها باسم الممرّض القائم عليها. وفي أحيانٍ أخرى، وعندما لا يتصرّفون وفق المطلوب يتمّ نقلهم بعيدًا مدّةَ أيّامٍ كثيرةٍ، أمّا عندما يعودون فإنّ وجوههم تبدو في العادة مشوّهةً بلحًى كثيفةٍ تحيط بأعينهم الّتي لم تفقد بريقها.

أمّا النّاظر إلى المكان من خارج الحدائق الفسيحة، فإنّ البناية لا توحي إلى الوافدين بشيءٍ ممّا يسودها من رعبٍ دائرٍ في الدّاخل. لا أحد بوسعه أن يتوقّع ما يحدث...

أوّل ما يعترضك، الأروقةُ -وهي خاصّة بالأطبّاء- والقاعاتُ -قاعات الأطبّاء النّظيفة بطبيعة الحال- بحيطانها البيضاء والصّمتِ التّامّ الّذي يسودها. هناك يجتمع أناسٌ سالمون وقادرون

على الالتقاء. وترنّ الهواتف ويبتسم لك الطّبيبُ ويرافقك حتّى الإقامة. يعرضُ عليك الصّداقة، ويكرّر على مسمَعك أنّ كلّ ما يحدث لك إنّما هو في صالحك وأنّك ستكون يومًا مّا ممتنًّا عميق الامتنان لكلّ ما صُنِعَ بك.

أعدّوا له استمارةً. وماذا عن اسمه؟ إنّه لم يُطلع عليه أحدًا. لأنّه لم يستطع هنا أن يكون زي أوروكو. لقد أُجبِرَ على استعادة اسمه القديم الّذي يسبّب له مُجرّدُ ذكره حزنًا كبيرًا. وانتهى الأمر بأن أطلعهم «جوزي أوغستو» على عمره الحقيقيّ وكشف عن مكان ولادته أيضًا.

قادوه إلى داخل قاعةٍ حيث طُلب منه أن ينزع ثيابَه رغم حضور إحدى الممرّضات. لقد كان من المُذلّ له أن يتعرّى على تلك الشّاكلة. وهو أمرٌ أكثر إذلالًا من مرافقة رجالٍ آخرين إلى الاستحمام عراةً في مياه النّهر الدّافئة. لكنّه رضخ للأوامر رغمًا عنه. أخذوا ثيابه كلّها، وناولوه واحدة من البذلات الموحّدةً الشّكل، الخالي تصميمها من الذوق، كانت مُلهبة للجسم وقاسية بسبب قماشها الخادش. وفي المقابل احتفظ لنفسه بولّاعةٍ وسيجارةٍ. فقد أكّدت له الممرّضة الشّابّة أنّه لن يُحرَم من السّجائر بالمصحّة، لأنّ الدّكتور حريصٌ على توفيرها له بنفسه.

بعد ذلك، عاد مرّاتٍ إلى هذه القاعة نفسها. ومن داخلها، تمكّن من التّمتّع ببعض الاستقلاليّة. وكان دائم التحدّث للأطبّاء بقوله:

– دكتور، أخرجني من هنا، أرجوك. إنّها قاعةٌ مقزّزةٌ ونتنةٌ،

ولستُ متعوّدًا على ذلك.

فَيَعِدُونه بأنّهم سينقلونه في أقرب وقتٍ ممكنٍ إلى مكانٍ أفضل. لكنّ هذا لم يحدث إلى الآن.

- دكتور، إنّ هؤلاء الرّجال مجانين. هم جميعًا مخبولون.

- وأين تظنّ أنّك تقيم؟

- لكنّي لستُ مجنونًا. لستُ مجنونًا.

وتصيبه فوْرَة من الغضب أمام أعين الأطبّاء السّاخرين فيصرخ:

- ما كلّ هذا إلاّ استنباطٌ خاصٌّ به «هو». (لم يعد الدّكتور يُنادي الدكتور إلّا بـ«هو»). كان يريد الاطّلاع على سرّي. متى أرحل من هنا؟ أملك منزلًا وقاربًا يا دكتور...

- سترحل في أقرب وقتٍ ممكنٍ. سترحلُ عندما تصبح على ما يرام.

- لكنّي على ما يرام. أنا بخير تمامًا. ليس لأحدٍ الحقّ في أن يزجّ برجلٍ في مأوًى لأنّه وبكلّ بساطةٍ قادرٌ على التّحدّث مع الأشجار، ولأنّه يملك قاربًا اسمه روزينها...

كان الحاضرون يضحكون منه. لا أحد يصدّق ما يقول.

وهكذا استولت عليه فوْرةٌ من ذاك الغضب البشع. في أحد الأيّام، دفعته تلك الفوْرة إلى إلقاء قارورة حبرٍ أزرق على الطّبيب، وقد تمكّن من تفاديها فلم تُصب سوى بلوزته البيضاء، وفي الآن

ذاته تسبّبت في واحدةٍ من تلك اللّطخات الزّرقاء العظيمة على الحائط.

هبّ رجالٌ وممرّضون وأمسكوا به بكلّ قوّةٍ. ألقوا به في زنزانةٍ محاطةٍ بالأسلاك. وشرع أحدهم في تخليصه من ثيابه. جعلوه عاجزًا عن السّيطرة على نفسه، مطلقًا شتائمَه على الجميع، لذلك أحضروا خرطوم ماءٍ مخصّصًا في الأصل لسقي النّباتات. وكانوا من قَبْلُ قد أعلموه مُحذّرين أنّه لو واصل على المنوال نفسه فسيتعرّض لأسوإ حمّامٍ قد يشهده في حياته.

وتضاعف غضبه:

«لستُ مجنونًا!... لستُ مجنونًا!...».

ثبّت يديه في الشّبكة السّلكيّة الّتي تحيط به من كلّ جانبٍ، وراح يهزّها بغضبٍ لا يوصف. انفلتَ منه صوته حقًّا من غير أن يقدر على شيءٍ من الأشياء التي أمامه. وأخذت أسنانه تحدث صريرًا فظيعًا:

«لستُ مجنونًا!...».

اقترب الرّجل صاحب الخرطوم من الشّبكة السّلكيّة. لكنّ زي أوروكو لم يستطع الاستماع لما كان يحاول قوله. كانت عنده مجرّد جملٍ تتخلّلها ضحكاتٌ ساخرةٌ، وقد زادت في حجم هذيانه وحَنَقه. فما كان من الرجل إلّا أن فتح حنفيّةً فانطلق سيلٌ من المياه واستهدف معدةَ زي أوروكو بوحشيّةٍ نادرةٍ. وبذلك أخرسه الألم لحظةً.

- هيّا يا صديقي، هدّئ من روعك! وإلاّ فإنّي سأكون مضطرًّا إلى إساءة معاملتك.

بعد أن كانت يداه موضوعتين على المكان المتضرّر انطلقتا مجدّدًا وتمسّكتا بالأسلاك في عنفٍ متفاقمٍ. كان معصماه يؤلمانه، والدّم يكاد ينفجر من عروقه، والنّار تشبّ في وجهه، آتيةً من صدره، من روحه، من عمق الغيظ.

- لقد نبّهتك، يا صديقي...

- يمكنكم قتلي، لن أخرج من هنا. لستُ مجنونًا.

وسال لعابه غزيرًا وهزّت رعشةٌ هائلةٌ كلّ نقطةٍ من جسده.

- لا تقل إنّي لم أنبّهك.

صوّب الرّجلُ القذيفة المائيّة. فتصلّبت عضلاته من هول الصّدمة. كان الماء ينصبّ عليه من كلّ جهةٍ. وانضاف الألم العنيفُ إلى الكره الّذي كان يسكنه. انتقل ذاك الألم من المعدة إلى الرّكبتيْن. لكنّ يديه لم تقبلَا الاستسلام. دبّ الألم في معدته مرّةً أخرى. راحت النّافورة المائيّة تتعاظم أكثر فأكثر. كان يُخيّل له أنّ المياه تقلّع الشَّعر من صدره. يا إله السّماء! إنّ هذا الألم الرّهيب يهشّم أضلاعه، ويحرق عظامه ويمزّق جلده... لكنّ يديه ما تزالان متمسّكتين بالمكان نفسه. لم يعد قادرًا على اقتلاعهما. فراح يحبسُ أنفاسَه محاولًا التّخفيف من وطأة النّافورة المائيّة، كأنّه يموت، وهو ما سيكون أفضل من كلّ هذا الإذلال.

اقترب الرّجل أكثر. لم يكن يخشى أن يخطئ هدفَه. كان يحدّدُ المكانَ قبل أن يجلده بالخرطوم. استهدف في البداية أصابع اليد اليسرى. ثمّ رفع الخرطوم قليلًا وأطلقه على مفاصل اليد اليُمنى. كانت عظامهما تُسحقان تحت الخرطوم. لكنّهما لا تستسلمان! مطلقًا. كانت سياط الماء تنهال على وجه زي أوروكو وتسدّ أنفاسه.

صار الرّجل صاحب الخرطوم مسيطرًا على الوضع تمامًا. لذلك خفّف من الضّغط قليلًا قائلًا له:

- هيّا، اصمت الآن!

تنفّس الصّعداء وحاول استعادة قواه. تغلّب على آلام معصميْه وحاول أن يبصق على هذا الوحش الّذي أمامه. لو كان في وسعه الإمساك به في هذه الأثناء لهَشَّمَ رأسه على القضبان.

- هيّا أيّها العجوز! هذا يكفي. إنّك هرِمٌ تمامًا... طيّب، إنّك لا تريد أن تفهم...

كانت عينا زي أوروكو مركّزتيْن على حركات أصابع الرّجل النّاتئة وسكناتها. هي أمامه، تدير بهدوءٍ ودقّةٍ رقبَةَ الخرطوم لتزيد من قوّة التّدفّق. يقوم الرّجل بكلّ ذلك في بطءٍ، لكن يبدو أنّه ضاق بممارسة مثل هذا العمل. فانفجر اللّغمُ المائيُّ فجأةً. ارتفع من الرّجلين حتّى الكتفيْن مرورًا بقضيبه. مرّ على المعدة أيضًا وانصبّ مهولًا على وجهه. أمّا هو فكان يحاول إغلاق عينيْه، لكنّ الألم كان مستعصيًا، لا يُطاق، راحت أذناه تُصَفّران، وانكتمَ صوتُه في خضمّ الماء النّاريّ وضجّته الكبرى، حُبِسَتْ أنفاسُه، وارتدّت عيناه إلى

داخل رأسه. كان يرتعد ويريد إطلاق أنينٍ أو حتّى البكاء، لكنّه لا يبلغ شيئًا من كلّ ذلك. فقدتْ أصابعُه كلَّ قوّةٍ ممكنةٍ. وتهاوى جسده بكلّ ثقله على الأرض. حاول الوقوف لكنّ الموجة المائيّة منعته من ذلك. انزلق على الأرض وراحت نافورة الماء تقذفه وكأنّه علبةٌ قذرةٌ. ارتكز بأصابعه على الأرضيّة المبلّطة لكنّه لم يجد شيئًا يتمسّك به. انزلق جسده ودار حول نفسه وارتفع وسقط من جديدٍ. ينبغي ألّا يقترب من الحائط. إذا حدث ذلك فإنّه سيُسحَق بلا رحمةٍ، فقوّة الماء لا تكفّ عن التّنامي. كانت عيناه اللّتان لا يكاد يقدر على فتحهما تريان القضبان وهي تبتعد ونافورة الماء تتدفّق بشكلٍ مرعبٍ. وهذا يعني أنّه بصدد الاقتراب من الحائط. لم يعد هناك شيءٌ خاضعٌ لإرادته. وقف فجأةً فرأى رجالًا آخرين بخراطيم أخرى. ظلّ ملتصقًا بالحائط. أدار ظهره للماء. راح كلّ شيءٍ يؤلمه وكأنّه في قلب حريقٍ هائلٍ. كان رأسه على مشارف الانفجار وشيءٌ كالسكّين مغروس في قفاه. إنّه الألم المطلق... بدا له أنّ أذنيْه تشارفان على الطّيران من جهتَيْ رأسه. أمّا شعره فقد راح يصطدم بواجهة الحائط البيضاء. لم يعد قادرًا على الوقوف أكثر، ظلّ مصلوبًا بصورةٍ تثير الضّحك. فقدت كلّ الأشياء معانيها. لم يعد يتنفّس. راح يسعل عاليًا وكانت رئتاه مليئتيْن بالماء. بدأ يشعر بالإغماء وبألمٍ رهيبٍ لانهائيٍّ.

توقّفت الخراطيم فجأةً. فتمايل جسده بلا أدنى قوّةٍ. خانتْهُ رجلاه وكفّت ركبتاه عن الاستجابة لإرادته فانزلق وهو ملتحمٌ

بالحائط. كان الماء يتدفّق إلى حدود زوايا الزّنزانة. تغيّرت مشاعره. حتّى التّنفّسُ صار يُوجعه، كذلك التّفكيرُ. ظلّ مرميًّا مثل كومةٍ من اللّحم تعلّمت التّنفّس فجأةً. تمكّن من الجلوس في بركة ماءٍ. ارتفعت يداه المرتعشتان لتزيحا شعرَه عن وجهه ثمّ لتُدَلِّكا صدره بصعوبةٍ، وهو لا يكاد يقدر على فتح عينيْه. شعر وكأنّه مراقبٌ من طرف مجموعةٍ من النّاس، فيما كانت أذناه لا تكفّان عن تلقّي كلماتٍ مّا... أكثر ما تردّد منها كان: العجوز... العجوز... العجوز...

كان زي أوروكو يرغب في البكاء بشدّةٍ لكنّه لم يتمكّن إلّا من إصدار بعض تمتماتٍ ضعيفةٍ، بينه وبين نفسه، في مواجهة حزنه وشعوره بالذّلّ:

- لستُ مجنونًا... لستُ مجنونًا...

تخلّى الرّجال عن الخراطيم واقتربوا من الشّبكة السّلكيّة:

- ها قد فهمت أخيرًا أيّها العجوز. لكن لو عدت إلى صراخك، سترى ما هو أفظع.

ناول رجلٌ آخر سيجارةً لرفيقَه وهو يقول:

- هل هو جديدٌ هنا؟

- إنّها مرّته الأولى (ابتسم). وبالقياس إلى أوّل مرّةٍ، يكون قد تلقّى حمّامًا جيّدًا، أَلَيْس كذلك؟

دسّ زي أوروكو قضيبه بين فخذيه خجلًا. ثمّ حشر وجهه

المليء بالكدمات بين يديه كي لا يرى الوجه الدّميم للوحشيّة الإنسانيّة وهي متجسّدةٌ أمامه.

قيل له:

- أمّا الآنّ، فإنّك ستمكثُ هنا قليلًا حتّى تتعلّم أكثر...

ثمّ تركوه وحيدًا مع يأسه ورحلوا.

راح الألم يخفّ شيئًا فشيئًا. تمكنّ من تمرير يده على كلّ كدماته. وانضاف إلى إحساسه بالحروق بردٌ دبّ في كامل بدنه. أراد النّهوضَ وترْكَ المكان الّذي كان يجلس فيه، لكنّ قواه لم تسعفه. أصبح الماء بطيئًا في سيلانه، ما يعني أنّ البالوعة انسدّت...

ظلّ جالسًا وقتًا طويلًا. دبّت رعدةٌ في كلّ عضلاته. ومن شأن الرّعدة أن تجعل الألم أكبر. كان هناك ما يشبه الإبرَ الخفيَّةَ تَخِزُ دماغَه. وكانت عيناه المتورّمتان تدمعان. غرق في بكاءٍ صامتٍ، ناظرًا في صورة جسده المنعكسة على الماء وما انفكّ يُحدّث نفسه:

«لستُ مجنونًا. ما كان عليهم أن يفعلوا بي كلّ ما فعلوا. حتّى لو كنت بنصف عقلٍ ما كان عليهم أن يفعلوا بي ذلك... أنا عجوز فعلًا.»

كان بمعدته مسمار ناريٌّ حارقٌ. فتقيّأ على فخذيْه.

اغترف بيديْن مرتعشتيْن بعض الماء ونظّف نفسه، فيما راح الدُّوَار والألم يُغْرِقان جبينَه بعَرَقٍ باردٍ وعليلٍ.

جرّ زي أوروكو نفسه ببطءٍ إلى مكانٍ أقلّ بَلَلًا. كانت الرّجفة تهزّه هزًّا. التفّ حول نفسه لتخفيف البرد واحتواء الألم.

خامره نعاسٌ غامضٌ وبدأ يفقد كلّ أحاسيسه.

نام حيثُ هو، وقد صار الآن متأسّفًا على فقدان الثّياب الخشنة الّتي جرّدوه منها.

حلّ اللّيل شديد السّواد، وكان زي أوروكو يرتعد. اختفى الماء من فوق الأرضيّة، ودبّ برد الموتى من تحته. نعم، هُوَ ذَاكَ تمامًا: برد الموتى. لعلّهم ينتظرون نهايته في هذه اللّيلة اللّعينة. شرد ذهنُهُ إلى الشّواطئ الفسيحة، هناك عندما يكون قرب الماء، ومعه روزينها. بَعَثَتْ ذكرى المركبة الضّئيلة الضّائعة في الفضاء والذّاكرة بعضَ الدّفء في يأسه البارد.

في هذه اللّيلة الخالية من الأغنيات، ثمّة شخصٌ يئنّ في مكانٍ مّا، وآخر يضحك أيضًا، يضحك بجنونٍ، ضحكات تتخلّلها تقطّعاتٌ ثمّ تعود بشكلٍ أقوى. من يدري، لعلّه يصبح هو ذاته مثله، ضاحكًا من غير أن يعرف السّببَ.

لاحت أولى بوادر الفجر، محمّلةً ببعض البرد. كان مازال على هيئته الأولى ملتفًّا حول نفسه مثل جنينٍ يحاول حماية نفسه. شعر بوخزات جوعٍ شديدٍ وهو يعلم أنّه لم يأكل منذ اللّيلة الماضية. لقد نجا على الأقلّ من ذاك الحساء الدّهنيّ المقرف، حيث تطفو حبّات البطاطس بقشورها.

كان في نعاسه يحاول فتح عينيه للتّثبّت من بُزوغ الشّمس الّتي لا شكّ أنّها ستشرق على السّاحة بأشعّتها الحارقة. وكان ثمّة ذُباباتٌ بصدد دخول الزّنازين والخروج منها لتحطّ على بقايا

القَيْء الجافّ. وثمّة أيضًا وقعُ خطًى تتقدّم في الرّواق غير بعيدٍ عن زنزانته. مع ذلك، تباطؤوا في الوصول إليه. لعلّهم قرّروا تركَه هنا أكثر، مُهملًا...

كان يتمايل في مشيته، تحكّ عضلاته بعضها بعضًا، وهو يحاول تدفئة جلده ودلْكِ أضلاعه. كان يريد أن يعيد الحياة إلى جسده الّذي تعرّض لسوء معاملةٍ كبيرةٍ، إنّه أوّل ما يتوجّب عليه فعله. لكنّ عليه أيضًا أن يجلس من حينٍ إلى آخر، هذا ما يتطلّبُه وضعه الواهن تمامًا.

وصل الرّجل ذو الخرطوم، وبرفقته ممرّضٌ:

- كيف حالك، أيّها العجوز، هل أصبحت أكثر وداعةً؟

ظلّ جالسًا، خجلًا، بعينيْن ناظرتين إلى أسفل، بلا رغبةٍ في أيّ شيءٍ.

- إذا أصبحتَ أكثر تعقّلًا، فيمكن أن تسترجع أسمالك. هل تسمع؟ اِقْتَرِبْ.

وقف بصعوبةٍ مُمْتثلًا للأوامر. لكنّه لم يرفع فيهما عينَيه. شعر بيدٍ صلبةٍ تمتدّ تحت ذقنه لترفع وجهه إلى أعلى. ومن دون إرادةٍ واضحةٍ منه، انهالت دموعه من عينَيه المنتفختيْن.

ضحك الممرّض وقال:

- هذا أفضل بكثيرٍ. هيّا، خذ كوب القهوة هذا.

ارتشف جرعةً بشراهة.

- وهذه قطعة من الخبز.

غمس الخبز الخالي من الزّبدة في القهوة وراح يمضغها بفكّيْن ميّتيْن. من الجيّد أن يأكل قليلًا. بعد ذلك أعاد الكوب ممتنًّا وقال الرجل للممرّض:

- أعْطِه ثيابَه الآن!

ثُمّ التفت إلى زي أوروكو وأمره:

- هيّا، اخرج! وضعْها بنفسك!

لم يجد بُدًّا من الرضوخ للأوامر. من شأن هذه الملابس الفظّة أن تمنحه بعض الرّاحة.

لَبِسَها وظلّ ينتظر.

دار المفتاح في القُفل.

«لك الآن أن تعود إلى السّاحة. لكن، لو ارتكبت حماقةً أخرى فإنّك ستجد نفسك هنا من جديدٍ».

تقدّم زي أوروكو مترنّحًا بين الممرّض والرّجل ذي الخرطوم. أدخل يده إلى جيبه: اختفت الولاّعة والسّجائرُ نهائيًّا. فَهِم السّبب على الفور. لن يتركوا بحوزته نارًا منذ الآن. من المؤكّد أنّهم صنّفوه من بين الأشخاص الخطيرين.

دخل إلى السّاحة. الشّمسُ تطلّ باهتةً من خلف أشجار المانجو. وثمّة طائر عقعق يصدح بعيدًا بأنشودةٍ في غاية الجمال والحزن.

بحث عن مكانٍ خالٍ وجلس في مواجهة الشّمس. أراد أن

يتخلّص من الرّطوبة الّتي سكنته طَوال ليلةٍ كاملةٍ.وجد مكانًا مُلائمًا، فراحت أشعّة الشّمس تنتشر على وجهه وكتفَيْه وظَهر يديْه...

كان الرّجل صاحب الجرائد كعادته غير آبهٍ لشيءٍ، وبطنه المنتفخ يهتزّ بوتيرةٍ ثابتة. وكانت الجرائد التي تُمثّل جزءًا من جزئيّاته الحياتيّة الضيّقة عالقةً تحت إبطه.

أمّا الصّديق الثّاني، ضحيّة العدل الإلهيّ، فلم ينتبه إلى أنّه قضّى ليلةً في الخارج. في المصحّة، لا أحد من شأنه أن يُلاحظَ شيئًا، وذلك لأنّ العقول غريقةٌ في غياهب النّسيان، في موتٍ مستمرٍّ بلا ذاكرةٍ وبلا أغنيةٍ...

(9)
أورُوبِيَانْغَا، قانونُ الغابِ

فَقَد زي أوروكو كلّ رغبةٍ في الحديث. إلى منْ يتحدّث ولماذا؟ في البداية، هاجمته رغبةٌ مجنونةٌ في الفرار، في البحث عن مكانٍ يكون فيه أقلّ حزنًا، يمكن له أن ينعم فيه بشيءٍ من أشعّة الشّمس بحرّيّةٍ. لكنّه راح يفقد واقعه شيئًا فشيئًا. كان كمَنْ يغربل أملَه الّذي يتفتّت بالغربال شيئًا فشيئًا إلى أن يختفيَ تمامًا.

صار يقلّب الأماكن نفسها بحثًا عن ضالّته. وعندما يناولونه سيجارةً، يبْقيها عالقةً بشفتيْه إلى آخر نفسٍ وهو لا يكفّ عن النّظر في الفراغ... في العدم.

عندما يكون على هذه الحال، غائبًا تمامًا، يأتي الممرّض لأخذه. كانوا يقولون إنّ حالته تزداد سوءًا يومًا بعد يوم. ومن غير أن يفهم من كلّ ذلك شيئًا، ظلّ يتلقّى حُقنًا عبثيّةً إعدادًا للصّعق الكهربائيّ. يشرب أشياء من شأنها أن تحوّلَهُ إلى دابّةٍ. عاد في مناسبتيْن اثنتيْن إلى حيث خراطيم الماء. لكنّه لم يعانِ كثيرًا كما في المرّة الأولى لأنّه صار يعرف مُسْبقًا ما ينتظره. عندما حاول مرّةً أخرى خنق ممّرضٍ، وكذلك عندما ضرب واحدًا من «الآخرين» على رأسه بطوبةٍ نجح في اقتلاعها من الحائط، شدّوا وثائقه بقميصٍ طويلِ الكُمّين، ربطوا

ذراعيْه بخلافٍ وراء ظهره، وأحكموا شدّه إلى درجة أنّه لم يعد قادرًا على التّنفّس. ظلّ مقيّدًا هكذا في هذا الزّيّ، ثمّ زجّوا به في زنزانةٍ مظلمةٍ وبلا متنفَّس. وعندما خرج إلى الضّوء، كان لا يكاد يقدر على فتح عينيْه.

لا شيء يمكن تحقيقه من وراء دفاعه عن نفسه إذَن، ولا من وراء سرد كلّ ما يتخيّله. فهو يفكّر في أشياء جميلةٍ، أشياء لو اطّلع عليها الأطبّاء لمَنعوا مجرّد التّفكير فيها.

انتهى بأن تحوّل إلى أخرس. لا ينبسُ ببنت شفةٍ أيّامًا وأيّامًا.

أمّا ذاك السّارق، الدّكتور، فقد كان يأتي لزيارته كلّ أسبوعٍ تقريبًا. لم يكن يجلب السّجائر كما وعد. يكتفي بأن يناوله واحدةً، يخرجها بنفسه من العلبة بشكلٍ مبالغٍ في استعراضيّته. لقد أصبح مختلفًا تمامًا عن ذاك الّذي رافقه في رحلتهما الودّيّة.

لم يَعُدْ يحدّثه عن نيّته في تسهيل نقله إلى مكانٍ أكثر نظافةً. هذا بالإضافة إلى أنّ زي أوروكو لم يَعُدْ يعير ذلك اهتمامًا كبيرًا. فلمّا كان غير قادرٍ عن الرّحيل، فمن الأفضل له أن يظلّ غارقًا في هذا الامّحاء المتعمّد- تقريبًا.

كان الطّبيب يدخل إلى السّاحة، فيقترب منه ثمّ يمدّ يده لمصافحته. لكنّ زي أوروكو لا يحرّك ساكنًا. يعيد عليه قولَه إنّه فعل كلّ هذا لمصلحته وإنّه سيكون في يومٍ من الأيّام ممتنًّا لكلّ ما حدث.

في المرّة الأخيرة الّتي زاره فيها، أعلمه بخبرٍ جديدٍ: سيسافر إلى السّيرتاو. لم يحدّد المكان بالضّبط. سيسافر ليقبض على آخرين.

وهنا، نظر إليه زي أوروكو في عينيه مباشرةً، مطلقًا شررًا من نظراته، لأنّه استطاع تخمين المكان الّذي يقصده. ولم يكن يتوهّم شيئًا في هذا الخصوص. إنّه متأكّدٌ أيضًا من أنّه سيسرق زورقه الصّغير ويستولي على كوخه، على العصافير، وعلى حواراته الّتي ما تزال دائرةً على ضفّة النّهر. أدار له ظهره وذهب للجلوس في غمرة ذاك الخرس الّذي يعبّر عن احتقاره الشّديد لبقايا هذه القذارة البشريّة.

كانوا يأتون كلّ أسبوع لتفقّده. ظنّ في البداية أنّها زياراتٌ من أجل أدويةٍ جديدةٍ، أو حقنٍ جديدةٍ، أو صعقاتٍ كهربائيّةٍ جديدةٍ. لكنّها لم تكن كذلك. كانوا يقودونه إلى قاعةٍ نظيفةٍ، وهناك يتحاور مع فتاةٍ شابّةٍ. في الواقع، لقد كانت هي من تتكلّم طوال الوقت، تفسّر له أشياء عديدةً وتقول إنّها مساعدةُ فلانٍ وإنّها هنا من أجله. كانت تقصّ عليه أشياء عديدةً، بشكلٍ واضحٍ وجلّيٍ، بعباراتٍ في غاية الطّيبة. لكنّ زي أوروكو لم يعد يصدّق شيئًا من طيبة العالم هذه، على الرغم من أنّ الفتاة كانت لطيفةً وجميلةً أيضًا. كانت عندما تخلع نظّارتيْها وتسدل شعرها الأشقر تصبح شبيهةً بتمثالٍ للسيّدة العذراء.

تقول له الشّابة:

– الشّجرة شجرة، لا أكثر. أَعِدْ.

و تسحب علبة سجائر وتمدّ إليه واحدةً من بعيدٍ مُضيفة:

– قلْ: الشّجرة، شجرة لا أكثر والأشجار لا تتكلّم.

كان يرغب بشدّةٍ في التّدخين إلى حدٍّ لطّف عناده. فكرّر قولها ميكانيكيًّا:

- الشّجرة شجرة لا أكثر والأشجارُ لا تتكلّمُ.

ذات مساءٍ، رحلوا بالرّجل ذي الجرائد. رحلوا به إلى الأبد. كان قد توقّف عن المشي وسقط هامدًا، فجأةً. هبّ في اتّجاهه الممرّضون والطبيب. لقد مات، فحملوا الجثّة ومن تحت ذراعها الجرائد.

بعد مضيّ نصف ساعةٍ، لم يعد أحد يتذكّره، كان زي أوروكو قد ذهب للجلوس في ظلّ شجرة المانجو. وراح يراقب حياة النّمل. دارت بينها محادثاتٌ مقتضبةٌ عندما كانت تلتقي في دبيبها المتواصل، أو تشترك في قضم الأوراق نفسها، أو تتجمّع من أجل جرّ جدجدٍ ميّتٍ.

صار رأسه الآن أقلّ تأثّرًا بالحُقن والصّعقات الكهربائيّة. إن أمكن له أن يخفّض تأثيرها بغير صعوبةٍ، وقد اختفى دواره أيضًا، بالإضافة إلى أنّ الشّابّة قالت له إنّه أقام بالمصحّة أكثر من ثلاثة أشهرٍ.

«الشّجرة شجرةٌ، لا أكثر».

عليه أن يحفظ هذا الدّرس عن ظهر قلبٍ. لعلّه مناسبةٌ كي يبتسم. فوجهه ما عاد يُبدي أيّ عاطفةٍ. لقد أصبح يخاف كلّ شيءٍ، قذائفَ ماءٍ جديدةً أو صعقاتٍ كهربائيّةً إضافيّةً.

كان لا يكفّ عن تأمّل يديْه اللّتين راحتا تميلان إلى البياض، جرّاء بعدهما عن شمس السّيرتاو. وكان كلّما استحمّ مع الآخرين وغيّر بذلتَه يلاحظ أنّ جلدته تزداد شحوبًا وشفافيّةً بمرور الوقت،

تمامًا مثل جلود «الآخرين». ولم يكن يفوته أن ينتبه إلى ذراعيه السّمينتين وبطنه البارز من قلّة الحركة.

يلزم تمارين أخرى مختلفةٌ عن هذا التّمرين: «الشّجرة شجرة، لا أكثر».

انضاف إلى ضجره نوعٌ جديدٌ من الكسل. كانت ساعةً مسائيّةً هادئةً، وكان كلّ فردٍ منهم في ركنه منعزلًا في عالمه الخاصّ. لبث زي أوروكو يتأمّل سماءً شديدة الزّرقة. «مرّت ثلاثة أشهرٍ على وجودي هُنا! ثلاثة أشهرٍ! إنّه الرّبيع الآن في الغابة.» أغمض عينيه بشوقٍ كبيرٍ ومؤلمٍ.

تردّد بمسمعه صوتٌ مألوفٌ وممنوعٌ منعًا باتًّا في هذا المكان:

«نحنُ في الرّبيع الآن، يا زي أوروكو. لا، بل أقصد زي أوغستو».

هبّت نسمةٌ عليلةٌ على وجهه، وداعبته مداعبةً مثقلةً بالحنان، كان حنانًا أكبر من أيّ وقتٍ مضى.

فتح عينيه ليرى حائط السّاحة وقد بدأ يتحرّك. شرع الطّوبُ في التّنفّس. نعم، أخذ الطّوب يتحرّك أكثر فأكثر، إنّه يتمايل تقريبًا. يدور، وفي دورانه راحت تتشكّل أكوامٌ، والأكوام راحت تتحوّل إلى دوّاماتٍ ذات صفيرٍ، تذروها الرّياحُ بعيدًا وتحوّلها إلى رقصةٍ من الأوراق الميّتة.

ردّد صوت الحياة أنشودة الرّبيع:

«أصغ يا زي أوروكو، إنّها أنشودة الرّبيع».

راح يستمع إلى كلّ شيءٍ، ويشعر بكلّ شيءٍ، ويتنفّس كلّ شيءٍ.

لم تعد ضفّة النّهر أكثر من انفجارٍ أصفر ذهبيٍّ، ندفٍ من ضفائر الشّمس! وتتفتّح في عمق هذا الانفجار نباتات «السّمبايبا» بورودٍ بنفسجيّةٍ محاطةٍ بأوراقٍ من كلّ الألوان، أوراقٍ خضراء، صفراء، حمراء، وأخرى ميّالةٍ إلى الزّرقة.

«إنّها أنشودة الرّبيع، يا زي أوروكو».

شكّلت رياح النّهر حراشف راحت تطفو على سطح المياه. وانطلقت العصافير تشدو بكلّ حماسةٍ. كانت كلّ الحيوانات مغتبطةً بعد أن كفّت عن التّقاتل لأنّها تتطلّع إلى بلوغ «أوروبيانغا»، قانون الغاب.

«أصغِ جيّدًا، زي أوروكو».

وانطلقت روزينها في سرد قصصها من جديدٍ، قصصٍ تعجّ بالأشياء الجميلة، يحتاج إليها قلبُه المهجور:

في البدء، وصلت نمور الثّلوج بوبرها الموشّى ببقعٍ برّاقةٍ بريقًا ناصعًا كما تعوّد كلّ ربيعٍ.

وصلت أيضًا طيور البلشون واللّقالق والصّواي النّاعق والإوزّ والبطّ ودجاجات الماء وطيور المرعة والمنغاريا والببّغاوات الخضراء وطيورٌ أخرى ذات تيجانٍ فوق رؤوسها، كانت قد حجبت الغيومَ في طيرانها إلى أن حطّت فوق أشجارٍ قبالة النّهر... ضاعت ألوان الرّبيع وخضرةُ أوراقه في كثافة الطّيور المعلّقة على الأغصان.

أمّا داخل النّهر، فيوجد دلفين ساكن بالقرب من تمساحٍ

يطلّ برأسه من المياه، وكانت أسماك البيرانا الضّارية تجاور صغار السّلاحف الّتي فقست لتوّها من دون أن تفكّر في إيذائها. كانت الحيوانات الصّغيرة تعتقد أنّ أسماك البيرانا ليست بالوحشيّة الّتي يتحدّث عنها الجميع. وكانت القضاعة العملاقة تمسح على ظهر رعّاد كهربائيّ كبيرٍ على ضفّة الشّاطئ.

ثمّ حلّ ركب خنازير الماء، حلّت القوارض من «الباكا»[1] إلى الرّاكون الشّائع. حتّى إنّ ثورًا هاربًا من «فازيندا»[2] وساعيًا للاحتماء بأوروبيانغا، قد جاء لانتظار اجتماع الرّبيع.

تنهّد ثعلبٌ أحمر وهو واقفٌ على أرجله الطّويلة جنبًا إلى جنبٍ مع أيل الغابة بعد زمنٍ طويلٍ من الانتظار وقا:

– مرحبًا، أوروبيانغا!

– مرحبًا! سيكون هنا قريبًا.

– لا، لقد تأخّر الوقتُ.

كان هناك طائر كناري أصفر وواحد من طيور الغدران يلعبان على الرّمال غير عابئيْن بالنّوارس. أمّا الببّغاء الرّماديّ فقد كفّ عن قرقرته حتّى لا تفوته إطلالة أوروبيانغا.

تردّد صوتٌ متناغمٌ:

«مرحبًا، أوروبيانغا!».

---

(1) الباكا، اسمٌ علمٌ يطلق على جنس من الحيوانات القاضمة تعيش في جبال أمريكا الجنوبيّة.

(2) الفازيندا: fazenda ملكيّة فلاحيّة فسيحة في البرازيل.

ومن جهة الشّمس أطلّت غيومٌ ذهبيّةٌ تنزلق ببطءٍ مدفوعةً برياحٍ لا تنتمي إلى الأرض.

«مرحبًا يا أحصنة أوروبيانغا الذّهبيّة!».

توقّفت غيوم الذرّات الذّهبية فوق الشّاطئ ذي البياض النّاصع وذي الجمال الأخّاذ. ومن هنا، تناثرت الحُبيباتُ الذّهبيّة ليقفز أوروبيانغا فوق الرّمال.

مطّط يديه القديرتيْن وابتسم. نفض شعره الأسود النّاعم، فثارت منها ريحٌ لها موسيقى عذبةٌ ترافقها رائحةٌ مسكرةٌ.

صمتت كلّ الحيوانات، كلّ الدّواجن، كلّ الطّيور، وانغمست في تأمّلٍ قدسيٍّ وفي نشوة صلاةٍ خاشعةٍ.

وهنا، عمد أوروبيانغا إلى عبور النّهر بخطًى وئيدةٍ وناعمةٍ. كان يتزلّج على المياه الّتي أمست مرآةً تعكس بهاءه.

- أوروبيانغا، قانون الغاب!

- ما أروع إلهنا!.

وأوروبيانغا أعلمهم بذلك، لأنّه عدّل كتفيْه العريضتيْن السّمراوين، ونفخ صدره ذا العضلات البارزة حيث انعكست الشّمسُ.

توقّف على ضفّة النّهر، وحرّك ساقيه في مياهٍ دافئةٍ، نظر إلى كلّ شيءٍ بنظرةٍ واحدةٍ. ابتسم. ومن هذه الابتسامة انبعثت أقواس قزحٍ من البهجة. جلس ومطّ بكلّ تكاسلٍ رجليه الصّلبتيْن. ظلّ ينتظر

اقتراب الحيوانات. اقتربت نمور الثّلج أوّلًا للتّمسّح عليه. ثمّ استقبل بيدَيه السّحريّتين ذات الأصابع الألف كلَّ العصافير وكلَّ الحيوانات واحدًا تلو آخر.

تساءلت القضاعة العملاقة:

- هل جلبت لي دبّي الصّغير، أوروبيانغا؟

- لم أقدر على ذلك يا صغيرتي. للدبّ فروٌ كثيفٌ وهو غير ملائمٍ لهذه الأجواء.

وانفجر ضاحكًا وأضاف:

- عندما كنت مع الدّببة، كان ذلك منذ أشهرٍ عديدةٍ، هل تعرفين ما الّذي طلبوه منّي؟

وضحك مجدّدًا:

- طلبوا منّي ببّغاء. وقد أجبتهم: الجوّ باردٌ هنا. ستموت الببغاوات.

- لذلك لم تجلب معك شيئًا؟

- آه! عندي مفاجأةٌ!

سحب يديه من وراء ظهره، وعرض إناءً بلوريًّا مليئًا بالماء، وفي الماء يسبح زوجٌ من السّمك الأحمر لهما ذيلان طويلان.

علّق صوتٌ بإعجاب:

- أوه، يا لجمالهما!.

لكنّ البيرانا الضّارية عبّرت عن استيائها بقولها:

- لتطلق هذه الأعجوبة في النّهر. أعدك بأن ألتهمها.

- هل ستلتهمينها حقًّا.

- حسنًا، سترى ذلك بأمّ عينيْك، أوروبيانغا.

هكذا تصرّفت البيرانها الضّارية من دون أن تُخلّ بقانون الغاب. وراح أوروبيانغا، الّذي قدِم بقلبٍ مفعمٍ بالشّوق إلى أحبابه الحيوانات، يتلهّى باللّعبة:

- هيّا إذَن، بيرانا. أمسكي بهما إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

أعاد الإناء إلى النّهر. راحت السّمكتان الحمراوان تسبحان بلهفةٍ، مدفوعتَيْن بالخوف. وحاولت البيرانا الضّارية محاصرتهما، فسبحتا واحدةً مقابل الأخرى لتتعاونا.

كانت كلّ الحيوانات تشاهد ذلك، بمتعةٍ كبيرةٍ. هاجمت البيرانا الضّارية السّمكتين الصّغيرتين بقوّة ومع ذلك لم تتمكّن من مجرّد الاقتراب منهما، لأنّهما محميّتان بصدَفَةٍ لزجةٍ وزَلِقة. صحيحٌ أنّها طالت ذيليْهما الجميليْن لكنّ أسنانها ظلّت تنزلق في كلّ مرّةٍ أمام تلك الحصانة اللزجة.

اقتربت أسماك البيرانا، مرهقةً ولاهثةً، برؤوسها المحمرّة من التّعب، والخجل من أوروبيانغا.

قهقه أوروبيانغا إلى درجة الاختناق من عبثيّة الجهد الّذي قامت به الأسماك المتهوّرة وسألها مُستهزئًا:

- هل تمكّنت منهما؟

- هذه المرّة، لن نهتمّ...

ثمّ ردّدت وهي لا تكاد تقدر على التّنفّس، بقلوبها الخافقة:

- لم نمسك بهما هذه المرّة... لكنّنا سنجد إلى ذلك سبيلًا في المستقبل. سننتهي بأن نتمكّن منهما، أوروبيانغا، سترى.

- إلى أن يحين ذلك، أيّتها البيرانا الضّارية، ستكونان قد تمكّنتا من التّكاثر. وسيحدث الشيء نفسه: لن تمسكي بها...

تثاءب برخاوةٍ وتمطّى ببطءٍ، وإبّان تمطّيه حرّك في الجميع إعجابًا كبيرًا. ولم يلبث أن أعلن:

- أنا متعبٌ. لقد سافرتُ طويلًا. أحتاج إلى نومةٍ عميقة.

ثمّ نظر حوله ودعا ببّغاء أزرق جميلًا لمرافقته واستطرد مُنبّهًا الجميع:

- ها إنّكم تعلمون الآن أنّي أحتاجُ إلى النّوم قليلًا. لا تثيروا أيّ ضجّةٍ. سنجتمع خلال هذه اللّيلة، في المرج. إلى اللّقاء!

تسلّق إلى أعلى «نخلة البَابَاسُّو» وتمدّد بين عساليجها. ومكث الببّغاء الأزرق قربَ رأسه. حتّى إذا أظهر حيوانٌ متهوّرٌ نسيانَ أوامر أوروبيانغا، يطير إليه بجناحَين خفيفيْن ويذكّره بالتزام الصّمت المطلق.

لكنّ هذا لم يكن ضروريًّا لأنّ الحيوانات جميعها قد توجّهت إلى عمق أعماق الغابة لقضاء شؤونها.

داعب أوروبيانغا بعينيه نصف المغلقتين ريشات طائر المكّاو ذات الزّرقة القاتمة وسأله:

- ماذا إذَن؟

- الأمور لا تسير على ما يُرام أوروبيانغا...

- دعنا لا نذكر الأشياء الحزينة، خلال هذه اللّيلة البهيّة.

- لماذا لا تتكلّم بنفسك؟ هنا، نحن منقطعون عن كلّ شيءٍ. أنت الّذي طالما سافرت، وعرفت بلدان الثّلوج والجبال اللاّنهائيّة والبحار السّحيقة... لماذا لا تتحدّث عن كلّ ذلك؟ من أين قدمت اليوم، أوروبيانغا؟

- جئتُ من...

تمطّى مُتحسّسًا نسمة العَشِيّ وهي تحرّك نبتتيْ رجليه الإلهيّتيْن.

- جئتُ من الصّحاري الفسيحة وقد خلقتُ فيها واحةً جميلةً كي أخفّف من وطء عطش الحيوانات هناك.

- لكن، ألَن يجرؤ الإنسان على الشّرب من تلك المياه؟

- هذا مؤكّد. لكنّ الواحة تقع في مكانٍ قصيٍّ بعيدٍ عن القوافل، ما يعني أنّها ستقضي زمنًا طويلًا قبل أن تتمكّن من العثور عليها. المهمّ أنّي بعد أن صنعت الواحة تكفّلتُ بشؤون الثّعابين. وانتقلتُ لحضور مولد الأشبال الصّغيرة. ونصحتُ ما استطعتُ كلَّ الحيوانات الّتي توافدت للالتقاء بي. ثُمّ نمتُ بعد ذلك لياليَ عديدةً على رمال الصّحراء. أنت لا تعرف شيئًا عن البرد الّذي يعمّ تلك المواقع عندما يحلّ اللّيل.

- وهل توقد نارًا، عندما يحلّ اللّيل؟

- نعم، نفعل ذلك أنا وأخواي ساريتيانغا وآناتيانغا.

- لماذا لم يأتيا إلى هذه النّواحي ولو مرّةً؟

- لا وقت لديْهما. يعتني أحدهُما بغابات آسيا الفسيحة والآخر بشواطئ الجنوب. أمّا أنا، فأستطيع خلال الأشهر السّتّة الماطرة الحصولَ على عطلةٍ هنا».

ضحك الببّغاء الأزرقُ وقال ساخرًا:

- أنت ميّالٌ إلى الكسل، أوروبيانغا!

بعد أن ضحكا معًا مرّر أوروبيانغا يدًا ناعمةً على رأس الطّائر وحدّثه قائلًا:

- كم بدت لي الأهرام جميلةً... إنّها من تلك الأشياء الّتي تدلّ على أنّ الإنسان قادرٌ على الفعل الجميل عندما يريد ذلك. من الرّائع أيضًا رؤية الرّياح وهي تثير الرّمال لترتفع في اتّجاه شمسٍ ذهبيّةٍ، عندما تهبّ في امتداد الصّحراء الّذي يبدو بلا نهايةٍ».

تثاءب مرّةً أخرى. وصارت أحاديثه الآن متقطّعةً من فرط ثقل النّعاس:

- من الجميل... أن...

انزلقت ذراعاه على مدى جسده، وركّز نفسه في منخفضٍ بأعلى النّخلة.

نام أوروبيانغا.

في اللّيل، تجمّعت كلّ الحيوانات على امتداد المرج وقد بدت في غاية القلق.

كان أوروبيانغا يتوسّط الجميع، بجلوسه على مستعمرة نملٍ مهجورةٍ. وهو أيضًا غارقٌ في تفكيرٍ عميقٍ.

وكان القمر قد اقترب بنوره السّاطع لينصت إلى كلمات أوروبيانغا لعلّه يتعلّم منه بعض الحكمة.

واقترب التّمساح وراح يتكلّم باسم جميع الحيوانات:

- لا، يا أوروبيانغا، لا يمكن للأمور أن تتواصل على هذا الشّكل! إنّها تزداد سوءًا يومًا بعد يومٍ. في الماضي، كانوا يقتلون الكثير، لكنّهم صاروا الآن يقتلون أكثر فأكثر. ما الّذي اقترفناه في حقّهم؟ إنّنا لا نفعل شيئًا سوى تنظيف النّهر من الحيوانات الميّتة. لقد تمادوا حتّى إنّ صغار السّلاحف لم تنجُ من أياديهم. ولم يعد في وسع عجائزنا أن يتشمّسوا على الشّواطئ، فباتوا يقضون معظم أوقاتهم في التّذمّر من الرّوماتيزم وفي إطلاق أنينهم الأبديّ.

- هذا خطير، يا بُنيّ.

- ليس هذا أفظع ما في الأمر. إنّهم يدفعون للهنود من أجل القيام برحلات صيدٍ موسّعةٍ. يعلمُ الجميعُ أنّ الهنود أفضل من يحسن الصّيد على وجه الأرض. إنّهم قادرون على تقليد

أصواتنا، ما يجعلنا نظلّ برؤوسنا معتقدين أنّ حيوانًا منّا بصدد طلب النّجدة. وهذا كافٍ كي يموت أحدنا.

دعك أوروبيانغا لحيته الإلهيّة الجميلة. هو يعلم أنّ «البيضَ» يخدعون الهنود وأنّه لا يستطيع أمام ذلك شيئًا، لأنّ الهنود تملّصوا من سلطانه، مع أنّهم لم يُصابوا بعدُ بما أصيب به الإنسان الأبيض من شرٍّ. وهو يعلم أيضًا أنّهم يقضون أشهرًا طويلةً في الصّيد برًّا وبحرًا. يقومون بذلك من أجل تخفيف عَوَز حياتهم في القرى المعزولة. لكنّ هذا الجهد لا يصلح لشيءٍ. لأنّهم عندما يعودون من رحلاتهم تلك، وعندما يجلسون لاقتسام الصّيد، يحلّ البيض لينتزعوا منهم كلّ شيءٍ مقابل بعض المشروبات التّافهة وبعض الملاليم الّتي لا تُغني من جوعٍ، يشترون بها أمتارًا إضافيّة من الأقمشة الرّديئة... وهذا كلّ شيءٍ.

تكلّم التمساح مُجدّدًا لإجلاء الأمر أكثر:

- الأمر لا يتوقّفُ عند هذا الحدّ. ليست حياة التّماسيح الكبيرة فقط ما يستهدفون، إنّهم يدمّرون الغابة يا أوروبيانغا. حتّى القضاعة العملاقة باتت ملاحَقةً في كلّ الأركان، رغم أنّ الإنسان منع عن نفسه اصطيادها. كيف يمكن لهم أن يقتلوا أَيْلًا جميلًا اقتضى بلوغه الكمال، عشر سنوات بالتمام لاكتمال نموّ قرنيه فحسب! ثمّ إنّهم يخلّفون وراءهم أكوامًا من اللّحم أيّامًا وأيّامًا عرضةً للتّعفّن وقوتًا للنّسور.

هزّ أوروبيانغا رأسه الجميل وانحدرت من عينيه دمعةٌ ذهبيّةٌ بلغت عنقَه. والتمساح يسأل:

- أَلَا يمكنك فعل شيءٍ أمام كلّ ذلك، يا أوروبيانغا؟

- هذه هي البرازيل يا أبنائي. يومًا مّا، سيأتون على احتياطيّ الأشجار. يومًا مّا، سيقضون على كلّ الحيوانات وكلّ الطّيور.

إنّ أوروبيانغا عاجزٌ أمام الإنسان، لأنّ إلههم أكثر قدرةً منه.

- وما الّذي يمكن أن نفعله يا أوروبيانغا؟

- الهرب. لا سبيل إلى النّجاة غيره. عليكم أيضًا أن تتجنّبوا تلبية كلّ النّداءات من غير أن تتأكّدوا أولًا أنّه نداءٌ حقيقيٌّ. لدينا شيءٌ نقوم به. هذه السّنة، وعندما تحين الأمطار العُظمى، سأوجّه مياه النّهر إلى البحيرات الكبيرة. سترون كيف تتوجّه معظم الأسماك إلى هناك. حسنًا، عندما تنقضي الخمسة عشر يومًا الأولى من المطر الغزير، ستجفّ الممرّات وتجدون ما يطعمكم عامًا كاملًا. يمكن لكلّ الحيوانات أن تستقرّ على مقربة من البحيرات الكبيرة، بعيدًا عن أذى النّاس. سأجفّف الممرّ في أسرع وقتٍ ممكنٍ حتّى لا تتمكّن القوارب من الوصول إلى مواقعكم، وهكذا ستكونون بعيدين ما يكفي لتُحبطوا سعي الإنسان وتتجنّبوا قبضته.

أجاب التّمساحُ:

- كلّ هذا جيّدٌ جدًّا، لكنّ الهنود سيكتشفوننا على الفور. فالمسافة لا تساوي عندهم شيئًا مهما تكُن طويلةً.

- سأوجّه المياه كلّ سنةٍ إلى بحيرةٍ مختلفةٍ. وأنبّهكم إلى ذلك،

وهكذا نراوغهم قليلًا ونعيش، وأن نعيش هو ما يمكن أن نفعل.

- بهذه الطّريقة، ممكن...

- ثمّة أمرٌ آخر. على كلّ طيور أبي منجل، وكلّ اللّقالق، وكلّ العصافير الأخرى أن تبنيَ أعشاشها قرب البحيرات. عليها أيضًا أن تنام في الأشجار الكبيرة في عمق الغابة. وأن تكفّ عن النّوم قرب ضفاف النّهر. أنتم تعلمون أنّ الهنود أصبحوا يمتلكون مصابيح كهربائيّةً وأنّهم يأتون خلسةً إلى حدود الشّواطئ ليبهروكم بالأضواء السّاطعة، وبذلك يتمكّنون منكم. ويصبح الأمر هكذا: في قديم الزّمان كان هناك لَقْلَقٌ... إلخ. هل فهمتم؟

أومأت كلّ الحيوانات موافقةً بإشارةٍ من رؤوسها.

- المسافة والهرب هو ما تبقّى لكم للنّجاة. أصغوا إليّ جيّدًا يا أبنائي، إنّ الهرب في هذه الحال ليس صنوًا للخوف. والأَوْلى في ظرفنا هذا أن نعدّه محافظةً على حيواتنا.

- وماذا عنّي، أوروبيانغا؟

التفت أوروبيانغا ناحية سلحفاةٍ بعينيْن متوسّلتيْن. فتنهّد عميقًا بينما سألت مرّة أخرى:

- إذا لم أكن على الشّاطئ، فأين سأضع بيضي؟

بدا أوروبيانغا متأثّرًا جدًّا، انحنى وأخذ الكائن الصّغير بين ذراعيه:

- أنت، إنّ ظروفك صعبةً حقًّا... في غياب الشواطئ لا يمكنك الوجود أصلًا.

- يا لمصيرنا نحن السّلاحف، أوروبيانغا! كلّ ما يخصّنا مرتّبٌ بشكلٍ سيّء. أَلَا يكفي أنّنا نتحمّل وضع مائةٍ بيضة وردمها... إذ نشارف على فقدان النّفس جرّاء الرّمل المتراكم، ويكاد يُعمي عيوننا... كلّ شيءٍ شاقٌّ في حياتنا. يفقس الصّغار وهوب! يهبّ الجميع. وحتّى إن لم يأتِ الهنود للحصول على بيضنا، فإنّ الحيوانات تأتي لتزدرد صغارنا، المساكين الّتي تتحسّس هدوء النّهر... تحت أنظار نمور الثّلج المُحيّنة الفرصة للهجوم، وتحت حَوَمَانِ الصّقر الّذي يرسم دوائر بجناحيه في الفضاء... وإذا ما وصل الصّغار إلى النّهر فإنّ البيرانا الضّارية تستقبلها في شكل عصاباتٍ... هل تُسمّي هذه حياةً يا أوروبيانغا؟.

مرّر أوروبيانغا وجهه على رأسها الضّئيل وضحك:

- إنّه قانون الغاب، يا ابنتي. لكنّي أفكّر في طريقةٍ مّا. افعلي الآتي: عندما يأتي موسم فقس البيض، ابحثي عن الشّواطئ الأقرب من الغابة. والتجئي إلى المرتفعات، لمَ لا...؟

- نعم. لكن سيكون الحفر صعبًا جدًّا هناك. وستكون المسافة الّتي تفصلنا عن النّهر طويلةً جدًّا أيضًا.

- أعلمُ يا ابنتي، لكن عليك أن تتحلّي ببعض الصّبر. بهذه الطّريقة ستتمتّعين بأمنٍ كافٍ. أمّا في خصوص الإشكال

الثّاني الخاصّ بأسماك البيرانا الضّارية، فعليك أن تبقَي قرب النّهر منذ يفقس بيضك. وهكذا ستتمكّنين من دفع الصّغار إلى الغطس في النّهر على الفور لتلوذ بالطّميِ، في الأعماق المعكّرة، حتّى تتصلّب قشرتها الهشّة وتصبح قادرةً على الصّمود أمام عضّات البيرانا.

قطع القمر مساره ليعلن حلول منتصف اللّيل.

- الآن، اذهبوا إلى النّوم. لقد تأخّر الوقت.

تحرّكت الحيوانات.

- لكن لا تنسوْا: بالهرب فحسب ستتمكّنون من الصّمود.

بدأ التّدافع مهولًا عبر الغابة. والجميع يبحثون عن ملاجئهم الآمنة، من حفرٍ وأعشاشٍ.

ظلّ أوروبيانغا ساكنًا يتأمّل كائناته. كان حزينًا ومحبطًا أيضًا من قدراته غير الكافية.

ظلّ كلاهما على عين المكان: هو والقمر. فنظر إليه وابتسم.

غادر تلّ النّمل وتوجّه إلى عمق الغابة. تشابكت النّباتات المتسلّقة لتكوّن فيما بينها سريرًا معلّقًا معطّرًا. تمّدد عليه وراح يتأرجح، مهدهدًا حزنَه العميق.

في الفجر، وقبل حتّى أن تستيقظ الحيوانات نادى غيومه لتتحوّل إلى دوابّ طائرةٍ. وطار من غير ضجّةٍ.

طار في مستوى منخفضٍ فوق الشّطآن. وابتسم. ابتسم لأنّ

الشّطآن تعجّ باللّقالق وطيور البلشون البيضاء وأبي منجل، كان مطويَّ الرجليْن، نائمًا، متسمتعًا بآخر اللّحظات اللّيليّة.

ابتسم محاولًا أن يتفهّم ويغفر للحيوانات. لا شكّ في أنّها لم تتمكّن خلال تلك اللّيلة من الذهاب أبعد، لأنّها لم تجد الوقت كي تطير إلى ملاجئها الأكثر أمنًا.

وجد أنّ الغابة في غاية الرّوعة صباحًا. لكنّ الرّيح الّتي تسبّبت فيها دوابّ أوروبيانغا أسقطت زهور الرّبيع من أغصانها، فانتشرت على أرضيّة الشّاطئ. بدت الرّيح وكأنّها تمرّ لتخلّف في المكان مداعبةً حنونًا في طريقها إلى الاختفاء.

سقطت ورقةٌ على جسد زي أوروكو. رفع عينيْه ورأى في ما يشبه المفاجأة أنّه أضاع الرّبيع مرّةً أخرى. تصلّبت نظراته وهي ترتطم بطوب الحيطان الّتي عادت إلى هيئتها الأولى، قبيحةً، بلا لونٍ، ومتّسخةً.

أمامه، انتصبت هامتان لطبيبٍ وممرّضٍ. كان يسمع ما يقولان:

«إنّه يغرق في أزمةٍ أخرى. لا بدّ أن يُنقَل من هنا قبل تأخّر الوقت».

أومأ زي أوروكو برأسه. لقد فقد ملكة الكلام نهائيًّا، لا فائدة من النطق، والقول إنّه لا يفعل شيئًا سيّئًا وإنّه لا يشعر بشيءٍ على الإطلاق.

تقدّم نحوهما، وفي صدره تعتمل ثورةٌ وبقلبه يسكن ألمٌ عميقٌ. سوف يخرّبونه مرّةً أخرى بتلك الحقن الّتي تصيبه على الفور

برجرجةٍ في الرّأس، وهو ما يجعل جسدَه يرتعد ويجعلُ الموتَ يتقدّم في خلاياه شيئًا فشيئًا.

(10)
أُغنية ماريا أنطونيا

في تلك اللّيالي الّتي تبدو لا نهائيّة، عادةً ما كانَ يَسمعُ صرخاتٍ وأنّاتٍ قادمةً من النّاحية الأُخرى. وكان يعلمُ أنّ جناحَ النساء يقعُ في تلك النّاحية، وأنّ بعض الرّجال يُحاولون أحيانًا تَسَوُّرَ الحائط الفاصل بين الجناحيْن ليَقتحموا الأروقة ويَغتصبوا النساء المُقيمات هناك. إنّ «الآخرين» مجانين بحقٍّ، مجانين حين يتمشّون ولا يقولون شيئًا وحين يقومون بأفعالٍ في غاية الحُمق، ولكنّهم، عندما تُسيطر عليهم الرّغبة، يصبحون قادرين على تحديد مكان النساء دُون صُعوباتٍ تُذكر. يُقال إنّ النّساء يلبسنَ هنّ أيضًا الأزياءَ الخشنة نفسها، يُعانين من نقص النّظافة نفسه، ويمشين ضاحكاتٍ طوال الوقتِ بأقدامٍ حافيةٍ وشُعورٍ شعثاء تقريبًا. طبعًا، كلّ هذا دُون ذكر القذارة والرّائحة النّتنة المُتصاعدة منهنّ، هذا لأنّ جسد المرأة نتنٌ منذ الولادة، لكن، رغم ذلك، وبما أنّ الرّجال لا يَملكون منفذًا آخر فإنّهم لا يَتوانون عن مُحاولة الإفلات من رقابة الحرّاس من أجل إشباع رغباتهم الجامحة، وقد تسبّب هذا التسلّل المُقترف تحت جنح الظّلام في بعض الولادَات.

كان نائمًا في غُرفة التّمريض حيثُ تتقارب الأسرّة إلى درجة

التّماسّ، وكان يعلمُ أنّ رجالًا آخرين ينامون على الأرض مُباشرةً فوق حشايا من القشّ تَنبعث منها رائحة البول، وعلى أكياسٍ أخرى متنوّعةٍ وحتّى على جرائد، وهذا أمرٌ بلا قيمةٍ كبيرة لأنّ «الآخرين» مجانين بالفعل.

في المصحّة رجلٌ شديد النّحافة بلحيةٍ كثيفةٍ وعينيْن لا تكفّان عن الوَميض إلى حدٍّ جعل البقيّة يُؤَلّفون قصصًا عن قُدراتهما الشّيطانيّة الخارقة، كان يبتسم دومًا عندما يكون في السّاحة، ولا يكفّ عن مُراقبة الآخرين وهم بصدد حكّ أجسادهم بسبب لدغات البقّ. ذات يومٍ سأله الرّجل ضحيّة العدل الإلهيّ:

- ألَا تشعر بشيءٍ؟

ولكنّ النّحيل اكتفى بالابتسام.

- من المُستحيل ألّا تُعاني من وخز البقّ ليلًا!

- أشعر بذلك، لكنّي أرى البقّ من الأشياء المُقزّزة، لذا أتخيّلها مُجرّد قملٍ، وهكذا أتمكّن من النّوم.

في ظلمة اللّيل يكونُ الرّجال نائمين، إنّهم يئِنُّون أو يضحكون أو يحلمون بينما يتغذّى البقّ على لحم أجسادهم. وفي هذا الوقت الّذي يخترق فيه الضّوءُ النّوافذ المُحاطة بالأسلاك من حينٍ إلى آخر، يتمكّنُ زي أوروكو من تبيّن أشجار المانجو الميّتة.

متَى سينقله الدّكتور من هُنا؟

لقد مرّ وقتٌ طويل على آخر زيارةٍ تلقّاها من الطّبيب، لذَا لجأَ إلى الأخصّائيّة الاجتماعيّة الشّابة ليُحدّثها عن عَذاباته في تلك

اللّيالي. طمأنتهُ تلك الشابّة وأخبرته بأنّه في حالِ تحسَّن، أي عندما «تصبحُ الشّجرة مجُرّدَ شجرةٍ»، سيتمُّ نقلهُ إلى أحد المُستشفيات الأخرى، وبالفعل، هو بصدد التّحسّن، لكنّه لم يعد يتحمّل أكثر، إنّه لا يكفّ عن الشّعور بدنوّ الموت منه، ولاسيّما حين يُلاحظ ارتفاعَ مُعدّل الشّحوم بعَضلاته وتأثير ذلك على حَركتِه. لقد صارت يداهُ مُتوتّرتيْن. يداه اللّتان يُريد تدمير نفسه بهما، فهُو يُقضّي ساعاتٍ وساعاتٍ مُفكّرًا في قتل نفسه، لا شيء يحصل في حياة هذا الحيوان التّعيس، إنّه يعيشُ وسط أناسٍ مُتألّمين وعَالقين في ذكرياتهم كسُجناء، لذا توصّل في أحد الأيّام إلى اكتشاف طريقة للتّخلّص من هذه الحياة القذرة.

اتّجه صوبَ حشِيّتِه المُبلّلة بالعَرق والموجودة في عُمق غُرفة التّمريض (حيثُ يستطيع مُتابعة كلّ الحركات بعَينيْن مُغمضتيْن)، فلَاحظ أنّ أحدهم قد سَعل، بينمَا وقف آخر ليتبوّل بصَوتٍ مَسموع في سطلٍ مُمتلئٍ دومًا لا يتمّ إفراغه مُطلقًا، بل يَتكفّلُ مُمرّض كُلّ أسبوعٍ بإفراغ عُلبةٍ من مادّة الكريوزوت المُعقّمة دَاخله. ولم يمضِ وقت حتّى انتشرت الرّائحة الكريهة في المكان كُلّه. لكنّ الجميع مُتعوّدون عليها.

كان يرغبُ في معرفة الوقتِ بدقّةٍ -ولا يفهم لماذا- وكانت اللّيلة شَديدة السَّواد ومُختلفةً عن كلّ ليالي حياته، كانت ليلةً من تلك اللّيالي الّتي لا تظهر فيها ولو نجمةٌ واحدةٌ لتُوجّه رحلته أو تُطلعه على الوقت، ولكن لماذا كان يُريد معرفة الوقت؟ رُبّما ليَقيس ويُمدّد ويُضاعف انحداره الحثيث نحو الهلاك.

أحسّ برُكن الحشيّة الّذي اتّكأ عليه ساخنًا جدًّا، فابتعد قليلًا. حينئذٍ وَضع الشّخصُ النّائم بجوارهِ رُكبته عليه، فدفعَه بساقه بعيدًا في بُطءٍ أراد من خلاله ألَّا يُوقظه، أحيانًا يفعلُ أحدهم هذا الأمر بنيّةٍ سيّئةٍ، وهُو ما يحدثُ كثيرًا في الأماكن الخالية من النّساء، إذ كثيرًا ما يتمّ ضبط مثل هذه الحالات في هذا المكان، وكثيرًا ما يختبئ الرّجال تحت أشجار المانجو ليُفرغوا وحشيّتهم، ولكن من حُسن حظّهِ أنّ جَاره كان نائمًا ولا يشعر بشيءٍ مُطلقًا.

راح يشمُّ الهواءَ الثّقيلَ والوبائيَّ المُنتشرَ بالقاعة الكبيرة. كان يرغب في النّوم بشدّةٍ، لكنّ الأرق، ذاك الجلف، لا يُفكّر الطّريقة نفسها، ولا شكّ في أنّ مُعاناته من نقص الهَواء ستبدأُ ما إن يُلاحظ قفزَ شيءٍ مّا هُنا أو هُناك.

في هذه اللّحظة تصاعد من النّاحية الأخرى صوتُ امرأةٍ تغنّي، فأصغى إليهَا في صمتٍ بعد أن تمكّن من تبيّن اللّحن. لم يُحاول سدّ أُذُنَيه مثلمَا يفعل الجميع في الأراغوايا، فعلى الأقلّ لن يُثير الأمر جُنونه هُنا، بل لا شيءَ هُنا يُمكنه أن يَكون أكثر منه جُنونًا.

ابتسمَ زي أوروكو للفراغ أثناء إنصاتِه للأُغنية.

للقمر أربع دوراتٍ

أربع دوراتٍ باكيةٍ

بلا أملٍ، بلا شفقةٍ

بالبرد، بالحُزن مُثْقلة.

أحسّ بامتنانٍ للمرأة الّتي أنشدت الأُغنية. بإمكانِه الآن أن يعيش ألف سنةٍ أُخرى. لن ينسى مُطلقًا هذه الكلمات.

يعرفُ الجميع هذه الأغنية وقصّتَها، من حاجز بيدرا إلى ليوبولدينا، ومن سان بيدرو إلى ريو كوكو، لكنّهم يُواصلون التحدّث عنها غير آبهين. قَد يجد كُلّ من يسخر [من هذه الأغنية] زَورقه مقلوبًا من غير أن تفعل الرياح ذلك. ولقد غَرقت بالفعل سفنٌ كثيرةٌ دُون وجود تَفسيرٍ معقولٍ، وكثيرًا ما وَجد النّاس ثُقوبًا في مُقدّمات القَوارب تَسبّبتْ فيها جُذوع أشجارٍ في أماكن لا أشجَار فيها. إنّهم يَذهبون لُمشاهدة الأمر بأعينهم، ورغم ذلك يُوجد دومًا مَن يَسخر من أُغنية «ماريا أنطونيا».

علا إنشاد الأغنية بعيدًا، غير أنّ الكلمات كَبرت في صدره.

أعاد تشكيل المشهد [في مُخيّلته]. كان النَّهر أعلى بقَليلٍ هذه المرّة، إذْ اتّخذ الأراغوايا أبعادًا مهولةً، وهُو ما يدفع المرء عادةً إلى البحث المُستمرّ عن ممرٍّ مُلائمٍ للمِلاحة، فعُمق النّهر يُغيّر موقعه فجأةً، مائلًا أحيانًا ناحية الأحجار الرّمليّة العِملاقة ومُتدفّقًا في أحيانٍ أخرى نحو المُنتصف، الأمرُ الّذي يُسبّب بعض الأذى للعَينين الباحِثتين عنه تحت أشعّة الشّمس السّاطعة المُنعكسة على سطح الماء. يعتقد كثيرون، ولاسيّما في مرّتهم الأولى، أنّ التنقّل بالأراغوايا أمرٌ في غاية البساطة، آه، نعم! لكن، بعد موسم الأمطار الغزيرة وانخفاض مُستوى المياه، يكتشفون أنّ عُمق النّهر لا يلزم الموضع الّذي كان به في السّنة الماضية، حتّى إنّ الشّواطئ لا تبدو ميّالةً إلى الاحتفاظ

المكان نفسه، وهو ما يجعل شاطئًا فسيحًا وجميلًا يبزغ أمامك، أحيانًا، في المكان الّذي لم تتخيّل يومًا أن يتحوّل إلى شاطئ.

في السّابق تمكّن زي أوروكو من استعارة قاربٍ للذّهاب إلى «مونتاريا دو بيدرينهو بينهيرو». كان برفقةِ هنديّ من الكاراجا يُدعى «سيرواي لارّوري»، أصيل قرية اسمها «كوي- بيرو». يُطلق البِيضُ على هذه القرية اسم «غريسوستي»، وتُعدّ هذه التّسمية تحريفًا لكَلمة «كريسوستومو». كانا معًا بمكانٍ أقلّ انخفاضًا من سان بيدرو وبقيَ أمامهم ثلاثة أميال أو أكثر قبل أن يبلغوا «بيلّا فيستا»[1]، والحقّ أنّ زي أوروكو قد وجد الهنديّ لارّوري بصدد البحث عن طريقة للوصول إلى «بيِّداد»[2]، لكنّ النّهر كان عبارة عن صحراء خاليةٍ، لا شيء يعبره، لا سُفن بخاريّةً ولا قوارب، طبعًا قَبل أن يصل هُو بقاربه المُستعار.

توقّف ليتحدّثَ مع الصّديق الهنديّ، فبدا لهُ شخصًا أخرقَ بقامته الطّويلة، وفمه الخالي من الأسنان في جِهته الأماميّة والمُتضمّن فقطْ لنابيْن كبيريْن بشكلٍ مُثير للضّحك. كان الهنديّ يتحدّث على نحوٍ أبرز ارتباكه وانشغاله، فأحسّ زي أوروكو بإخفائه شيئًا مّا، لذا سألهُ:

- ما الّذي حدث حتّى تكون هُنا يا ولد، في هذا المكان البعيد عن قريتك؟

(1) بيلا فيستا Bella Vista، مدينةٌ صغيرةٌ تنتمي إلى ولاية «ماتو غروسو دو سول» (الغابة الجنوبيّة الكثيفة).

(2) بيّداد Piedade، حيٌّ من الأحياء الكبيرة يتبع ولاية ساو باولو.

- هل تعلم يا زي أوروكو... في الحقيقة، الحقيقة... ما كان عليّ أن أكون هُنا...

كان يمزج البرتغاليّة بكلماتٍ من الكاراجا:

- تُريدني أمّي أن أسافر، لكن... أنتَ أعلمُ بحقيقة الوضع. لم أكن أملك نباتات «التاكاري» ولا القصب لأتمكّن من صُنع سهامٍ أصطاد بها. وذات يومٍ وجدت منفذًا إلى سفينة أنطونيو بيريرا، فتمسّكت بالسّياج حتّى وصلت إلى ليوبولدينا، ثُمّ تسلّقت المُرتفع طيلة يومٍ لأصل في الأخير إلى «بحيرة النّمر»، وها قد تمكّنتُ من قطعِ كميّاتٍ من نباتات «التّاكاري»، جلبتُ معي الكثير منها، انظر، يُوجد ما يكفي لأخي ولابن عمّي أيضًا.

- أنا لا أفهمكم أيّها الشّياطين الكاراجا، ما الّذي تفعلونه بكلّ هذا القصب؟

- إنّنا نجمعه من أجل السّيّاح الرّاغبين في شراء نبالٍ وسهامٍ عليها نقوشٌ، يُمكنك أن تبيعَ أيّ واحدةٍ منها بلمح البصر وبغضّ النّظر عن الشّكل أو النُّقوش الّتي تحتويها.

- كم مرّ من يومٍ على ضياعك هُنا في «بيبداد»؟

- لم أكن هُنا مُطلقًا، كنتُ على بعد ثلاثة أميالٍ في مُرتفعات «ساو جوزيه»، لكنّ أعمالي تسيرُ عكسَ ما أشتهي... إنّهم يُريدون تزويجي...

- من بيضاء؟

- تقصد من سائحةٍ؟ لا، يرغبون في تزويجي من فتاةٍ من الكاراجا.

- احْكِ.

- أنت تعلمُ يا زي أوروكو أنّ الكاراجا عندما يزورون عائلةً في قريةٍ أخرى لا يقومون بذلك نهارًا، ولا يمرّون من أمام واجهات المنازل... حسنًا، لقد ذهبتُ ليلًا لزيارة أقاربي، فتعرّفت هناك على امرأةٍ تُدعى «نوريريا»، وحدث بيننا ما يُسمّى الإعجابَ. فرحَ الأقارب بذلك، حتّى إنّهم ألزموني بالزّواج في أقرب وقتٍ مُمكنٍ، لكنّي فكّرتُ: «وماذا لو لم تُعجب أمّي؟...»، ثمّ إنّها لا تُريد أن تنتقل للعيش في «كوي- بيرو»، لا تُريد تركَ أبويْها، وَهكذا بدا لي أنّ الأمر لن يسير على نحوٍ مُلائمٍ... فكّرتُ مليًّا، ثُمّ قرّرت التّراجع عن الزّواج والفرار بجلدي، فغادرتُ خلسةً. وها قد انتظرت عُبور أيّ شيءٍ في «بيبداد» حتّى جئتَ أنت.

- هيّا بنَا، القاربُ في خدمتنا!

- هل هي «روزينهاك»؟

- لا.

تفحّص الهنديُّ القاربَ مليًّا.

- يبدو جيّدًا.

- نعم، إنّه جيّدٌ وخفيفٌ، لا تصمد أمامه مسافةٌ مهمَا يكن طولها.

انتظر زي أوروكو حتّى يفرغ الهنديّ من تركيز خردواته وسطَ القارب، ثُمّ سأله:

- كيف تبدو خطيبتك؟

صمت سيرواي لارّوري بُرهةً، ثُمّ أجاب بانزعاجٍ واضحٍ:

- لا أعرفُ.

- كيف لا تعرف؟

انفجر زي أوروكو ضاحكًا، ثُمّ أردف:

- لكن هل هي جميلةٌ، بدينةٌ، نحيلةٌ، شابّةٌ، عجوزٌ؟...

ظلّ سيرواي مذهولًا، وبدَا مُرتبكًا وهُو يضعُ حقيبته في القارب:

- لا أعرف، إنّنا لا نلتقي إلاّ ليلًا، لا نلتقي إلّا في الظّلام الكثيف.

شعر زي أوروكو بالأسى. من المُؤكّد أنّ الصّبيّ كان ضحيّة فخٍّ نصبته عجوزٌ هنديّةٌ أرادت استغلاله، فالجميع على درايةٍ بأنّ الكاراجا المُقيمين في المنخفضات أناسٌ في غاية السّذاجة ولا يكادون يعرفون شيئًا عن هذه الحياة. لم يلحّ عليه أكثر، لكنّه سخر في سرّه من جديّته السّاذجة.

بعد ذلك حان الوقت لاستجواب زي أوروكو، إذ لاحظ الهنديّ أنّه يحمل معه آلة تصويرٍ فسأله:

- ما هذه؟

- إنّها آلة تصويرٍ، آلةٌ لالتقاط صُور الوجه مثل تلك الّتي نراها في المجلّات، هل سبق لك أن رأيت شيئًا من هذا القبيل؟

- نعم.

- إنّها ليست لي، في ليوبولدينا التقيتُ بسائحٍ، فطلب منّي أن ألتقط له صُورًا لَمناظر جميلةٍ. لقد وَعدني بأن يدفع لي مبلغًا نسيت مقداره إذا كانت الصُّور جميلةً.

- وهل تحسن التقاط الصّور؟

- لا، لكنّ الرّجل أعدّ الآلة، وأوضح لي أنّه ليس عليَّ سوى أن أضغط على هذا الزرّ الصّغير، بمُجرّد قيامي بذلك سأسمعُ «كليك!»، ثُمّ أُدير الفِيلْمَ وأرفع هذا المقبض، وهكذا يكون باستطاعتي أن أُعيد الكرّة من جديدٍ.

سكت الهنديّ قليلًا، ثُمّ سأل:

- وهكذا تكون الصّور الّتي نلتقطها مثل السّمك الّذي يعلق بالصّنّارة؟

لم يجد زي أوروكو التّشبيه في محلّه ولكنّه أجاب بـ«نعم»، ففي النّهاية لِمَ يتوجّب عليه مُناقشة الهنديّ وهُو لا يعرف كيفَ تُبنى الأشياء في ذهنه؟

- لم تعد تعمل، لقد علق الزرّ، لا «كليك» بعد الآن.

- هل انسدّت؟

- نعم.

لم يكن الهنديّ مُقتنعًا تمامًا، بدا واضحًا أنّ الأمر يُثير فُضوله بشدّةٍ، لذا عاد يسأل زي أوروكو:

- لماذا يُريد الرّجل صورًا للنّهر؟ ألا يُمكنه أن يَزور المَكان بنفسه؟

- إنّه يقطنُ بعيدًا جدًّا ولا يُمكنه أن يبتعد هكذا بكُلّ بساطةٍ، أناس المُدن لا يملكون الوقت لذلك، إنّهم يُحدّدون موعدًا لكُلّ ما يقومون به.

- يُمكنهم إيجاد الوقت إذا أرادوا شيئًا مّا بحقٍّ...

- قال لي إنّه سيبيع الصّور لإعداد بطاقات نويل إذا كانت جيّدةً، لكنّي لا أصدّق ذلك كثيرًا. لقد طلب منّي أن ألتقط صُورًا للهُنود والهنديّات وهُم عراةٌ، ولهذا الأمر عليه أن يبحث عن شخصٍ آخر، لن أفعل ذلك... هل فهمت؟

وقف سيرواي بجسده الهائل، وقال:

- فهمت يا زي أوروكو، نَلْ قسطًا من الرّاحة الآن، لنتبادل المكانَين. اجلس بالمقدّمة ومرّر لي المجذاف.

ثُمّ انفجر ضاحكًا بفرحٍ انفلَتَ من بين نابيه العملاقين، وضرب على صدره قائلًا:

- سترى كم أنا بارعٌ في التّجذيف!

راح يُجذّف بكلّ قُوّته جاعلًا القارب يتقدّم بِلا هوادة، وسببُ ذلك أنّه كان على عجلةٍ من أمره، فهو مُتشوّقٌ إلى رُؤية أمّه وأبيه

وأبناء إخوته، لذا قرّر ألّا يتوقّف إلّا عندما يحلّ الظّلام بكلّ ثِقله ويصير الشّاطئ خاليًا من بعوض بداية اللّيل. كان يُجذّف تحت أشعّة شمس السّاعة الثّانية، كانت الأشعّة بمثابةِ نارٍ مُتوهّجة، ولم يرسل «كانانسوي» إله كلّ شيء ولو غيمةً واحدةً ليُخفّفَ من سكاكين الشّمس الّتي انهالت على وَجْهيهما مُباشرةً.

للقمر أربع دوراتٍ

أربع دوراتٍ باكيةٍ.

بلا أملٍ، بلا شفقةٍ

بالبرد، بالحُزن مُثْقلة.

اخترقَ صوتٌ أجشّ هواء النّهر السّاكن والحارّ.

- الصّوت قادمٌ من هُناك.

أشار سيرواي إلى الضفّة بشيءٍ من الخوف.

ثُمّ انقطع الصّوتُ، وبدلًا من الغِناء تعالت صرخاتٌ طلبًا للنّجدة.

- لنطّلع على الأمر!

- لا ينبغي فعل ذلك، يا زي أوروكو. هناك سحر مّا، لا شكّ في أنّها المجنونة ماريا أنطونيا! لا ينبغي أن نذهب، فما إن نراها سنُصبح مَلبوسين.

- إنّها مُجرّد حماقاتٍ، يا سيرواي، إنَّ المسكينة تطلبُ النّجدة لا أكثر، استمع جيّدًا، كيف ستتمكّن عجوزٌ مسكينةٌ من

دفع النّاس إلى الجُنون بتَرديد أغنيةٍ؟ إنّها أُغنيةٌ جميلةٌ في نهاية الأمر، أليس كذلك؟ هيَّا بنا.

غيّر سيرواي جهة المجذاف مُكرَهًا، وراح يتقدّم ببطءٍ هذه المرّة. لم يرَ جدوى في أن يقول لصديقه إنّهما مُقدمان على أمرٍ سيّء جدًّا، فبعض البيض لا يُؤمنون بالسّحر، بعضهم فقط، لأنّ أغلب النّاس الّذين يتحرّكون في هذه المنطقة يُخيِّرون رُؤية الشّيطان ذاته على الإنصات إلى أغنية ماريا أنطونيا.

حين اقتربَا لاحظَا تصاعد دخانٍ ضئيلٍ في شكلٍ مُستقيمٍ بسبب انعدام الهواء، كان هُناك تلٌّ رمليٌّ رخوٌ من طينةِ تلك التّلال الّتي يجرفها النّهر كلّما تساقطت الأمطار بغزارةٍ، إنّه عبارة عن تلٍّ زلقٍ وهشٍّ، ولا يمكن أن يعمد إلى اختيار مثل هذا المكان للتوقّف سوى شخصٍ مُختلٍّ عقليًّا.

اقترب القارب من التلّ أكثر، فأطلّت سيّدةٌ عجوزٌ من بين الأعشاب الجافّة والكثيفة.

لم يرغب سيرواي في النّظر إليها مُباشرةً، لكنّه كان مُنبهرًا بتمكّنه من رُؤية العَجوز لأوّل مرّةٍ في حياته. ها قد آن الأوان كي تسوء الأمور... سيكون عليه أن يجذّف بحذرٍ شديدٍ، حان دَوره الآن ليرى العجوز ويستمع لأغنيتها، لقد كان مُجبرًا على التقدّم منها والحالُ أنّه يُؤمن أنّ أفضل ما عليه فعله هو الهرب بأقصى سُرعته، مُجذّفًا باتّجاه قرية «سانتا إيزابيل» حيث يُمكنه الحصول على قاربٍ جيّدٍ من أحد أقاربه، ومن ثَمَّ يبتعد في اتّجاه «كوي- بيرو»، قَريتهِ

الخالية من التّعاويذ الشّريرة والأقدار اللّعينة. شعر بخوفٍ شديدٍ، وأقسم في سرّه ألّا يبتعد عن قريته مُجدّدًا، ولو مِترين فقط.

نظر زي أوروكو إلى العجوز مُبتسمًا:

- ماذا حدث لك، دونا؟

لم تجب العجوز على الفور. إمّا أنّها لم تفهم ما قاله لها مثلما ينبغي، أو أنّها تُحاول بكلّ جهدها وبعَينيْها شبه المُغمضتيْن أن تكتشف حقيقة ما حدث لها. اكتفت في البداية بحكّ وركها الّذي تدلّت فوقه تنّورةٌ قذرةٌ ولزجةٌ من فرط الأوساخ العالقة بها، وقد كانت ترتدي خرقةً أخرى أكثر اتّساخًا تستعملها كبلوزة، كان شعرها لاصقًا ومتشابكًا يطلّ من تحت قطعة قماشٍ عشوائيّة تُغطّي رأسها، وتتدلّى على جانبيْ وَجهها المُغطّى بتجاعيد الشّيخوخة الّتي أضفتْ عليها القذارة انكماشًا غريبًا.

- ما اسمك، دونا؟

لم يحظَ زي أوروكو بجوابٍ. لَاحظ تدلّي صليبٍ بحجمٍ مُذهلٍ على صدرها الّذي لم يكن له شكلٌ واضحٌ، بالإضافة إلى قلائد أخرى قذرةٍ جدًّا ومنظومةٍ من خرزاتٍ مُتنوّعةٍ. عندئذٍ سَحبت العجوز سكينًّا كبيرًا -ممًّا قد يُسمّى خصرهَا- وإثر حركتها هذه شارفت على الوُقوع إلى أسفل الكومة الرّمليّة، فترَكت نفسهَا تنزلق على مؤخّرتها فوق العُشب، ثمّ ألقت بنفسها إلى أسفل.

كانت الرّائحة الكريهة الّتي تتصاعد من جسدها شبيهةً برائحة قفص ببّغاء، وقد بلغت أشدّها ووَصلت إلى مُقدّمة القارب، لكن

لم يبدُ أنّ زي أوروكو قد انزعجَ كثيرًا، إذ ظلّ يُحاول فهمَ ما حدَث لها:

- تكلّمي، دونا. قولي لنا لماذا كُنت تطلبين النّجدة؟

فتحت فمها الرّخو فبرزت لَثّتُه السّوداء. أجابت أخيرًا:

- كنتُ بقاربي، يا ولد، لكنّ القارب حادَ عن الطّريق فوجدتُني هُنا. حدث هذا منذ أكثر من ثلاثة أيّامٍ، مازلت قادرةً على الصّراخ، ولكن لم يتكرّم أحدٌ بالقدوم إليّ، إنّك أوّل شخصٍ يستجيب لصرخاتي.

ظلّ زي أوروكو يُفكّر، فقد بدا له من الغريب أن تتمكّن هذه العجوز الشّيطانيّة من التجذيف بمفردها، فضلًا عن أنّ الزورق لم يكن صغيرًا، إنّه قاربٌ كبيرٌ!...

- وأين تتّجهين، دونا؟

- إلى ساو بيدرو. لقد غادرت الأربعاء الفارط حاجز بيدرا، طردوني يا ولد، ولكنّهم لن ينجوا. يعاقب الله كلّ من يسيء إلى العجائز مثلي. أنا مُتجّهةٌ إلى ساو بيدرو لأنّهم طَردوني!

لم تكن هذه العجوز تُجسّد عنده أيّ شيءٍ غير البُؤس المحض، فحتّى الموت لا يرغب في أن يكون برفقة ماريا أنطونيا. أشفق عليها، فسألها:

- هل أكلتِ؟

- لا شيء على الإطلاق، هل ترى تلك النّار الصّغيرة الّتي أعددتها هناك؟ إنّها فقط لطرد النّمور الّتي قد تُهاجمني في

أيّ لحظةٍ. لم أتمكّن من طبخ أرزّي، فأنا لا أملك سوى إناءٍ صغيرٍ لشرب الماء، لو كان بحوزتي قدرٌ أو أيّ وعاءٍ صغيرٍ لطبخت الدّجاجة السّوداء الّتي تتبعني في كلّ مكانٍ، إنّها هناك في الأعلى.

نظر زي أوروكو إلى أعلى بكلّ اهتمام، لكنّ الأعشاب الطّويلة كانت تحجب كلّ شيءٍ. إنّه لا يعرفُ كيفَ لم تُلدغ هذه الشّيطانة العجوز بعد من طرف أفعى مجلجلةٍ وهي في طريقها للبحث عن المياه، حقًّا إنّ للنّار قدراتها الخارقة، أو لعلّ العجوز عقدت اتّفاقًا مع الموت، يا إله السّماء! لماذا تطلب عجوزٌ مثلها النّجدة إذَن؟

- وماذا الآن، دونا؟

- لن تتركاني هُنا وحدي، صحيح؟

حينئذٍ نظرت في عينَي الهنديّ، لكنّه ارتعب وتجنّب نَظرتها بسُرعةٍ، وليُغيّر ما آلت إليه الأمور، ابتعد قليلًا ودسّ قدميه في الرّمال بحثًا عن بعض البرودة.

- سنزيح الحقائب الّتي تتوسّط القارب ونقلّ معنا هذه العجوز حتّى حاجزِ بيلا فيستا.

ساعده سيرواي مُتذمّرًا. لو كان القارب ملكه لما ترك هذه العجوز تضعُ مُؤخّرتها به وإن دفعت له مُقابل ذلك. لقد قيل كثيرًا إنّ زي أوروكو عنيدٌ جدًّا، لكنّه تفاجأ بأن يكون بكلّ هذه الطّيبة.

- ما هي حاجيّاتك الّتي تركتها بالأعلى؟ سأذهب لجلبها.

- دجاجة سوداء مشدودةٌ بخيطٍ، كيسٌ به بعض الأرزّ وإناءٌ على شكل جمجمةٍ.

بذل زي أوروكو جهدًا كبيرًا في تسلّق التلّ، إذ كان يحسّ بألمٍ شديدٍ في رِجليه، ولكنّه نجحَ أخيرًا في جلب حاجيّات العجوز، وحين عاد وجدها مُستقرّةً بمكانها في القارب بشكلٍ مُلائمٍ، فضحك قائلًا:

- دونا، سنتركك في حاجز بيلا فيستا، وهناك سيساعدك أحدهم وسيعود معك من أجل قاربك المَثقوب.

صحيحٌ أنّه قرّر مُساعدة العجوز، لكنّه مازال لا يُصدّق أنّ سيّدةً تفوق الأبديّة عمرًا قادرةٌ على قطع أميالٍ وأميالٍ مُجذّفةً على متن قاربٍ ثقيلٍ. خيّر في النّهاية ألّا يسألها عن أيّ شيءٍ، إذ لا جدوى من مُناقشة الأمر.

- هل ننطلق، لارّوري؟

جلس سيرواي وانتظر حتّى يستقرّ زي أوروكو بالقارب قبل أن يفكّ الرّباط الّذي يشدّه إلى الحافّة.

ولكن، كيف يكون هذا مُمكنًا؟ لقد أصبح قارب الخشب ثقيلًا جدًّا كأنّ ألف كيلوغرام أُضيفت إلى وزنه. أصبح ثقيلًا إلى درجةٍ جعلت كلّ ضربة مجذاف تسبّب ألمًا في الكُلَى مباشرة، كان زي أوروكو يشعر بذلك ولا يقول شيئًا لسيرواي، أمّا هذا الثاني فقد كان غاضبًا وخائفًا في الآن نفسه، الأمر الّذي جعله يُجذّف بعُنفٍ لأنّ القارب أبى أن يتقدّم من مكانه. لقد بدا القارب مشدودًا، ولكن في نهاية

الأمر، قد تكون المُسنّة سببًا في ثِقله، فهي عجوزٌ مُغلّفةٌ بالأسمال... لها من العظام أكثر ممّا لها من اللحم!... مع دجاجةٍ هرمةٍ وسكّينٍ... لا يمكن أن يكون الأمر سوى لعنةٍ وخطيئةٍ، ولكنّ الأفظع من كلّ ذلك هو أنّ سيرواي مُجبرٌ على حَنْي عُنقه وسدِّ أنفه، وعلى أن يتنفّس أقلّ ما يمكن، لأنّ هذه الرّياح الشّيطانيّة تأتي من الواجهة الأماميّة، لا لتجعل تقدّم القارب صعبًا فحسب، بل لتُضاعف أيضًا من الرّائحة الكريهة الّتي تجرّها هذه المخلوقة أينما حلّت.

أشار زي أوروكو إلى شاطئٍ قريبٍ جدًّا:

- سنتوقّف هناك لنُعدّ للعجوز بعض الطّعام.

فوجّهَا القارب معًا ناحية الشّاطئ.

كانت الدّجاجة تنتفض تحت تنّورة المرأة، فقرعتها ماريا أنطونيا بظهر السكّين قائلةً:

- اخرسي أيّتها الحقيرة! السّلام!

عندما نزلا إلى الشّاطئ، صنعَا نارًا لا تكاد تكفي لتسخين الزّيت في المقلاة، ثُمّ ألقيَا ببيضَتيْن من أجل المرأة. وبينما غرقت هي في أكل البيضتيْن مع بعض دقيق البفرة، استغلّا هما الوقت ليسبحا في النّهر، فبفضل الرّيح وجدَا تيّارًا مائيًّا صافيًا، لا ذباب فيه ولا بعوض.

حين كانا في الماء لم يَكفّا عن التّفكير في الشّيء نفسه، ولكنّ صمتًا طويلًا سادَ، قطعه زي أوروكو عندما سأل:

- ما المسافة الّتي مازالت تفصلنا عن بيلا فيستا، لارّوري؟

- قرابة الأربعة أميالٍ.

- لتذهب إلى الجحيم إذَن!

قبل السّاعة الرّابعة مساءً، وصلَا إلى بيلا فيستا. لم يعرفا إن كان ما ساعدهما على سرعة الوصول هو أنّ القارب قد خفّ أم هو تعوّد جسديهما على الإيقاع، لقد وصلَا وكفى، وبما أنّ الوقت كفيلٌ دومًا بجعل النّاس ينسون الأشياء السيّئة، فقد ركبا قاربهما من جديدٍ، مُتحرّرين من الرّائحة الكريهة ومن وزن ماريا أنطونيا وشعوذتها وخطاياها. الآن وبعد أن انتهى كلّ شيءٍ، صارَ الأمر مثيرًا لضحكهما معًا. في بيلا فيستا، لاحَظَا الرّفض القاطع الّذي أبداه الجميع تُجاه الاحتفاظ بالعجوز في الأنحاء، وقد اندهشَا كثيرًا حين أكّد لهما السكّان أنّ العجوز تقطع النّهر كاملًا على متن قاربها.

ضحكَ زي أوروكو عندما تذكّر ما سمعهُ عن العجوز في بيلا فيستا، وتمكّن سيرواي من تخمين السّبب، فابتسم هو أيضًا، وقد كان ضحكهما صافيًا في مساءٍ جميلٍ جدًّا! كانت الشّمس أقلّ حرارةً، تبرق مُنعكسةً على سطح المياه. وفي الأعلى، تتشكّل غُيومٌ خفيفةٌ وتتجمّع شيئًا فشيئًا لتكوّن ما يشبه النّدفة الصّوفيّة العملاقة، بينما كان النّهر شبيهًا بمرآةٍ عاكسةٍ لكلّ شيءٍ.

قال زي أوروكو كأنّه يُخاطب نفسه:

- يصلح المشهد لالتقاط صورٍ رائعةٍ!

ثُمّ راح يفكّر في كلّ البطاقات الّتي يمكن أن تُعلّق على الجُدران، لتدلّ النّاس عمّا تراه عيناه هُو، في هذه اللّحظة تحديدًا

تناول آلة التّصوير، من المُؤسف أن تكون قد ابتلعت «الكليك» نهائيًّا، قلّبها بين يديه، وَفجأةً دفعه فُضوله إلى رفع العُلبة باتّجاه عينيْه حتّى ينظر إلى المشهد من وراء العدسة، كم هُو جميلٌ ورائعٌ ما ينفرد بفعلهِ في هذا المكان! لن ينسى هذا البهاء الفريد ما نَبَض قلبُه!

من دُون إرادةٍ كبيرةٍ منه، ومن غير أن تكون له نيّةُ فعلِ أيّ شيءٍ، ضغط على الزرّ فاكتشفَ أنّ «الكليك» اشتغلت من جديدٍ، مرّر الشّريط وراح يُصدر الصّوت نفسه أكثر فأكثر: «كليك»، «كليك».. لقد أصبح الزرّ مُطيعًا، في داخل هذه العُلبة ما يشبه السّحر... لقد تعرّضت لفُحوصاتٍ عديدةٍ من قِبل الجميع في ليوبولدينا، تجاذبوهَا فيما بينهم، دفعوها، نقروها بأصابعهم، صفعوها بأياديهم... لكنّها لم تُصدر ولو صوتًا واحدًا، أمّا الآن، فها هي تعود إلى الاشتغال في الوقت الّذي لم يكن يُنتظر منها ذلك! هل يعني الأمرُ أنّ ماريا أنطونيا أثّرت بشكلٍ مّا في آلة التّصوير؟ لا يُمكن أن يكون الأمر إلّا كذلك.

- انظر لارّوري، لقد عادت الآلة إلى العمل!

أغرق الهنديّ يدَيه في الماء وبلّلَ خدَّيه، ثمّ تنفّس مُجيبًا باستياءٍ:

- تُوجد لعنة مّا داخل الآلة.

وبعد ذلك لم يقولَا شيئًا إضافيًّا.

كانَا قد توقّفَا عن التّجذيف، فنزلَا إلى شاطئٍ وأشعلَا نارًا. كانَا يشعران ببردٍ شديدٍ ويزدادان التصاقًا بالنّار أكثر فأكثر إلى حدٍّ

جعلها تحرق أغطيتهما، وكان البرد لاذعًا وبلا رحمةٍ، من المُؤكّد أنّ تقدّم اللّيل سيجعلُ الحياة تفقد معانيها، وسيفرض عليهما أن يُغطّيا رأسَيْهما عندمَا يُطالب جسداهُما المُنهكان من فرط التّجذيف بالرّاحة الضّروريّة.

لم يتمكّنا من النّوم، فسأل زي أوروكو الهنديّ:

- ماذا هُناك، يا رفيق؟

- لا شيء.

مكتبة
t.me/t_pdf

- أنت لا تنام، ما السّبب؟

- لا رغبة لي في النّوم!

- عليك أن تنام، فأنت مضطربٌ مثل شيطانٍ، لم أرَ في حياتي كلّها هنديًّا بهذا الأرق، الكاراجا قادرٌ على النّوم ما إن يغمض عينيْه. هل تريد التّحدّث؟

- ألسنَا بصدد التحدّث؟

- لم أقصد ذلك... لم أقل إنّنا لسنا بصددِ التحدّث... أقصد مُحادثةً أكثر عُمقًا!

- طيّب.

تمطّى زي أوروكو مُتحسّسًا دفءَ الأغطية، ثُمّ مرّر يدَه بين فخذيه فشعر بأنّه قويٌّ، لكنّه ادّخر هذه القُوّة وراح يتأمّل السّماء الخفيضة بعددِ نُجومها المُبالغ فيه. بعد ذلك ابتسم وقال للهنديّ:

- لارّوري، هل تعلم أنّ أشياء عَجيبةً تُوجد هناك، وسط

النّجوم؟ يَقولون -وهذا صحيحٌ- إنّ حجم كلّ نجمة يَفوق حجم الأرض...

في هذه اللّحظة صُدم زي أوروكو من إجابة سيرواي الّذي لم يندهش، بل قال براحةٍ تامّةٍ:

- نعم، أعلم ذلك، عندما كُنت صغيرًا سمعت البعض يتحدّثونَ عن الأسوإ، يُقال إنّ بالأعلى أنهارًا جاريةً وأشجارًا ودوابّ لا يقدر على رُؤيتها إلّا شخصٌ واحدٌ، يعتقد الهنود أنّهم عندما يموتون يذهبون إلى الصّيد بين النّجوم... أرواحهم هي التي تذهب للصّيد...

- هل يعلم كلّ الكاراجا هذا؟

- إنّهم يُعلّموننا ذلك.

- وهل تفكّر في الأمر عندما تتأمّل القمر والنّجوم؟

- نعم، مرّاتٍ عديدةً.

صمتَا ورغبَا بشدّة في التّدخين، فاعتدلا وجلسا لفتل سيجارتيْن. لم يجلب سيرواي غليونه، ولكن حتّى لو جَلبه، من المُؤكّد أنّ التّبغ سيكون قد انتهى.

سحبَا أنفاسًا مُتتالية وهُما يرقبان جمال اللّيل الوحشيّ، لا شيء يبدو موجودًا خارج هذا العالم البديع والمَهجور تمامًا.

- هل تُحبّ الصّيد؟

حرّك سيراوي رأسَه فَبرق شعره الأسود عاكسًا الضّوء المُنبعث من النّار:

- لا أحبّه مُطلقًا. أنا أصطاد فقط من أجل السيّاح شرطَ أن يُرافقني كثيرون من الكاراجا. لا أُرافق السيّاح وَحدي.

- لكنّي لست رجلًا أبيض لارّوري، أليْس كذلك؟

- أنت مُختلفٌ، يا زي أوروكو. لست سائحًا ولست هنديًّا أيضًا. أنتَ طيّبٌ. انظر، لقد وفّرت لي عبورًا للنّهر من دون أن أدفع شيئًا، أهديتني قميصًا جديدًا، ووفّرت لي غطاءً، والبارحة أعطيتني صنّارةً وخيطًا أيضًا، لو كنت تملك سكّرًا بُنّيًّا لاقتسمته معنَا جميعًا دُون أن تشعر بحُزنٍ أو ندمٍ. السيّاح لا يفعلون ذلك، إنّهم يُقدّمون لنا أشياء بسيطةً مُقابل أعمالٍ نقوم بها لفائدتهم، فضلًا عن كونهم يسرقوننا دومًا، إذ ليس من السّهل علينا أن نُقضّي ثلاثة أشهرٍ في الصّيد، ولكنّهم مُقابل ما نأتيهم به يمنّون علينا ببعض الأشياء القَذرة مثل ناموسيّةٍ لا تكادُ تعني لنا شيئًا، بل إنّها تسدّ أنفاسنا... أنت مُختلفٌ عنهم كثيرًا، أنا أعرفك جيّدًا منذ زمنٍ طويلٍ، كلّ الكاراجا يحبّونك، أمّا بقيّة السيّاح، فلا.

- لا تُرافق السُّيّاح في السّفر أيضًا؟

- إلّا في حال وُجود هنودٍ آخرين.

- لكن، لماذا؟

- أظنّ أنّي أخافهم.

حينئذٍ تذكّر زي أوروكو جُملةً مُهمّةً قالها أورلاندو فيلاس

بواس، لقد قال إنّ البيض الّذين يرون هنديًّا للمرّة الأولى ينسون أنّه هُو أيضًا يَراهم لأوّل مرّةٍ.

- نعم...

أجابه مُتثائبًا فاتحًا فمَه بكسلٍ، ثُمّ سأله:

- هل ترغب في النّوم الآن، لارّوري؟

فردّ سيرواي مُتثائبًاهو أيضًا:

- هممم... هممم...

- هل ننام إذَن؟

طرح زي أوروكو هذه الأسئلة لأنّه يعرف أنّ الهنديّ لن ينام، ولو كان ميّتًا من التّعب، إلّا حين يدعوه الأبيض الّذي يُرافقه إلى ذلك.

تمدّدَا على جنبيْهِما.

كان البرد اللاّذع في طريقه إلى التّناقص، بينما ازدادت النّار تأجّجًا وكاد اللّهبُ أن يحرقهما، خنقتهما النّار وقد عرقَ جسدَاهما من شدّة الحرارة وتحوّلت رمال الشّاطئ من تحتهمَا إلى حَشِيَّةٍ ناعمةٍ بسبب العرق الّذي بلّلها.

فتح زي أوروكو عينيْه ولم يعُد يرَى النّجوم. كان يسمع صوتًا يُشبه الأنين، لكنّه لم يكن صوتَ سيرواي. كان صوتًا صادرًا من النّاحية الأُخرى يُردّد أُغنية ماريا أنطونيا على نحوٍ عشوائيّ:

للقمر دورات أربع

لم يعد قادرًا على تبيّن الكلمات، لذا دفعه خوفُه نحو ترجمة الأصوات إلى جُملٍ من وَحي خياله.

تبَوّل أحدهم، وسممّت رائحة البول القذرة المتصاعدة من المرحاض المسدود هَواءَ قاعة التّمريض.

يُردّد الصّوت الأغنية نفسها وَيبتعد أكثر فأكثر...

شعر زي أوروكو بالحُزن وابتلع ريقه.

لقد اكتشف الساعةَ أنّه لا يملك رباطة جأشٍ كافيةً، فكلّ هذا الاضطراب الّذي أصاب حياته يعود إلى مُجرّد كلماتٍ من أُغنيةٍ. ابتسم من عُمق حزنه وهو يتذكّر مرّةً أخرى المشهدَ الجميل الّذي كان عليه أن يلتقط له صُورةً من أجل سائحٍ لا يكاد يعرفه.

(11)
كَالَمَنْتا

كان هُناك... رجلٌ، لكن لا يُمكننا قول إنّه كان رجلًا بأتمّ معنى الكلمة. كان طفلًا بالأحرى، إذ لم تنبُت له لحيةٌ بعد. بدأت أولى الشُّعيرات الشّقراء المُجعّدة بالظّهور على وجهه، وقد كان الطّفل هزيلًا لا يُحسن الحديث ولا يُصْدِر أكثر من أصواتٍ غير منطوقة بشكلٍ واضحٍ، صدرهُ مُجوّفٌ، يمشي بخطواتٍ متعثّرةٍ، وله عينان خاليتان من نظرةٍ حقيقيّةٍ ورأسٌ مُبالغ في حجمه. كلّ ما كان يُحسن فِعله هو الابتسام للتّخفيف من وطأة الخوف الّذي يُسبّبه له الآخرون. كان يُدعى بيدرينهو.

يذهبُ زي أوروكو ليجلس بجانب الطّفل كُلّما سنحت له الفُرصة حتّى لا يتمكّن أحدٌ من الإساءة إليه، وسبب ذلك أنّ الآخرين كانوا يسلبونه طعامَه دون أن يَشتكي، وكانوا عندما تنقصهم النّساء، يُجبرون الطّفل على فعل أشياء لحُسن الحظّ أنّه مازال يجهل ما يمكن أن تعنيه، ولو لم يتدخّل اللهّ بنفسه ذاتَ يومٍ، لكان بيدرينهو ضحيّةً لتلك الأفعال الّتي لا يُريد النّاس أن يَقرؤوا عنهَا ولا أن يسمعوا.

تدخّل الله بسُرعةٍ لم يتوقّعها أحدٌ. كان الطّفل قد أُصيب

بالتهابٍ معويٍّ شديدٍ، وهو ما جعله يتقيّأ في كلّ مكانٍ، فطرده المُمرّضون بسبب تلويثه للأسرّة بشكلٍ مُقرفٍ. كانوا لا يتردّدون في جرّه عشوائيًّا، وكان بيدرينهو يُحاول التّمسّك بالتّراب في كلّ مرّةٍ، لكنّ الرّجال كانوا أكثر قوّةً منه، الأمر الّذي مكّنهم في الأخير من الوُصول به إلى الفناء الخارجيّ، ظلّ يُقاوم ويُحاول التشبّث بالأرض حتّى برزت عظام سبّابة يده اليُمنى، وهكذا، ربطوه في الفناء ونسوْه. وحلّ اللّيل وانهمرت الأمطارُ بغزارةٍ. طلع النّهار وتواصلت الأمطارُ، كان بيدرينهو يُعاني من شيءٍ مّا بصدره، فأشفق عليه اللهّ وأرسل إليه سُلًّا بسُرعةٍ فائقةٍ، وهكذا مات على تلك الحال، مُتّسخًا من الالتهاب، أعوجَ وأشعثَ، مات بعظام سبّابته البارزة دون أن يتّهم أحدًا.

ساعد زي أوروكو في تنظيف جسد بيدرينهو، فبَدا له من العجيب أنّ وجهَه فقَد كلّ علامات الجُنون، كانت عيناهُ مُغمضتين كأنّه في سُباتٍ عميقٍ، وفي مرحلته الأخيرة كان أكثرَ هُدوءًا من كُلّ المراحل السّابقة من حياته. لم يأتِ أحدٌ ليُطالبَ بجُثّة الصبيّ الشّاحبة والمَهجورة، ولم تمتدّ أيّ يدٍ لتُداعب زغب وجهه الشّمعيّ الملائكيّ.

تسبّبت مُلاحظة زي أوروكو الأخيرة في شُعوره بتَعاسةٍ لا يُمكن تقديرُ حجمها: أن ترحل من غير أن يكون لديك أحدٌ! لا أحد يُهديك وردةً أو يعطف عليك ويقول «مسكين»!

ولهذا السّبب صلّى زي أوروكو من كلّ قلبه حتّى يتسنّى للصّبيّ أن يقوم برحلةٍ على متن زورقٍ جميلٍ، زورقٍ قادرٍ على الكلام

والغناء. توسّل إلى الأراغوايا حتّى يُعيره كلّ الوُرود المُمكنة، ولاسيّما السّيمبابيا البنفسجيّة، وترجّاه أن يجعل السّمبابيا تتداخل مع زُهور أشجار التّوت، لتكون نَاعمةً مثل المخمل.

اشتدّت تعاسة زي أوروكو عندما رمى المُمرّضون بالوجه الشّمعيّ على نقّالةٍ لأخذه بعيدًا إلى مكانٍ لا يَعرفه إلّا الله، قد تكون حجرةً باردةً أو مقبرةً جماعيّةً. لم يكن يرى سوى ظهور الممرّضين الغلاظ وهم بصَدد الاختفاء في الأروقة، ثمّ يَنغلق خلفهم في النّهاية بابٌ.

سيطرَ عليه حُزنٌ ثقيلٌ وأحسّ بعجزٍ، فطلب من شيكو أن يُحوّل بيدرينهو إلى الملاك الأكثر جمالًا في البرازيل، بل إنّه طلب منه أن يجعله واحدًا من أعوانهِ المُخلصين.

وفي هذه المرّة، بكى زي أوروكو بحرقةٍ لأنّه لم يجدْ شخصًا يَروي له هذه الحكاية.

الشّجرة شجرةٌ لا أكثر!

كان من المُؤكّد أنّ الشّابّة قالت أشياء أخرى، لكنّ حزنه جعلهُ لا يُصغي إلّا إلى هذه الجُملة.

استولى الإرهاق على كامل جسده. حاول الإصغاء، حاول ذلك بكلّ ما أوتيَ من قوّةٍ ولكن دون جدوى. ظلّت نظراته مُرتكزةً على قدمَي الشّابّة، ولم يكنْ زوجًا صندلها الأبيض أكثر من خفّين خفيفيْن من الجلد المُتقن، لكنّهما كانا يدوسان على قلقهِ وحُزنه.

– ما الّذي يشغلك اليوم، زي أوغستو؟

لقد فقد عادة الكلام، شيءٌ مّا راح يتراكمُ داخل حلقه حتّى صار مثلَ كُرةٍ. طأطأ رأسه، إنّه غير قادر على تفسير أيّ شيءٍ.

- ماذا يحدث لك اليوم؟ هل أنت حزينٌ؟ هل أصابك مكروهٌ؟

لم يعد قادرًا على تحمّل ثقل عينيه، لقد صارتَا مثلَ نَهريْن، أو مِثلَ جَدولَي ماءٍ يتدفّقانِ بوحشيّة شلاّلٍ عظيمٍ.

- هل تريد سيجارةً؟ انظر لقد جلبتُ لك واحدةً...

ظلّت عيناه مُركّزتين على الخفّين الأبيضيْن، ولم يكن هناك نملٌ يملك من العيون الواسعة ما يكفي ليعكس القمر.

- سُتشفى قريبًا. أنت تعلمُ أنّك ستتحسّن ما إن تكتشف الأسباب الّتي جعلت وضعكَ يسوء، لك أن تدخّن الآن. لقد تحدّثتُ مع الدّكتور «بايْفا» عن تحسّنك وأكّد لي أنّك ستُنقل إلى مكانٍ أفضل في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

الانتقال إلى مكانٍ أفضل!... شرط أن يتصرّف على نحوٍ ملائم، كأيّ تلميذٍ جيّدٍ، وقتها فقط سيكون أهلًا للحُصول على ميداليّةٍ!... لقد نسوا أنّه عجوزٌ، لا يملك شيئًا، لا يملك أحدًا، محرومٌ حتّى من زورقه الصّغير، من نهره...

لم يكفّ عن التّحديق في زَوجَي الصّندل الأبيضيْن.

كان النّمل ذو الأعين الكبيرة ينزلق إلى داخل كلّ قطرةٍ من دمه، فجأةً ومن دون أن يستأذن أحدًا، انفجر صوته، قادمًا من مكان مخبّئٍ في عُمق كيانهِ، خرج مثل صلاةٍ أليمةٍ لطالما حاول تناسيَها، فباح بالسرّ الّذي لم يُطلع عليه أحدًا:

- هل تعلمين ما يعني أن أكون بعيدًا وأن أتلقّى «تيلغرامًا» لا يقول أكثر من: «اليوم تُوفّيت ماريا إليزا»؟ هل تعرفين أصلًا أنّ ماريا إليزا ابنتي؟

تناول السّيجارة من فوق الطّاولة فسارعت الشّابّة إلى إشعالها. لم تكن نار الولّاعة هي الّتي ترتعش، بل يدها.

- كانت ماريا إليزا ابنتي، ألا تعرفين ذلك؟

سحب نفسًا طويلًا بعد أن تمكّن من التحرّر قليلًا من ثقل الخفّين الأبيضيْن.

- هذا ليس كلّ شيءٍ يا آنسة، فالمصائب لا تأتي فُرادى، في غُضون أقلّ من سنةٍ مَاتت زَوجتي وابني في حادث سيرٍ، ابني الّذي لو كان حيًّا لكان الآن مثل بيدرينهو!

تأمّل وجه الشّابة، كانت حزينةً جدًّا إلى حدٍّ جعل عينيْها تُطلّان من خلفِ نظّارتيها وهُما مُبلّلتان بالدّمع.

- لك أن تقولي لي الآن يا آنسة: هل مجنون أم إنّ الله يفعل ذلك متعمّدًا؟

كفًّا عن الكلام ودخّنَ سيجارةً أخرى، كان بإمكانه أن يُدخّن ثمانمائة سيجارةٍ مُتتاليةٍ، أن يُدخّن سجائر تُعادل حجم نهر الأراغوايا لعلّه ينسى أنّه خان نفسَه وأفشى سرّهُ. راح يُحرّك رأسه بيأسٍ مُكتشفًا أنه لم يكن أكثر من أحمق، هذا لوعيه بأنّ كُلّ سكّان العالم مرّوا بلحظاتٍ قاسيةٍ، ومن المُؤكّد أنّ بعضهم عانوا أكثر ممّا عانَاهُ.

أُغنية ماريا أنطونيا، قناع الشّمع على وجه بيدرينهو وبالخصوص عظم إصبعه الّذي اخترق جلده. العظم الضّئيل الّذي لا يكاد يعني شيئًا، تمامًا مثل الإصبع الصّغير في قصّة جاوْ وماريا[1]، العظم الّذي قرّر مصير طِفلين على الرّغم من أنّه كان عظمًا ميّتًا!

إنّ كلّ شيءٍ يموت، نحنُ نشرع في الموت جزءًا إثرَ جزءٍ مُنذ ولادتنا، وحياتنا عبارة عن مضيٍّ في تشكيل لُعبة بناءِ الألم، إنّنا نراكمُ الآلام، وحين ننتهي منها ينتهي كلّ شيءٍ، إنّنا ننفجر، نختفي، وننامُ في سلامٍ.

يُقدّم له النّمل دومًا النّصيحة نفسها، مُحدثًا صريرًا مُتكرّرًا مثل أسطوانةٍ مشروخةٍ تدور وسطَ فونغراف مُترهّلٍ:

- عليك أن تموت!...

وهُنا يطرأ عليه يأسٌ جبّارٌ لا مفرّ منه، يصير كأنّه يمتلكُ بيديهِ ألفَ إصبعٍ مهتاجةٍ تبحث عن أيّ شيءٍ، تتسلّق طول الشّبكة السّلكيّة وتنزلق على مدى الجدران.

- ستموت!...

(1) جاو وماريا، قصّةٌ يقابلها في الإنجليزيّة «هانسل وغريتل» وفي العربيّة «بيت الحلوى»، وهي حكاية للأطفال تروي قصّة توأمين سجنتهما ساحرةٌ شرّيرةٌ، وظلّت تراقب الطّفل هانسل حتّى يصبح سمينًا لتلتهمه، وكان في كلّ مرّةٍ يناولها يدًا من هيكلٍ عظميٍّ لتتحسّسه بيديها لأنّها كانت عمياء تقريبًا. بفضل حيلته كانت تُؤجّل أكله، وهكذا أنقذت الأصابع العظميّة النّحيفة الصبيَّ، حتّى تمكّن بمعيّة أخيه من الإيقاع بها.

غير أنّ يدَيهُ لا تعثران عن شيءٍ يُذكر، لا تعثران على حبلٍ يشنق به نفسه، أو على شفرة حلاقةٍ يقطع بها عروقه، ولا حتّى على ارتفاعٍ يكفيه ليلقي بنَفسه ويفنى في سلامٍ.

- يجبُ أن تبحث أكثر ما دام عليْك أن تموت!

الحياة دعابةٌ مأسويّةٌ! أن تقضي تسعة أشهر في رحم أمّك دُون أن تقدر على فهم شيءٍ ولا على رؤية شيءٍ، أن تعيش طُفولةً بائسةً وغبيّةً، ثمّ تصبح رجلًا! أن تُصارع بشكلٍ لا يُصدّق كأنّك تُجابه الموت الآتي لا مَحالة، دُون أن تُتاح لك طريقةٌ واحدةٌ لتجنّبه، إنَّه يأتي إليكَ طوعًا عندمَا يُقرّر هُو ذلك، ويصلُ إليكَ بسُهولةٍ تامّةٍ ليفرض عليك حُضوره القاسي.

وتغيّرت وجهة السّؤال. صار النّمل يدوس على عينيْه وصدره بأحذيةٍ بيضاء ثقيلةٍ حتّى يتأكّد كم هو طيّب!

ها هُو يَجوب السَّاحة مثل إنسانٍ آليٍّ، مشى كيلومتراتٍ عديدةً مُتحسّسًا حُروق الشّمس على وجهه الّذي ابيضّ من الهجر، وتوقّف مُرهقًا دُون أن يملك أدنى قوّةٍ، إنّه يُريد الهروب من الصّوت ولكن دون جدوى.

من دون إرادةٍ كبيرةٍ، من غير أن يفكّر في شيءٍ، ودون فكرةٍ مُحدّدةٍ اكتشف مسمارًا قديمًا وصدئًا مغروزًا بالحائط، فراح يُحاول انتزاعه مُتجنّبًا انتباه المُمرّضين الوحشيّين. وقد نجحَ في ذلك بعد جهدٍ كبيرٍ.

لقد سبق أن حاول الانتحار ثلاث مرّاتٍ، إنّها ثلاث مرّاتٍ

وربّما أكثر، لم يعد يذكر، لكنّهم تفطّنوا في الوقت المُناسب، لقد كاد المسمار الّذي انغرز في عُروقه أن ينجح في قتلِه.

صحيحٌ أنّ النّمل تعب من وسوسة الحماقة إثر الحماقة في أذنه.

سُمح له بالعودة إلى السّاحة، فجلس وسط ظلّ شجرة المانجو الكبيرة بكلّ حُزنهِ مُتقوقعًا على نفسه دون أدنى إرادةٍ في الحياة.

- ما كلّ هذا الحزن، زي أوروكو؟

لم ينتبه إلى الصّوت، لكنّه ألحّ:

- ما كلّ هذا الحزن، زي أوروكو؟

إنّه يناديه بـ«زي أوروكو» وليس بـ«زي أوغستو».

حاوَلَتْ الرّقبة رفع الرّأس.

- بي ألمٌ شديدٌ لا يسمح لي باكتشافك، يا صديقي، ولا أظنّ أنّك ستتمكّن من التعرّف عليَّ الآن.

نظر حوله ولكنّه لم ير شيئًا. كان «الآخرون» مُجتمعين في ركنٍ آخر، وقد انهمكوا في حكّ جلودهم بكسلٍ واضح...

- ألَمْ تعد تذكُرني؟ إنّه أنا، كالمَنْتا.

التفت ناحية شجرة المانجو فاكتشف عينيْن خضراويْن بشكلٍ صارخ، كانتا عينين كبيرتين، ويدين طويلتين تبدوان كأنّهما مصنوعتان من سائلٍ مخضرٍّ قليلًا، يدان تخرجان من شرخٍ في شجرة المانجو.

- إنّه أنا زي أوروكو، ألاَ تتذكّرُني؟ ربّما لم ترَني من قبل، لكنّكَ على الأقلّ سمعت عنّي الكثير، صحيح؟ أنا كالمَنْتا، إله

النّبات، الإله الّذي يُزوّد الأشجار بالصّبر ويُعلّمها الطّريقة الأجمل لتَزيين الطّبيعة. من غير تعليماتي، يستبدّ اليأس بالأشجار الّتي تقضي عمرًا كاملًا في المكان نفسه، وأحيانًا يكون مكانًا فظيعًا!...

تمكّن زي أوروكو من رُؤية العينيْن الخضراويْن بشكلٍ واضحٍ. يمتلك كالمَنْتا أيضًا هدوء بُحيرات الغابة الكبيرة، حيث لِلّقالق وحدَها إمكانيّة الإعجاب بتلك الخضرة الّتي تنشر في كنف السّلام.

- إنّه بسبب النّمل، كالمَنْتا...

- لقد أصدرت أوامري، لن تزعجك مجدّدًا.

- والأحذية البيضاء الخفيفة، كالمَنْتا...

- منعتُ تحويل قطع الخشب البيضاء إلى أحذيةٍ خفيفةٍ، هيّا، ابتسم الآن! فأنا صديقك.

أنهى كلامه ومدّ أصابعه الطّويلة ليرفع رأس زي أوروكو المُنهار، كان لصوته رنّة الطّيبة الّتي عادةً ما يسمعها في الرّياح وهي تنفخ بنعومةٍ على الأوراق، إنّهُ صوتُ مَن يمشي دومًا برفقة الحنان.

- رجلٌ بهذه الطّيبة! وجهٌ بهذا الودّ! إنّك تشبه ممثّلًا سينمائيًّا! لماذا كلّ الحزن إذَن، الحياة جميلةٌ ومازلتْ تمتلِك ما يمكنها أن تَهبَك إيّاه؟

لأوّل مرّةٍ يكتشف زي أوروكو أنّ المانجو شجرةٌ في غاية الجمال.

- اقترب أكثر يا صديقي.

أطاع زي أوروكو، لا شكّ أنّها مُعجزةٌ من مُعجزات شيكو، لا يُمكن أن تكون إلّا كذلك. لقد شهد بعينيْه كيف شارف على الموت حزنًا لولا أنّه استنبط له طريقةً كفيلةً بإنقاذه، تمامًا مثلما فعل العجوز جاطوبا مع نينينا.

- لا داعي إلى الخجل أمامي. يمرّ كلّ النّاس بمراحل مثل هذه، كلّ النّاس يتحوّلون في أوقاتٍ مّا إلى أطفالٍ يحتاجون إلى الرّعاية.

- هل تعلم كالمَنْتا، إنّهم يرفضون إخراجي من هُنا. لقد سرقوا منّي كلّ شيءٍ. استحوذوا على كلّ ما أملك. أعرف أنّك على علمٍ بكلّ هذا.

- لماذَا أنا هُنا إذَن؟ من حسن الحظّ ألّا يكون بحوزتك غير ركنٍ نباتيٍّ صغيرٍ، ركنٍ لشعريّة الأشياء. آه لو تتاحُ لك مُشاهدة كيف تحزن شُجيرةٌ صغيرةٌ كيف تتخلّى عن الحياة نهائيًّا!...

ترك ذقن زي أوروكو ولمح كيف أصبحت الرّقبة مُتحمّسةً أكثر لدعم الرّأس.

- الآن، أنت بخيرٍ. هل تريد أن أروي لكَ حكايةً؟

أومأ برأسه مُوافقًا.

- نحن، معشر النّبات، لا نعرف أكثر من ثلاث حكاياتٍ. من المؤكّد أنّك تعرفها. أيّ واحدةٍ منها تفضّل؟

لم يحتج إلى وقتٍ طويلٍ للتّفكير، إذ سُرعان ما اختار حكاية التّمساح، فراح كالمَنْتا يرويها له:

«لاغو ريكو» (البحيرة الخصبة) هو الاسم الّذي يطلقه النّاس على البحيرة. أمّا الأشجار والطّيور وكلّ حيوانات الأوربيانغا فتُسمّيها «لاغوا بونيتا» (البحيرة الجميلة)، وهذا لأنّ كلّ ما فيها جميلٌ، بدءًا من الأعشاب الّتي تُحيط بها، ووصولًا إلى الرّمال البيضاء المُترنّحة حتّى تبلغ منبت الأشجار، حيث تبني الطّيور ذات الأرجل أعشاشَها اتّقاءً للمطر.

يُظهر التّمساح خلال اللّيالي المُقمرة نجمةً حمراء: وهي انعكاس ضوء القمر على عينيه الضّيقتيْن. وفيما كانت الدّيدان البرّاقة زهورًا جوّالةً عبر شجرة التّوت البرّيّ، كانت كلّ الحيوانات تعيش في سلامٍ تامٍّ، من غير أن يُعكّرَ صفوَها شيءٌ. في الحقيقة، كان الأقوياء يلتهمون الأقلّ قوّةً، بِلا مأساةٍ تُذكر، يحدث ذلك دُون دراما مثلَ أيّ مشهدٍ حياتيٍّ عاديٍّ.

كانت طيور الجاكو الصّاخبة تُمدّد ذُيولها وأجنحتها البُنيّة لتُغيّر في لحظةٍ لونَ الأشجار كلّما ازداد عددُها. أمّا القضاعة العملاقة فقد كانت تتلهّى مثل مجنونةٍ بتلميع فروها في النّهر، وفي يوم مّا -هناك دومًا يومٌ مّا يُغيّر نسقَ حياتنا- ظهر الإنسانُ، في البداية لم تكن الحيوانات تعرفه، ولهذا السّبب لم تكن تهرب منه، وهكذا صوّب نحو أعينها عصًا خشبيّةً غليظةً مجهّزةً بأنبوبٍ حديديٍّ. ثمّ ضغط بإصبع من يده، فانفجر ذاك الشّيء الغريب وتباعًا سقطت الحيوانات جريحةً. راحت أعينها المُدوّرة تتلقّى رسائل موتٍ مُتجدّدةً كأختامٍ مُتنوّعةٍ للألم نفسه.

كان بعضها مُسالمًا حدّ السّذاجة، مثل مجموعةٍ من قردة القشّة[1] الّتي كانت تقترب منه من أجل بعض الإيماءات الفكاهيّة، وهُنا، يستغلّ الإنسانُ الأمر، فيرفع عصاه القادرة على إطلاق النّار إلى مُستوى أعينها ليُسقطَ تعساء الحظّ أرضًا، دُون شفقةٍ.

وهكذا دبّ الخبر الغريب، تردّد صوت الخوف وانتشر بين كلّ حيوانات «لاغوا بونيتا»:

- انتبهوا، إنّه الإنسان!...

- إنّه قاتلٌ!

- احذروه!

- اختبئوا ما إن تروه!

وتركّزت مملكة الهلع والفرار المستمرّ، أصبحت الحيوانات مُجبرةً على الانتظار إلى حُدود السّاعات المُتأخّرة من اللّيل حتّى تمارس حياتها.

مع ذلك، كان الإنسانُ يزداد جوعًا كلّ يومٍ. ليلًا، لا يحظى بالنّوم عندمَا يكون قبالة نار مُخيّمه، مادامت لديه جلودٌ يمدّدها وأسماك يملّحها، إذ سُرعان ما يَنتشر خبر وفرة الصّيد بين أناسٍ آخرين، فتنفتح مسارات صيدٍ أخرى، تعبر الزّوارق بعضها خلف بعضٍ ويتجمّع أناسٌ كثيرون ليُخيّموا على ضِفّة «لاغوا بونيتا».

---

(1) قردةٌ لا توجد إلاّ في أمريكا الوسطى وتُسمّى «الكاليثريكس»، وهي تنتمي إلى عائلة ما يُسمّى علميًّا بـ«القشّيات».

شاهدت الحيوانات شباك الإنسان المُعلّقة من بعيدٍ، ولمحت مخابئه في الغابات الواقعة بالقرب من البحيرة، وهكذا انتشر الفزع:

- ما الّذي يمكن فعله؟

تساءلت القضاعة العملاقة ذات الفرو البرّاق.

- كم نحن مساكين.

غمغمت التّماسيح الكبيرة.

- من الأفضل أن ندعو أوروبيانغا.

- لكنّ أوربيانغا بعيدٌ جدًّا عن هنا، فهُو يعتني بالحيوانات الّتي تموت عطشًا في جفاف الشّمال الشّرقيّ.

خرجت الأوضاع عن السّيطرة إذَن، لذا قرّرت الحيوانات الاجتماع وظلّت تتناقش ساعاتٍ وقد هيمن عليها الحزن واليأس:

- إنّهم يُريدون التّماسيح بالخصوص، وهُم يحصلون على ما يريدون في أغلب الأحيان، فهُم قادرون على كلّ شيءٍ، يقلّدون أصواتها وصرخاتها ونداءاتها!

حرّك كَيْمَنٌ[1] ذيْلهُ ذا القشور:

- حتّى إنّهم كادوا أن يتمكّنوا منّي، أنا العارف بأسرار الحياة.

- ماذا نفعل إذَن؟

- أعتقد أنّ علينا أن نختار تمساحًا يافعًا و...

(1) الكيمن: اسم يُطلق على التّماسيح الأمريكيّة الاستوائيّة.

- لقد فكّرتُ في الشّيء نفسه. نغذّيه جيّدًا، ونحشو بطنه بالفيتامين إلى أن يكبر ويصير أقوى، يجب أن يصبح جلدهُ مُمتازًا، ثُمّ نهدي التّمساح الكبير إلى الإنسان، فربّما يتركنا الصّيادون في سلامٍ بمُجرّد حُصولهم على جلده الكبير، وهكذا نربح بعض الوقت حتّى يصل أوروبيانغا.

- لكن ينبغي ألّا يعلم التّمساح الصّغير بشيءٍ.

- سيعلم فقط عندما يحين الوقت المناسبُ.

- وهكذا لن يرفض والداه أن يقع عليه الاختيار.

ساد صمتٌ مُريبٌ، لكن كان على الجميع الموافقة.

- سنحقّق كلّ رغباته... وسنسمّيه «الملك»!

ظلّت الحيوانات أسبوعًا كاملًا تبحث عن التّمساح الّذي يملك المواصفات الضروريّة حتّى يكون قربانهم إلى الإنسان، وقد ظلّوا يبحثون حتّى عثروا على واحدٍ بقوائم مرنةٍ وذيلٍ مديدٍ وظهرٍ واسعٍ.

- هذا هو. ها قد حصلنا على «ملكنا».

ومن غير أن يشعر بشيءٍ، أُخِذَ «الملك» ليعيش مُحاطًا بعجائز القبيلة وحُكمائها، غرق في جوٍّ من التّخمة بحُصوله على ألذّ الأطعمة وأطيبها، كانت الحيوانات تصطاد من أجله، وتُحقّق كلّ رغباته وشهواته دون انزعاجٍ، بالإضافة إلى مُراقبتهم له حين يمشي في المساءات أو خلال ساعات سباحته الطّويلة.

كانت التّماسيح الصّغيرة الأخرى غيورةً لأنّها لا تَحصل ولو

على نصف ميزات «الملك»، أمّا هو فازداد ضخامةً يومًا بعد يومٍ، وقد صار طبعهُ مرحًا غير آبهٍ بشيءٍ ممّا يُحيط به، كان يحبّ السّباحةَ في النّهر برفقة التّماسيح الأخرى الأصغر سنًّا، ويبتسم برضًا كُلّما أبدت إعجابها به:

- انظروا إلى ملكنا، كم يبدو ضخمًا!

- يا للقوّة الّتي يتمتّع بها!

تُمكّنه قوّتهُ من حمل الآخرين على ظهره، من اللّعب مع السّلاحف، ومن اقتلاع أجماتٍ من الأعشاب النّهريّة بضربةٍ واحدةٍ من ذيله المهول، الأمر الّذي جعلَه يشعرُ بسعادةٍ وفخرٍ دائمين.

تتالت الشّهور متشابهةً، ممّا أضفى بعض الثّقل على مرور الزّمن، وذات يومٍ، توافد كبار المنطقة لتفحّص «الملك»، أثار حجمُ الزّاحف وجماله دهشتهم، فابتسم «الملك» ابتسامة فخرٍ، لأنّه، وفق ما قاله الكبار، يحظى بحجمٍ لا تحظى به حتّى تماسيح النّيل.

- لقد حان الوقت يا بُنيّ لتعرف حقيقة ما ينتظرك.

تسبّبت ملامح وُجوههم ونظراتهم الجديّة في انقباض قلب «الملك» لأوّل مرّةٍ في حياته.

أطلعوه إذَن على عظمة خططهم، فقالوا له إنّه مُجبرٌ على الرّحيل ليُقدّم نفسه قربانًا في سبيل بقاء بني جنسه، فللملك التزاماتٌ وعليه أن يحمي معشر الحيوانات.

خفض رأسه ولاحظ أنّ سمات مياه النّهر تغيّرت، لقد صارت حزينةً وقاتمةً، الشّيء الّذي لم يره من قبل.

- متى؟

كان لا يُريد لصَوته أن يفضح خوفه.

- غدًا يا بنيّ. عندمَا تختفي الشّمس خلف الأشجار لتنام، سنرافقك إلى حُدود الكثيب الكبير وستتسلّق بقيّة المسافة دُون خوفٍ، لأنّك ملك.

لم ينبس أحدٌ بكلمةٍ إلى أن حانت اللّحظة العظيمة. وعندما دقّت السّاعة المُنتظرة، لم تذرف دُموعٌ ولم تُقَل عبارات وداعٍ، لم يوجد شيءٌ غير صمتٍ مُثقلٍ بالكرامة.

تقدّموا في الماء دُون إحداث ضجّةٍ، وأثناء سباحتهم شكّلوا مثلّثًا هائلًا أحدثَ فقاقيعَ في عمق مياه البحيرة.

- اذهب الآن، يا بُنيّ!

كان الصّوت مُرتعشًا، وكادت أن تنفلت دمعتان حرّتان من عينَي «الملك»، لكنّه تحرّك سريعًا، انسلخ عن المجموعة ورحل في اتّجاه مصيره، كان مُتأكّدًا من أنّه سيتحوّل خلال دقائق إلى مُجرّد أسطورةٍ، وكان يتمنّى أن تُنصف تضحيتُه بنفسه قضيّةَ بني جنسه العادلة والنّبيلة، وأن يُتوّج موته على الأقلّ ببثّ الأمل في قلوب العجائز.

في هذه اللّحظة ردّد «الملكُ» صلاة وداعٍ بصوتٍ خفيضٍ:

«أوروبيانغا، يا إلهي الصّديق، إنّي أقوم برحلةٍ أنت أعلم بمُنتهاها. أنت تعرف، أوروبيانغا، أنّي لستُ جبانًا وأنّي لا أريد أن أخيّب ظنّ شعبٍ لطالما أحببته. أريدك أن تمنحني القوّة حتّى أصل إلى هناك، إنّي

أرى بالفعل ومضَات النّار الأُولى، إنّه الإنسان، أوروبيانغا! الإنسان! ما الّذي ارتكبته في حقّه؟ كنتُ أساعدهُ على تنظيف مياه البحيرة من اللّحوم العفنة حتّى لا يُصابَ بالأمراض عندما يشرب منها، لكنّي أشكرك على تلك اللّحظات الجميلة الّتي مكّنتني من عيْشها. لن تنسى عيناي، مادامتا مفتوحتيْن، جمال السّماء وموسيقى الرّياح المتردّدة من أشجار الغابة. يرغبُ قلبي الضّعيفُ والضّئيل في أن يمرّ الوقت بأسرع ما يمكن، وأن تعيش سلالتي سعيدةً ومُتماسكةً. لن ألتفت إليهم لأقول وداعًا، لأنّي أعرف أنّي سأبكي، ليس من حقّي أن أضعف، فأنا الملك، والآن، الآن وأنا أُلامس ضفّة الكثيب، لا أسمع سوى صوت طرقات قلبي الّذي مازال يافعًا. ولكن، من أجل كلّ شيءٍ منحتني إيّاه، أقول لك شكرًا يا أوروبيانغا!».

مدّد جسمه العملاق وراح يتسلّقُ الضّفة مضطربًا، لم يحلّ اللّيلُ بعدُ، لكنّ النّهار كان على وشك النّهاية. تقدّم في اتّجاه النّيران والأسرّة المُعلّقة، فتصاعدت أصواتٌ مذعورة:

- إلى أسلحتكم!
- هناك وحش!
- خذوا الـ 44 والـ 22!
- أسرعوا!
- إنّه أكبر تمساح في العالم!

توقّف «الملك» وانتظر مُستسلمًا، أحاط به النّاس شاهرين أسلحتهم:

- انتبهوا! إنّ الوحش لا يتحرّك ولا يُحاول الهرب!...
- هذا صحيحٌ، إنّه يتصرّف كأنّه لم يرَ إنسانًا ولو مرّةً في حياته!
- راحوا يُضيّقون الدّائرة من حوله، مُسلّحين بالخناجر والرّماح:
- ليهجم الجميع عند إشارتي.
- فكّروا معي! لو وصل إلى هُنا ليلًا ونحن نيام، لالتَهَم أكثر من نصفنا.

ارتفعت الأسلحة وأُطلقتِ النّيرانُ، فشعر «الملكُ» بألمٍ كبيرٍ، تدفّق دمُه غزيرًا من بين عينيْه ومن أعضائه، وبينما كان ذيله الكبير يتخبّط في احتضاره، راح يُفكّر خلال لحظاته الأخيرة في أنّ الإنسان لا يُدرك أنّ التّمساح الّذي جاء إلى حُدود ديارهم إنّما جاء في مُهمّةٍ سلميّةٍ، وأنّه لم يكن ينوي قتل أحدٍ، لم يلمح أيّ من الحشد الطّيبةَ الّتي تسكن عينَي «الملك» الكبيرتيْن، اليافعتين، اللّتيْن انطفأتا عاكستين وميضَ النّيران، بينما في الأعلى، كانت السّماء أنيقةً جميلةً وعامرةً بالنّجوم. تردّد صوتُ طلقاتٍ جديدةٍ، لكنّه في هذه المرّة لم يشعر بشيءٍ على الإطلاق.

راح النّاسُ يشربون ويغنّون راضين عمّا فعلوه:

- علينا أن نقلّب البحيرة كلّها، من المُؤكّد أنّها تعجّ بحيواناتٍ أخرى في مثل حجم هذا التّمساح.
- تكفي عشرة جلودٍ مثل هذه حتّى نصبح أثرياء جدًّا!
- إنّها فرصةٌ مضمونةٌ أكثر من الجواهر...

صمت صوتُ كالمَنْتا الّذي بدأ الوهنُ يتسرّب إليه. ابتسم لزي أوروكو ثُمّ أردف:

- هل ترى يا صديقي، لم يكن للحيوانات الصّبر لانتظار أوروبيانغا، لم يكن لها صبرُ الأشجار وقُدرتُها على التحمّل.

وضحك بنُعومةٍ:

- ستُشفى زي أوروكو، لقد جئت إلى هُنا لأزوّدك ببعض الصّبر، لا يمكن تخيّل مدى صعوبة الأمر، أن أسأل الأشجار شجرةً إثر أخرى، لأعثر عليك هُنا، ستصبح على ما يُرام. أعدك بذلك. عليك أن تتحلّى بالصّبر لا أكثر، لأنّك صديقٌ حميمٌ للأشجار.

ارتسمت غشاوةٌ بعينيْ زي أوروكو.

أصبح صوت كالمَنْتا أجشّ ومُختنقًا، وبدأ جسمه بالاختفاء مثله مثل يديْه الطّويلتين والخضراوين، وعينيْه شبه السّائلتيْن في عمق جذع الشّجرة. لكنّه لم يستسلم. لقد أصبحت شجرة المانجو مجنونةً بالكامل، كانت فروعها تجلد جسم إلهِها، بينما تدخل أوراقها إلى فمه في محاولةٍ لخنق صوته، بل إنّها حاولت حتّى خنقه هو، وقتله، إذ امتدّت الأغصان الكبيرة لتتحوّل إلى أيادٍ خضراء طويلةٍ تدفع كالمَنْتا إلى هوّة الموت، ثمّ تمتدّ في اتّجاه زي أوروكو. كانت أيادي كثيرةً مُتشابكةً، جعلت عينيَه تمتلئان بالخوف، ذابت الخضرة وأصبحت الأيادي مُزغّبة وبيضاء اللّون، ومن خلفها برز الممرّضون الّذين راحوا يحكمون قبضتهم عليه ليُبعدوه عن السّاحة...

- إنّها النّوبة!... إنّها النّوبة!...

سجن المُمرّضون كلّ جزءٍ من جسده، وأحكموا السّيطرة على عقله بالكامل. وبعد فترةٍ تمكّن من استعادةِ وعيه تدريجيًّا والانتباه إلى وضعيّته، إنّه يُعاني دومًا من الأعراض نفسها كلّما عجز عن تمييز الخياليّ من الحقيقيّ، لم يرد أن يتحرّك حتّى لا يشعر بجسده المُتألّم من بقائه وقتًا طويلًا في الهيئة نفسها، لقد تعرّض للحَقنِ وللعلاج بالصّدمات الكهربائيّة، ومن المُحتمل أن يكون قد قضّى هُنا ثلاثة أيّامٍ، وربّما أكثر. لم يحاول تحريك ذراعيْه لإدراكه أنّ القميص ذا الكمّين الطّويلين سيمنعه من فعل ذلك، كانت لحيته الّتي لم تُحلق منذ أيّامٍ عديدةٍ تَخِزُه، لكن لا يد له حتّى يُهدّئ من رَوع وَجهه، ضايقته أيضًا رائحة البول الثّقيلة الآتية من جسده، هناك حروق في ركبتيه أيضًا، لكنّه لا يستطيع فعل شيءٍ.

لا حلّ أمامه غير انتظام قُدوم الرّجال المُكلّفين بالعناية به، يجبُ أن يقتنعوا بأنّه شُفي من نوبته حتّى يتمكّن من العودة إلى عالمه النّباتيّ، وهكذا، من الأفضل أن ينتظر بصبر كالمنْتَا، الإله الطّيّب. لمَح في الجدار المُقابل نافذةً تُتيح له رؤية بعض ضوء النّهار، ربّما يكون منتصف النّهار، أو لعلّها السّاعة الّتي تبحث فيها التّماسيح عن مأوًى.

تنهّد بكلّ هدوءٍ، فأيّ حركةٍ يقوم بها ستسبّب له ألمًا كبيرًا.

ظلّ ينظر إلى كوّة النّافذة والأمل يغمره، لقد بدا له أنّ النّور ينقل إليه رسالةً مّا.

انقبض قلبه وهو يدرك قلّة أهمّيته، لا يساوي الإنسان شيئًا. كانت الحيوانات واثقةً من ذلك.

شعر بأنّ عينيْه المُرهقتيْن تتبلّلان بالدّموع ببُطءٍ وبأنّ صوته يهمس بكلّ ذلٍّ:

- شيكو، دعني أُشْفَ. ساعدني، لا أريد أن أظلّ مجنونًا طوال حياتي، أَشِرْ عليّ بأيّ شيءٍ، ابعث لي ببعض الأمل...

ظلّ دقائقَ يرمق النّور القليل المطلّ من النّافذة الصّغيرة، كان يعلم أنّ الأمل سيتسلّل إليه من هناك... لكنّ عينيه المُتعبتيْن انغلقتَا.

لا يستطيع تحديد الوقت الّذي استغرقه في النّوم، لكنّ شيئًا مّا كان يتحرّك داخل سجنه، فتح عينيْه منزعجًا وراح يُقلّب الظّلمة لأنّ النّور تناقص كثيرًا. وفي هذه اللّحظة تمكّن من تبيّن المعجزة. كان عصفور دوريّ يحطّ على الكوّة، ثُمّ راح يحلّق دائريًّا وبكلّ نعومةٍ تحت سقف الغرفة، ودون أن يخشى شيئًا حطّ على حشِيّة القشّ المُترهّلة، بالقُرب من رأسه، بعد ذلك قفز قرب وجهه ومكث دقيقةً، طار مرّةً أخرى وراح يحوم في الزنزانة، حطّ على النّافذة وأطلق زقزقة فرحٍ، وهكذا، اختفى مع اختفاء آخر ضوءٍ مُنبعثٍ.

بدأ السّلام يَتوالد داخل قلب زي أوروكو بالتّزامن مع سيطرة الظّلام على المكان، إنّه مُتأكّدٌ من أنه قد تلقّى الإشارة الّتي طلبها من شيكو الأسيزي.

وَما يبدو غريبًا بحقٍّ هو أنّه أصبح على ما يُرام منذ هذا اليوم.

(12)

العودة إلى الوهم

مرّةً أخرى، يجد نفسه وجهًا لوجهٍ مع الطّبيب، لاحظَ أنّه لم يتغيّر منذ آخر مرّةٍ رآه فيها، كان جالسًا خلف مكتبه يُقلّب مطرقةً صغيرةً بين يديه:

- ماذا بعد، زي أوروكو، لقد مرّت ثلاثُ سنواتٍ تقريبًا، وقتٌ طويلٌ، أَليْس كذلك؟

ابتسمَ. فيمَ ينفعه الآن شُعورٌ بالنّدم على كلّ الوقت الّذي ذهب سُدًى؟ الأمر شبيهٌ بمَن يريد مقاومة الشّيخوخة الّتي يشعر بثقلها على كاهله المُتهالك، أو بمَن يريد مقاومة ضعف بصر عينيْه وهو يتناقص كلّ يومٍ، لكن، عليه أن يوقظ قلبَه ويبثّ فيه بعض الشّجاعة، عليه أن يقنعه بأن يتحلّى ببعض القوّة ويتعلّم كيف يكون حزينًا بحقّ:

- نعم، دكتور.

- أنت رجلٌ مختلف الآن، هل رأيتَ وجهك في المرآة؟ تظهر عليْكَ علاماتُ الهدوء والطّمأنينة، إنّك رجلٌ عاديٌّ تمامًا، ألا تشعر بذلك؟

ابتسم زي أوروكو:

- نعم، دكتور، الحزن العميق يعني الصّحّة الجيّدة، إنّي الرّجل الأكثر سلامةً في العالم.

- أعرف ما تحسّه تمامًا. في البداية، الأمر يكون على هذا الشّكل، لكن فيما بعد ستتكيّف مع الحياة، ستعثر على مشاغل جديدةٍ، أفكّر في إرسالك إلى الجنوب. ربّما تحظى بعمل في ريو دي جانيرو.

- لا دكتور، ريو دي جانيرو لا، إنّها مدينةٌ مروّعةٌ.

- ماذا عن ساو باولو؟

- قد تكون أفضل.

- لديّ صديقٌ مقرّبٌ في ساو باولو، يمكنه أن يعتني بك وأن يجد لك عملًا، في المدن الكبرى، لا أحد يعرف عن حياة الآخرين شيئًا.

أومأَ برأسه موافقًا على كلّ كلمةٍ.

وهكذا استقلّ زي أوروكو سفينةً صغيرةً استغرقت ستّة أيّام لتصل إلى سانتوس[1]، وبعد ذلك تسلّق الجبل مثلما يفعل كلّ شخصٍ يريد أن يصل إلى ساو باولو.

أخيرًا، وبعد خمسة عشر يومًا، استقرّ بنهجٍ صغيرٍ مُتقاطعٍ مع شارع «سينسيناتو بونبونيت» في حيّ «لابّا». كان منزلًا متواضعًا، من تلك الّتي نُؤجّرها لأناسٍ من كلّ الأصناف، مُجرّد غرفةٍ كئيبةٍ،

(1) سانتوس: من أكبر مدن ولاية ساو باولو.

سيّئة الإضاءة لأنّ الشّباك مفتوحٌ على ممرٍّ ضيّقٍ جدًّا حتّى إنّه لو وُجدت به نبتةٌ لماتت مُختنقةً لا محالة.

هكذا كانت بداية حياتِه السّويّة الّتي اتّفق النّاسُ على اعتبارها «عاديّةً»، كان الطّبيب الّذي استقبله ووَجّهه يُدعى الدكتور «أوزيريو سيزار»، وهو يعمل بمستشفى شارع «جاكوري»، وقد تمكّن زي أوروكو من تخمين السّبب الّذي يجعل الطّبيبيْن صديقيْن متقاربيْن. يضع الدّكتور أوزيريو نظّارتيْن سميكتين، لا يستطيع في غيابهما تحديدَ جهة السّماء.

ذات يومٍ، قال بطريقته الوديّة الّتي يتعامل بها مع كلّ النّاس مهما كانت ألوانهم ووضعيّاتهم:

- زي أوغيستو، لقد وجدتُ لك عملًا.

- أشكرك، دكتور.

- لي أصدقاء طيّبون في حانةٍ هادئةٍ وحميمةٍ. إنّها الحانة الجديدة التّابعة لأصدقاء من متحف الفنون المعاصرة، ستحصل فيها على خطّة نادلٍ مساعدٍ، هل يُلائمك الأمر؟

مرّر زي أوروكو يده على رأسه، حكّ شعرَه المجعّد والمبيضّ بالكامل. وكأنّه يُعبّر بذلك عن القلق الّذي اعتراه، لأنّ الخوفَ من أن يُفتضح أمرُه يُلاحقه حيثما ولّى:

- هل يعرفون من أين أتيت؟

انفجر الدّكتور أوزيريو ضاحكًا:

- لا أحد يحتاج إلى أن يعرف عنك شيئًا، سنقول إنّك تنحدر

من الشّمال، يمكن أن نضيف أنّك كنت تشتغل بمصنعٍ للسكّر في...

فكّر قليلًا، ثمّ وجد الحلّ:

- يقع المصنع في «سيارا ميريم»، التّابعة لولاية «ريو غراندي دو نورتي»، مَن الّذي يمكنه أن يدقّق في معلومةٍ مثل هذه؟ ثُمّ إنّك رجلٌ رائعٌ، وستعمل بين فنّانين، والفنّانون، سواء هُنا أو في أيّ مكانٍ من العالم، أُناسٌ أكثر جنونًا منّا جميعًا.

ذهب إلى المكان الّذي وصفهُ له الطّبيب، وبقيَ هُناك، لم يكن يعرف إن كان أحبّه أم لا، في نهاية الأمر، لا يهمّ، فالمسألة لا تتعلّق بالحبّ بل بكسب القوت، هكذا فقط سيتمكّن من تسديد تكاليف الغرفة في ذلك الشّارع البائس، على مقربة من «سينسيناتو بونبونيت»، اسم فائق الجمال لا تكفّ راديوهات المدينة عن تكراره.

يعمل زي أوروكو من السّاعة الثّالثة مساءً حتّى العاشرة ليلًا، ما يعني أنّه قد يحصل على عملٍ إضافيٍّ في الصّباح، لكنّه كان يشعر بالإرهاق الشّديد ويعتقد أن لا جدوى من ذلك، لذا فضّل البقاء داخل الغرفة الضّئيلة حيثُ راح يقرأ بصُعوبةٍ الكتبَ الّتي استعارها من الدّكتور أوزيريو.

راح يُفكّر بأنّه في نهاية الأمر يُناور زورقًا اسمه الحياة، بلا مجاذيف ولا هفواتٍ، وسُرعان ما غيّر وجهة أفكاره، إذ تذكّر أنّ الزّوارق غير مسموحٍ بها حتّى في ذكرياته.

«الشّجرة شجرة لا أكثر».

في البداية ظلّ مُرتديًا قميصًا بكُمّين طويلين في مقصورة البار الصّغيرة، يعتني بغسل الكُؤوس وإعداد السندويتشات، لكن سرعان ما حصل له آرتو، النّادل، على سترةٍ وربطة عنقٍ ليشرع في تقديم الطّلبات.

لقد كان الدّكتور أوزيريو مُحقًّا: أُناس الخارج مجانين، أمّا هُنا فهم وَدودون، غير أنّهم يَعيشون في عالمٍ من المرح والثّرثرة والشّراب والعبث.

ثمّة رَسّامون وكُتّاب وصحفيّون ومُمثّلون سينمائيّون ومُتطفّلون.

قبالة البار، تَلتئم معارض للفُنون الحديثة، كان قد شاهد الكثير منها دون أن يفهم شيئًا من تلك الخطوط المتداخلة والدّوائر والسّطور، وجد بعضها رائعةً وتجنّب التّدقيق في البعض الآخر خوفًا من أن تُعيده إلى أفكارٍ لا يرغبُ في أن تعترضهُ مُجدّدًا. يحدث ذلك أثناء راحته بعد قضاء يومٍ من العمل الشّاقّ، راحةٍ على شكل كأسٍ من الويسكي.

في العمل يمدّه آرتور بالطّلبَات مُفسّرًا:

- هذا من أجل الدّكتور سيرجيو ميليت، إنّه يفضّل الويسكي على هذا النّحو. أمّا هذا فهو لسِيسّاليو ماتاروزّو، الرّجل الّذي يحمي الفنّانين وينظّم تظاهراتٍ كلّ سنتيْن.

لم يجرؤ زي أوروكو على سُؤاله عن التّظاهرات الّتي تلتئم كلّ سنتيْن، سيعرف ذلك مع الوقت، فلديه الوقت الكافي لكلّ شيءٍ.

- أمّا الّذي يضحك عاليًا، فهو الدّكتور لويس كويلو.

يا إله السّماء! كم يضحك هذا الرّجل! ضحكته العالية تشبه في تردّدها عاصفةً كبيرةً في الأراغوايا! إنّها تصمّ الآذان وتؤلمها، من المُوجع للرّوح أن يقدر شخصٌ على الضّحك بهذا الشّكل. لا يفهم زي أوروكو كيف يُمكن أن يرغبَ شخصٌ في الضّحك إلى هذه الدّرجة، ألم يفقد أحدًا في حياته؟ ألم يمرض أحدٌ من أصدقائه بالسّرطان، أو...؟، في كلّ الأحوال، لا شكّ أنّه يملك صبر الأشجار، فالدّكتور لويس كويلو كان رجلًا طيّبًا ذا قلبٍ كبيرٍ.

يأتي دور طبق السّمك الصّغير المقليّ المُخصّص للفنّانين الّذين لا يطلبون إلّا كأسًا من الغوارانا[1] بين حينٍ وآخر، مع شطيرةٍ من الجبن القويّ لتعويض فقر وجبة العشاء، لم يكن لهؤلاء الحقّ إلّا في الجلوس على المقاعد البيضاء في حديقةٍ تُوجد خارج البار، قُرب المدارج. يجلسون هناك مثل عصافير الصّيف، دون أن يجرؤوا على غزو الحانة ومُضايقة الحرفاء الجيّدين الّذين ينفقون كثيرًا من المال، إنّهم لا يزعجون أحدًا على الرّغم من أنّ عدد الجالسين في الخارج يفوق عدد الموجودين داخل البار في أحيانٍ كثيرةٍ.

- ويسكي من أجل الدّكتور ألمايدا ساليس.

يقول النّادل وهو يضعُ مُكعّبًا من الثّلج في ويسكي الدّكتور ساليس المُنهمك دومًا في التحدّث بالهاتف أو في خوض نقاشاتٍ حول السّينما.

---

(1) مشروبٌ مستخرَجٌ من نبات الغوارانا الموجود بكثرةٍ في منطقة الأمازون البرازيليّة، وهي تحتوي على مادّة الكافيين ومنبّهاتٍ أخرى، تُستهلك مذابةً في الماء أو في عصير الفاكهة.

إنّ زبائن البار يُعاملون زي أوروكو بكلّ ودٍّ، ولكنّ فتاةً شابّةً اسمها غُلورينيا علّقت على حُزنهِ قائلةً لأحد أصدقائها:

- هل لاحظت أنّ زي أوغيستو لا يضحك مُطلقًا؟ إنّه لا يكاد يبتسم!

- نعم، صحيح.

- وحتّى عندما يبتسمُ، يظلّ الحُزن مُستقرًّا وسطَ عينيه.

في هذه اللّحظة خفض زي أوروكو عينَيه وعاد إلى خلفِ البار، تماسك وذكّر نفسه بأنّ «الشّجرة شجرة والويسكي ويسكي لا أكثر».

- هكذا هو الأمر زي أوروكو.

قال له حُزنه.

- لقد تمكّنت من إيجاد طريقةٍ مُلائمةٍ لتُواصل حياتك رغمَ كلّ شيءٍ.

ربّما عجز كُلّ هؤلاء عن التّفكير في أنّ رجلًا يحمل المشاغل التي يحملها أيّ واحدٍ منهم يقبعُ في صمتٍ خلف سترة نادل البار.

كان آرثور يُجرّب كأس كونياك، رفع عينيْه ونظر ناحية مدخل البار ثمّ قال لزي أوروكو مشيرًا برأسه:

- زي أوغيستو، اذهب إلى مقاعد الفنّانين. إنّ السيّد موتارازّو جالسٌ، لعلّه يريد طلب شيءٍ مّا.

اخترق البار الفارغ وقصد المدخل:

- مرحبًا سيّد موتارازّو. هل تريد شيئًا؟

استعاد الرّجل نفَسَه وابتسم. ثُمّ حاول تفسير الشّيخوخة الّتي بدأت تظهر عليه بأكثر ما يمكن من هُدوءٍ:

- إنّي مُتعبٌ. هذه الدّرجاتُ صعبةٌ، تكاد تكتم أنفاسي.

نظر زي أوروكو إلى الرّجل الّذي بدا له طيّبًا جدًّا، فهو يساعد كلّ هؤلاء الرّسّامين الّذين لا ينتجون أكثر من لطخاتٍ غامضةٍ، بل يُقال أصلًا إنّ كثيرًا منهم يُقابلون كرمه بجحودٍ كبيرٍ، وإنّه رغم ذلك لا يغضب ولا يُعير هذه الأمور أيّ أهميّةٍ تُذكر. نظر مليًّا إلى ربطة عُنقه، الرّبطة الأكبر في العالم، وتساءل في سرّه عن سببِ ارتدائه ربطةَ عنقٍ بهذا الحجم، لكنّه لم يعثر على جوابٍ، ففي عالم الفنّانين، يفعل كلّ شخصٍ ما يخطر له.

- اطلب من أرتور أن يعدّ لي «كامباري»[1]، إنّه يعرف كيف أُحبّه.

- هل تريد شيئًا آخر، سيّد موتازارّو؟، هل أجلب لك الـ«كامباري» هُنا، أم داخل البار؟

- هنا، فالجوّ خانقٌ جدًّا في الدّاخل.

عاد زي أوروكو بأسرع ما يمكن حاملًا الكأس المُمتلئة بالسّائل الأحمر فوق طبقٍ صغيرٍ، فتناول سيسيلاو ماتارازّو الكأس وابتسم.

- هل تريد شيئًا آخر، سيّد ماتارازّو؟

---

(1) كامباري: Campari، شرابٌ أحمر من أصلٍ إيطاليٍّ.

- اِنْتَظِرْ.

ظلّ ينتظر بهُدوءٍ تامٍّ حتّى ينتهي الرّجل من ابتلاع رشفته الأولى الكبيرة، وقد شعر بعدم ارتياح من أن يكون مراقبًا من طرف رجلٍ ثريٍّ، على الرّغم من وعيه بأنّه في مظهرٍ مُلائمٍ، فسترته وقميصه نظيفان، وزوجَي حذائه ملمّعان وطيّة بنطلونه مُنجزةٌ بعنايةٍ. ابتسم الرّجلُ ابتسامة من يريد التّحدّث، ثُمّ سأل:

- منذ متى تعمل هُنا؟

- منذ ثمانية أشهرٍ تقريبًا.

- لكنّ هذا العمل لا يُعجبك، أليْس كذلك؟

هزّ زي أوروكو كتفيْه بلامُبالاةٍ:

- لا بدّ من العمل.

- لا تحبُّ المدينة، صحيح؟ كثيرًا ما سمعتهم يتحدّثون عن ذلك.

عادت إحدى الأفكار تُسيطر على ذهنه مرّةً أُخرى، فكرة لم يكن يتأمّلها إلّا سرًّا في غُرفته الصّغيرة بـ«لابّا»، ولطالما حاول نسيانَها بكلّ ما أوتِيَ من جهدٍ، فكّر في الكوخ، هناك قرب النّهر، تخيّلهُ مُمتلئًا بالعصافير، كوخٍ بسيطٍ مع زورقٍ صغيرٍ بسيطٍ وأشجارٍ بلا خصوصيّاتٍ. تنهّد زي أوروكو.

- أنا عكسك، لا أستطيع العيش بعيدًا عن أرصفة المدينة، لا أستطيع العيش بعيدًا عن الأصدقاء والسّينما...

هكذا هو الأمر دومًا، إنّها القصّة الأبديّة نفسُها، القصّة الّتي تتحدّث عن إعطاء الله الجوز لمن لا يقدر على تكسيره، لا بُدّ من أنّ ذلك صحيحٌ، دون أدنى شكٍّ، إذ يمكن لسيساليو ماتازارّو أن يمتلك كلّ العقارات الّتي يريد، في المدينة وفي الأرياف أيضًا، لكنّ الأمر لا يروقه كثيرًا...

- لماذا لا تعود إلى السّيرتاو؟

هزّت رعدةٌ حلقَ زي أوروكو. كيف عرف هذا السّرّ؟ لا شكّ أنّ أحدَهم أطلعه على ذلك، إنّ الأمر في غاية الوضوح.

- لا تنزعج كثيرًا. أنا على علمٍ بكلّ شيءٍ.

شابك يديه فوق صدره باضطراب:

- كيف يُمكنني أن أعود، سيّد ماتازارّو؟ الحياة تزداد غلاءً كلّ يومٍ، ولستُ قادرًا على ادّخار فلسٍ واحدٍ.

- لكن، ألم يكن لديك معاشٌ صغيرٌ قبل أن يتمّ اقتلاعك من السّيرتاو؟

- لم أعد أعرف إلى أين آلت الأمور، خفت من الذّهاب للمُطالبة به، إذ سيكتشفون أنّي خرجتُ من مصحّةٍ نفسيّةٍ، فضلًا عن إمكانيّة فقدان عملي...

بدا سيساليو ماتازارّو متأثّرًا بعُمقٍ.

- إلى كم تحتاج لرحيلك؟

- مبلغًا كبيرًا. الرّحلة في حدّ ذاتها مُكلفةٌ كثيرًا، لديّ هناك

كوخي الّذي لا شكّ أنّ الأمطار نخرته، أحتاج إلى زورقٍ جديدٍ، فضلًا عن بنطلونات أشياء أخرى كثيرةٍ...

- كم يُكلّف كلّ هذا في رأيك؟

- أموالًا طائلةً في حدود الثلاثين ألفًا.

- سأحصل لك على المبلغ.

- لكنّي لن أتمكّن من إرجاعه.

- من تحدّث عن ضرورة إرجاعه؟

تناول الرّجل رشفةً أخرى كبيرةً بهدوءٍ نادرٍ، بينما ظلّ زي أوروكو جامدًا في مكانه، مندهشًا، لا يجد ما يقول. إنّها المعجزة الثّانية الّذي يسعفه بها القدّيس فرنسوا الأسيزي...

انتصب سيساليو ماتازارّو واقفًا عند بوّابة البار:

- سأتحّدث مع المحامي، محامي عمّال المعادن، وستحصل على معاشك من جديدٍ. سأنشغل بالأمر ابتداءً من الغد.

دخل إلى البار بينما ظلّ زي أوروكو في مكانه مُندهشًا جدًّا، لا يستطيع فعل شيءٍ غير تدوير الكأس الفارغة والباردة بين يديه، إنّه لا يستطيع فعل شيءٍ، ولا يعلم ما الّذي يُمكنه أن يُقدّم لهذا الرّجل، لكن، لو أراد فسيكون زي أوروكو مُستعدًّا لتلميع زوجَي حذائه.

ابتسم له القدر، وها هو على أهبة الاستعداد للعودة إلى حياته الماضية. أخبره الدّكتور أوزوريو بأنّه قد شُفيَ تمامًا ولم يعد يشكو من شيءٍ لذلك باستطاعته المغادرة.

استقلّ طائرة «الكروزايرو دو سول»[1] وتوقّف في مدينة «ريبيراو بريتو»[2] ثمّ «ساو جواكيوم دو بارّا» فـ«بيرس دو ريو»، فـ«غوانيا» فمدينة «غاواس» ومن هناك طار العصفور الحديديّ في اتّجاه الأراغوايا مباشرةً. لقد قطع هذه المسافة الدّائرة مثل لَقْلَقٍ فضيٍّ عملاقٍ يُحلّق فوق الشّمس، ويواصل علوَّ النّهر اللّامع المُحاط بشواطئ بيضاء. حينئذٍ ابتسم زي أوروكو للمرّة الأولى، بفرحٍ أكثرَ صفاءً.

وصلَ إذَن إلى «أروانا»[3]، مدينة المُتحضرّين، وراحَ يمشي على ضفاف النّهر مُستنشقًا رائحة الأرض والمنازل والأكواخ، مُحدّقًا بفرحٍ في كلّ ما كان ملكًا له في السّابق، التقى هُناك بأصدقاء قُدامى وأطفالٍ صاروا رجالًا، وسألهم عن أناسٍ كثيرين رحلوا عن المنطقة أو ماتوا.

في المساء، جلس زي أوركو تحت الشّجرة-الطّنبور[4] ليتأمّل النّهر الصّديق، المليء بالحنان، ولو كان زي مثلما كان في السّابق لسألَه النّهر عن مشاعره، ولأجابه بأنّه قد صار أقلّ حزنًا.

لمح في الميناء سفنًا ذات محرّكاتٍ وقوارب عديدةً مشدودةً إلى الضّفة، وهي تتمايل بين أذرع المياه الصّاخبة المنحدرة من «ريو

(1) شركة طيرانٍ برازيليّةٌ قديمةٌ.
(2) مدينةٌ برازيليّةٌ تقع جنوب شرق البرازيل، الكلمة برتغاليّة وتعني «النّهر الأسود».
(3) أروانا: الاسم القديم لمدينة ليوبولدينا البرازيليّة.
(4) الشّجرة – الطنبور: تُسمّى بهذا الاسم لأنّ لها شكل طنبور.

فيرميلهو»[1]. كانت كلّ السّفن تستعدّ للإبحار، وكانت الطّائرة قد جلبت كومةً من السيّاح المسلّحين حتّى أسنانهمْ بقَاطعات أشجارٍ على أهبة التهام كلّ شيءٍ، فخمّن أنّه من حسن حظّ سكّان الغابة ألّا يتمتّع هؤلاء السّيّاح بكبرياء الصّيّادين الحقيقيّين. لم يستطع رؤية طائر أبي منجلٍ ولا دجاجة ماءٍ في سلامٍ. وعند حلول المساء، بينما كان داخل بار في ليوبولدينا، علم أنّ نهر الأراغوايا سينتهي إلى الموت مثلما هو حالُ البرازيل كلّها. لقد فهم ذلك من كلام صبيٍّ يتحدّث بكلّ فخرٍ من خلف المنضدة:

- من المُؤكّد أنّهم سيمنعون تصدير بيض السّلاحف، ولكن لا يهمّ، ففي السّنة الماضية تمكّنت وحدي من إيصال ستّة آلافٍ منها إلى غوانيا...

قلّ عدد التّماسيح كثيرًا، من المُمكن أصلًا أن يقضي الصّيّادون على آخرها! لم يتبقّ منها سوى بعض تماسيح استطاعت النّجاة في البحيرات الضّائعة. أمّا سمكة البيراروكو العملاقة فقد تحوّلت إلى أكوامٍ من الجلود الجافّة تحت الشّمس، والقضاعة العملاقة صارت مطلوبةً مقابل أثمانٍ من ذهبٍ على الرّغم من منع صيدها... إنّ كلّ شيءٍ ينتهي ويذبُل ويفنى، هذا لأنّهم يريدون للبرازيل أن تنتهي.

بعد يومين كان زي أوروكو بصدد قطعِ النّهر على متن سفينةٍ بخاريّةٍ تابعةٍ لأنطونيو بيريرا، وهو رجلٌ طيّبٌ، حاذقٌ ومُجتهدٌ يُمارس التّجارة في غوانيا زاحفًا مثل شيطانٍ، ويعرف النّهر مثلما

---

(1) ريو فيرميلهو: مدينة تابعة لولاية «باهيا»، والكلمة تعني «النّهر الأحمر».

يعرف كفّ يده، ومن عاداته أن ينظر في ساعته ليُخمّن الوقت الّذي سيستغرقه من ميناءٍ إلى آخر، ويُصيب دومًا في معرفة الوقت بدقّةٍ غريبةٍ.

حلّت اللّيالي الباردة، وفي هذه اللّيالي يحدثُ النّومُ على الشّاطئ على مقربة من نارٍ تدبّ في الأغصان الجافّة، إنّها ليالٍ طويلةٌ يكثر فيها انتشار نجومٍ في السّماء وتُسمع فيها صرخات الطّيور بعيدًا.

استأنفوا الرّحلة قبل شروق الشّمس، شاقّين البرد الّذي كان يُكبّل تقدّم السّفينة، كانت السّاعات المُشمسة رتيبةً، وكان زي أوروكو غاضبًا، فهو يكادُ يُجنّ من ثقل الصّبر الّذي تحمّله في انتظار وصوله إلى هدفه، بينما يتوقّف هذا الشّيطان أنطونيو بيريرا كلّ مرّةٍ ليَبيع خردواته وسلعه!

رغم غضبه كان يعرف أنّهم سيصلون يومًا مّا، وها قد وَصلوا في نهاية الأمر.

- ها قد وصلنا زي أوروكو. إنّك في ديارك. في حاجز بيدرا الّذي تتطلّع إليه منذ أيّامٍ.

التقى بماضيه مُجدّدًا، كان يقترب منه حثيثًا، وكان قلبه يَرى كلّ شيءٍ بتأثّرٍ بينما يُصلّي هو في سرّه آملًا أن تُسعفه الشّجاعةُ ليتحمّل ما ينتظره بسعادةٍ. كان يخشى أن يشعر بخيبةٍ ممّا سيلقاه، لكنّ الله سيقوم بدوره حتمًا، وستكون خاتمته سعيدةً أو على الأقلّ سيجد طريقةً مّا للتكيّف مع حياته السّابقة دون عناءٍ كبيرٍ.

مَن هذا الّذي يمدّ إليه يده ليساعده على تسلّق الضّفة؟ إنّه

كورو، وهو رجلٌ يتضّح كلّما ابتسم أنّ جهة فمه الأماميّة خاليةٌ من الأسنان:

- ها قد عدت، زي أوروكو!

- نعم.

توجّه صوب كوخ مادرينها فلور، فبدت له حياتها كأنّها لم تتغيّر مطلقًا. وفي الطّريق شعر بكلّ النّظرات المُوجّهة إليه والمُمتلئة بالشّكوك، لكنّه ألزم نفسه بالابتسام دون اكتراثٍ حتّى يُثبت للجميع أنّه شُفيَ تمامًا.

كانت الصُّعوبة هي مواجهة مادرينها فلور، لم يكن الأمر سهلًا، فقد ظلّا يتبادلان التحديق بإنهاكٍ، لقد صارا عجوزيْن، لذا تواجهَا دون أن يلوم أيّ منهما الآخر. لم يعد بإمكانهما الآن أن يطمحَا إلى إعادة إحياء ذكرياتهما، أو إلى إثارة أيّ أشياء قد تعني الجنس، لقد تحوّلَا إلى شخصين مُختلفين، إنّهما جسدان آخران، جسدان يكتفيان بابتسامات لقول كلّ شيءٍ، وبعد ذلك يَغرقان معًا في صمتٍ أخرق.

كانت مادرينها فلور تمشي منحنيةً نحو الباب، جافّةً، بلا صدرٍ، تجرّ خُفّين وتصرخ بصوتٍ غليظٍ:

- هاي، أيّها الصّغير، أمسك بتلك الدّجاجة!

ثُمّ تعود بالنسق نفسه لتجلس إلى جانب زي أوروكو وهي تدعك كليتيْها المُتعبتيْن:

- لقد صرنا عجوزَين، زي أوروكو!

- نعم، فرو. يمضي النّاسُ وتبقى الحياة.

هذا كلّ ما قالاه. بعد ذلك انهمكا في الحديث عن حياة الآخرين، فالعجائز لا يحسنون سوى التّعليق عمّا يحدث الآن وعمّا حدث في الماضي، إنّهما يعلمان ذلك ويُؤكّدانه أيضًا:

- ماذا عن الكوخ؟

- مازال مُنتصبًا، لكنّ أضراره كبيرة، من المؤكّد أنّ الأمطار القادمة ستجرفه إذا لم تصلحه.

- سنرى. هل كانت السّيول قويّةً؟

- تدفّق سَيْلَان قَويّان منذ رحيلك، وقد وصل الماء إلى مطبخي.

- يا إله السّماء!

بعد ذلك تذكّر زي أوروكو شخصًا مهمًّا، فسألها:

- هل قام شيكو دو أديوس برحلته؟

رسمت مادرينها فلور إشارة الصّليب وقبّلت إبهامها، ثُمّ أجابت:

- ذات يومٍ ذهب للصّيد في النّهر، فعثرنا على الزّورق وقد كان ميّتًا بداخله. لقد قام برحلةٍ على متنِ زورقه في اتّجاه السّماء.

مرّر زي أوركو يده على شعره ببطءٍ:

- وروزينها، زورقي الصّغير؟

تأمّلته عينا مادرينها فلور الضّعيفتان ببعض الانشغال.

- لا تقلقي. لقد شُفيتُ، شُفيتُ تمامًا. أتحدّث عنه مثلما أتحدّث عن كوخٍ، عن خضراوت...

- إنّها هنا.

وأشارت إلى أطراف ساحل بيدرا.

- لا بُدّ أنّها هناك، مشدودة إلى وتدٍ في المرعى.

تأمّل زي أوروكو شعر مادرينها فلور المُبيَّض بالكامل وقد راحَ يتملّص من خرقةٍ لعينةٍ مشدودةٍ إلى رأسها. في هذه اللّحظة أدخلت يدها إلى جيب تنّورتها وأخرجت غليونًا.

- كُنت ترفضين التّدخين أمام النّاس، يا فرو.

- كان ذلك في الماضي.

ليلًا، تناولا دجاجًا مصليًّا مع دقيق البفرة، وفكّر زي أوروكو في جبل الأشياء الّتي سيكون عليه فعلها، بدءًا بإصلاح الكوخ ووصولًا إلى شراء زورقٍ جديدٍ.

فكّر في سيساليو ماتازارّو بصمتٍ وشكره من أعماق قلبه على طيبته، ما كان له أن يعود وأن يرى هذه الأنحاء لولا مُساعدته.

- مساء الخير!

اقتحم المكان رجلٌ أسود مفتول العضلات وتبدو على وجهه علامات الطّيبة. أضاف:

- مساء الخير، مادرينها فرو. إن لم أكن مُخطئًا، فهذا زي أوروكو!

- وأنت جيريبيل، أليس كذلك؟

تصافحَا بحرارةٍ.

- لقد صرتَ رجلًا، جيريبيل، لكن ما هذا؟

سألهُ ونظر إلى يده الأخرى الّتي كانت تمسك بطائر أبي منجلٍ ميّتٍ.

- هذا... إنّه أمرٌ عجيبٌ. كنت أصطاد بالشّاطئ السّفليّ، ورأيت هذا الطّائر الأحمق بصدد اللّعب على الشّاطئ، طيور أبي منجل جبانة، أليس كذلك؟ يكفي أن نقترب منها حتّى تفرّ... لكنّ هذا الّذي أمسكه بيدي لم يفعل... لقد اقتربتُ منه وأخذت الـ 22.[1] والمضحك في الأمر أنيّ تمكّنتُ من الإمساك به.

حينئذٍ ألقى بالطّائر الميّت على الطّاولة، وفتح عينَيه الميّتتين بأطراف أصابعه:

- انظر إلى هذا الأحمق، إنّ عينيْه زرقاوان، لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبل!

صرخت مادرينها فلور مندهشةً:

- يا إلهي! هذا غريبٌ! كأنّهما عينَا إنسانٍ!

لم يعد زي أوروكو قادرًا على التّنفّس، خرج صوته مُرتعشًا وقال لنَفسه بصوتٍ مسموعٍ لأنّه الوحيد القادر على فهمِ كلامِه:

- إنّها هي...

---

(1) سلاح ذو عيار 22.

لكنّه سرعان ما لجم مشاعره، لأنّ هذه القصّة قد نُسيَت تمامًا، بالإضافة إلى أنّه وَعد نفسه بألّا يتذكّر شيئًا مُجدّدًا، من الأفضل له إذَن أن يهجم على هذه الدّجاجة الشهيّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

(13)
حبيبتي، روزينها

وصل زي أوروكو إلى الكوخ، فاكتشفَ أنّه ما يزال قائمًا بمُعجزةٍ، إذ جرفت السُّيول كلّ القشرة التُرابيّة المُجفّفة الّتي تُغلّف الحيطان، وأحدثت ثقوبًا مَهولةً بالسّقف، وهكذا صارت نُجوم اللّيل تعكس رسوماتٍ مُسنّنةً على الأرضيّة المَليئة بالحُفر والنّتوءات. يُوجد روث بقرٍ في كلّ ركنٍ، بينما يطنّ البعوض والذّباب في الدّاخل بلا انقطاعٍ. اندهش زي أوروكو من قُدرة الزّمن على تدمير الأشياء، فلم تنقضِ أكثر من أربع سنواتٍ!

ظلَّ في الخارج مُتّكئًا على ما يُمكن اعتباره بَابًا، وألقى نظرةً على النّهر الصّديق الصّلب والجامد الّذي لم يكفّ عن تقليب مياهٍ مُتجدّدةٍ وغريبةٍ، كان الجوّ حارًّا، قرصت بعوضةٌ وقحةٌ جلدتَه البيضاء على مُستوى ذراعه، وكان العرق يسيل بغزارةٍ على طولِ بطنه المُنتفخ قليلًا، فراح زي أوروكو يمسح العرقَ بيدٍ بينما يطرد البعوض بيدِهِ الأخرى.

سيحلّ المساءُ قريبًا. تذكّر زي أوروكو موقدَه الحجريّ القديم، فدار بمكانه باحثًا عنه حتّى وجدهُ مرميًّا في الرّكن مثلَ جُثّةٍ قتلها البرد والهجر.

حينئذٍ نظر إلى الخارج مُجدّدًا وتوقّفت عينَاه عند شجرة البيكي.

«الشّجرة شجرة لا أكثر».

بدت الشّجرة غارقةً في جوٍّ من اللاّمبالاة، تعيشُ حياتها النّباتيّة بعُمقٍ ولا تكاد تُحرّك أغصانها استجابةً لنسيم المساء.

أين ذهبت كلّ تلك العصافير؟ أين ذهب أولئك الأصدقاء الّذين كانوا يستقرّون بيديه دُون خوفٍ؟ لا جدوى من إطلاق صفيرٍ، لن يأتي عصفورٌ واحدٌ. إنّ ذاكرة العصافير قصيرةٌ، ومن المُؤكّد أنّها ملّت الانتظار فرحلت إلى غير رجعةٍ، ولكنّ هذا أفضل في النّهاية، لأنّه لا ينوي البقاء في حاجز بيدرا، وإذا تعوّدت تلك الكائنات الصّغيرة على حضوره مُجدّدًا، فإنّها ستُعاني مرّةً أخرى من ألم الفراق. ربّما قرّرت العصافير الرّحيل بعد أن أمطرها الأطفال بوابلٍ من الحجارة، لقد منعهم من فعل ذلك عندما كان يُقيم هُنا، ولعلّهم أقدموا على ذلك في غيابه، ومن المُمكن أيضًا أن تكون العصافير قد رحلت مُمتثلةً لأوامر أوروبيانغا، ولكن كيفَ يستطيع معرفة ما حدث في غيابه؟

مرَّر يده على رأسه، وفكّر في أنّ التّفكير في الأشياء الّتي يُحبّها لن يُفيده في الوقت الرّاهن، لقد تغيّر ولم يعد يحمل قناعات الماضي نفسها.

بدا النّهر بغيضًا، وبدت المناظر الطبيعيّة حزينةً وقبيحةً. أطلّت زوارق الصّيادين من الضفّة الأخرى برتابةٍ، بينما كانت المياهُ مُلوثّةً بوحل الأمطار الأخيرة.

كان صمت الأشياء المطبق يُثير أعصابه. إلى أين رحل كلّ سلام هذا المكان؟ أين ذهبَ الملجأ الّذي احتواهُ طوال حياته؟

لا شيء، كانت يدَاه مُثقلتيْن بالهجران والصّمت. إنّها ساعة الخيبة الكبرى.

«الشّجرة شجرة لا أكثر».

لقد كانت الشّابّة مُحقّةً، إنّه عاجزٌ حتّى عن الابتسام لهذه البداهة، ربّما يكون مُحتفظًا في قرارة نفسه ببعض الأمل في العُثور على سعادته الماضية أو إعادة اكتشافها بين التّفاصيلِ المُلغّزة لهذا المَشهد المُحترق... سيركب أوّل باخرةٍ تمرّ ليعبر النّهر، ولكن إلى أين سيذهب؟ ولماذا؟ لن يُفيده اجترار حُزنه ساعاتٍ بالمُدن الكُبرى، ستكون ساعاتٍ مجنونةً وسيكون عذَابَهُ الأعظم، رُبّما من الأفضل له أن يبحث عن أماكن أُخرى ليبدأ حياةً جديدةً، ولكن كيف؟ يُصيبه الدّوار كلّما فكّر في هذا الأمر. إنّه مُجرّد شيخٍ هرمٍ لا يقوى على بدء أيّ شيءٍ جديدٍ ولا يعرفُ حتّى من أيّ مكانٍ يُمكنه أن يبدأ. من الأفضل إذَن أن يتحمّل السّاعات في انتظار الشّيخوخة الّتي على الأبواب، أن يتحمّلَ شقاءَها وشفقةَ الشّبّان عليه وأن يُحاول قدرَ الإمكان عدم إثقال كاهل الآخرين بمأساتِه. رُبّما يكون الابتعاد أفضلَ خيارٍ، الابتعاد والمشيُ دُون توقّفٍ، ولكنّه كان جامدًا في مكانه وقد مزّقه القلق وَشلّ حركته.

ضغط على صدغيه بكلتا يديْه. لمْ يبق له سوى الإيفاء بالوعد الّذي قطعه.

إنّه عجوزٌ، أصبح شعره أبيض، وقد رأى بوُضوحٍ الخراب الّذي ألحقه الزّمن والمرض بجسدِه في عينَيْ مادرينها فلور المُطفأتيْن. لقد انتهى بلا شجاعةٍ، انتهى من أجل لا شيء، وصار بلا جدوى أكثرَ من مسكنٍ تداعَى من فرط الهجر والبرد.

من الأفضل أن يُدخّن وينتظر حُلول اللّيل الّذي سيهبط ثقيلًا ليُعمّق شُعوره بالإحباط بكُلّ بُرودٍ.

عندما سأل جيريبيل الّذي أصبحَ راعي بقرٍ كبيرٍ، وهو رجلٌ أسود دائم الابتسامة والودّ، عن مكان زورقه الصّغير، لمح في عينيْه النظراتِ التي لمحها في أعين الآخرين المليئة بالانزعاج، إنّهم يفكّرون جميعًا في الشّيء نفسه: «هل يُمكن أن يُجنَّ من جديدٍ؟ هل سيُعاني من الحالة نفسها؟ وهل سيعود إلى ما كان فيه من هوسه القديم؟»، إنّهم عاجزون عن فهمه، فهو لا يريد أكثر من الإيفاء بوعدٍ قطعهُ، والوعد كلمةٌ، قد تُقال لإنسانٍ أو حيوانٍ، وقد تُقال ببساطةٍ لزورقٍ.

- إنّه هناك، قرب المرعى المُحاذي لضفّة النّهر، إنّه في المكان الّذي تمرّ منه الأبقار.

لقد رموا بزورقه القديم على مقربةٍ من مرعى النّهر، في مكانٍ نتنٍ تتكوّم فيه الفضلات ويختلط فيه الوحل بروث البقر والخُيول، ولكنّ هذا أفضل من الإلقاء به في الضّفة حيث سيتعفّن من كثرة هطول الأمطار، وسيتحوّل إلى معلف للدّواب، فيُلْعَق يوميًّا بألف لسانٍ غليظٍ.

غيّر زي أوروكو مسار أفكاره. تذكّر فجأةً أنّه سأل عن أنديدورا، وأنّهم أعلموه برحيله إلى الأبد. لعلّه الآن يرقد في عمق المياه، أو يُسافر صوب نجمةٍ من النّجمات، أنديدورا المسكين! «لقد مات نحيلًا، نحيلًا... وكان السّعال يلتهمهُ من الدّاخل، لقد وصل في النّهاية إلى بصق الدّم!...».

كان أنديدورا قويًّا، واستغلّ ذراعيه وخفّة حركته ليصطادَ التّماسيح والقضاعة العملاقة، كان يتمكّن من صيد السّلاحف والبيرارا العملاقة أيضًا، ولكنّ الدّم كان ثمن كلّ هذا، الدّم المتناثر هنا وهناك إثر رجّاتٍ في صدره الهزيل. يراهن زي أوروكو على أن يكون أنديدورا قد مات بلا ضغينةٍ، مثل كلّ الهنود الّذين عرفهم وقد هلكوا بأمراض البيض. أنديدورا، الّذي يعني اسمه «الببّغاء الأحمر»، صديقه الّذي مات ناظرًا إلى الشّمس والنّهر والشّاطئ، أو ربّما كان في مهبّ الأمطار العظمى. من حسن حظّه أنّه قد حظي بهذه المُواساة على الأقلّ، فمن أقسى ما قد يحدث للمرء هو أن يموت بين جُدران خَبِرَها وحفظها ولفَظَها بما يكفي.

عمد إلى فرقعة أصابعه ليكتشف أنّ سيجارته قد انطفأت، كان رائحتها غير مُحتملةٍ، فألقى بها على الأرض، الأمر الّذي أرعب صرصارًا كان بصدد قضم نبتةٍ يافعةٍ. لا شكّ أنّها الرّابعة مساء. في الحقيقة، إنّه لا يفعل شيئًا سوى البحث عن القليل من الشّجاعة، وعن بعض الأسباب المُقنعة، حتّى يتمكّن من مُلاقاة زورقهِ.

أحسّ زي أوروكو بأنّ رجليه انتفختا من فرط الحرارة، فحكّ

إحداهما بالأخرى، وعاد ليُفكّر بزورقه المرميّ قُرب مرعى النّهر. «كفى! كفى حماقاتٍ، إذا كان عليَّ أن أذهب إلى الزّورق فمن الأفضل أن أفعل ذلك في الحال!».

تناول المجذاف الّذي استعاره من جيريبيل وغادر الكوخ. رغم كلّ شيءٍ وُجدت أعشابٌ خضراء على طُول الطّريق الفاصلة بين مسكنه والنّهر. من الغرابة أن تجعله كلّ هذه الأشياء يشعر بما يشعر به الآن، لا شكّ أنّها الشّيخوخة، أو ربّما يكون مثلَ هنديٍّ في هذه اللّحظة الّتي يتأرجح فيها بين طرفيْ نقيضٍ، لا يُريد أن يبقى هُنا، ولا يُريد أن يَذهب إلى المدينة. فكّر في أنديدورا مُجدّدًا، لقد عاش صديقه الشّيء نفسَه وَتأرجح هو أيضًا بَين نقيضين ارتسما أمامه بكلّ قَسوةٍ. لا يريد زي أوروكو، أو رُبّما لا يستطيع، أن يكون هنديًّا، لكنّه في الوقت نفسه عاجزٌ عن الذّهاب إلى المدينة والعيش فيها. كان الواقع يرتسمُ بوُضوحٍ على وَجهه المُتأثّر.

لم يعد زي أوروكو قادرًا على التقدّم أكثر. أصبح جسده أكثر ثقلًا من المعتاد، وشعر بأنّ كلّ جزءٍ منه قد تضاعف وزنه، أمّا لسانه فقد كان جافًّا غير نافعٍ بالمرّة، لا يفعل شيئًا غير الدّوران باضطرابٍ وسطَ فمه الّذي تكثّف طعمُ المرارة داخله. توقّف مُتردّدًا في مُناسبتيْن، وكان وعيه يُحذّره في كلّ مرّةٍ: «إنّه العار! إنّه مجرّد زورقٍ صغيرٍ! إذا لم تتمكّن من الذّهاب فهذا يعني أنّك تخشى الواقع، إنّك تخاف التّفكير في مرضك مُجدّدًا، إذا لَمْ تذهبْ أيّها الأحمق، فأنت تؤكّد أنّ كلّ ما حدث لك كان في محلّه، لا تنسَ أنّك مُطالبٌ بالإيفاء بوعدٍ، تقدّم وستكتشف حالتها، ستكتشف إن كانت «روزينها» ما

تزال قادرةً على أن تطفو على سطح المياه، ضعها على النّهر، ورافقها في اتّجاه إحدى الشّواطئ البعيدة.. أمّا إذا لم تعد قادرةً، فانتظر حلول اللّيل، حيث لا يمكن لأحدٍ أن يراك و....».

تجاوز أكواخ النّهر، وعندما كان بصددِ تجاوز آخر مسكَنين للهُنود ظَهر اكزيرّيرو من خلف الباب بجسده المفتول وفمه المهول، وعبّر عن سعادته برؤية زي أورَوكو قائلًا:

- هل عدت يا زي أوروكو؟

- نعم. لقد عدتُ.

- هذا جيّدٌ، إنّي سعيدٌ.

- شكرًا. أين حدّدتم مرعى الأبقار؟

- هناك.

وأشار بإصبعه إلى طرف القرية، حيثُ يُوجد مُنحنى النّهر.

- لقد أبعدنَا المرعى قليلًا. يضمّ القطيع الكثير من الزّيبو[1]، رائحتها كريهةٌ مثلما تعلم.

- سأذهب إلى هناك.

لاح لزي أوروكو طرف القرية من بعيدٍ، وتمكّن من تبيُّن مُنحنى النّهر المُحاط بأشجارٍ سامقةٍ. إنّهم يضعون بين الأوتاد الكبيرة القطعان الّتي تروح وتغدو بين غواياس وماتو غروسّو. لاحظ أنّ الأوتاد نخرةٌ تقريبًا ومُركّزةٌ على عجلٍ.

(1) تُسمّى أيضا الماشية الهنديّة، وهي جواميس تتميّز بحدبة على ظهورها.

تنفّس بقُوّةٍ ساعيًا إلى تحفيز نفسه، ثُمّ نزل في اتّجاه أرضِ الحظيرة المُوحلة. صارَ يتنفّس بصُعوبةٍ كبيرةٍ، فحاول أن يُحفّز نفسه قائلًا في سرّه إنّ ما يحسّ به يُعدّ من مُخلّفات الشّيخوخة لا غير.

واصل النّزول بعينيْن خفيضتيْن لا تُدركان إلّا قدميه. ثُمّ توقّف على حافّة النّهر فأدرك أنّ التيّار قويٌّ ومُمتلئٌ بالدوّامات السّريعة.

عليه أن يبحث عن زورقه، راح يقُلّب الضّفة بعينيه مُنطلقًا من الشّمال. لا يُوجد شيءٌ. لكنّه عندما استدار ناحية اليمين، أُجبر على الاستناد إلى المجذاف حتّى لا يسقط: إنّها روزينها، إنّها هناك!

دمعت عيناه. لقد كان مُتأكّدًا من رؤيتها مُجدّدًا، كان على يقينٍ من أنّه سيشاهد رفيقة عمله القديمة وشريكة جهده الجبّار.

شمّر زي أوروكو بنطلونه وعبر ضفّة النّهر الّتي تفصله عنها. ابتلع جُرعةً من الحُزن بدلًا من ريقه، وكانت يداه ترتعشان وهُما تُمسّحان على الزّورق الصّغير، الصّغير جدًّا، الّذي اختُزل إلى شيءٍ بلا شكلٍ تقريبًا. لقد فقدت روزينها حوافّها، قضمت الدّيدانُ كلّ مقدّمتها تقريبًا، عبثت بها الأمطار وسرقت منها أشعّة الشّمس ألوانَها، فضلًا عن أنّ الأمواج قد التهمت أحرفها الحمراء. لم تبقَ سوى بعض آثارٍ ما تزال صامدةً، حيث رسم بيديه منذ زمنٍ بعيدٍ اسم «روزينها»، وكانت هناك بقايا حبلٍ مترهّلٍ مازال يشدّ الزّورق على نحوٍ يُشبه المُعجزة، تفتّتَ ما إن لمسَه بيده.

كان جوفها مُمتلئًا بالماء، فأخذ زي أوروكو يُفْرِغُه بيديه، لقد أصبحتْ أكثر منه شيخوخةً، روزينها المسكينة!

جذبها إلى الضّفة قليلًا وتأمّل ثُقوبها، فخمّن أنّ عليه سدّها في الحال، ولكن كيف؟ لا تُوجد إلّا طريقةٌ واحدةٌ! قطع شريطًا من قميصه وسدّ به الثُّقوب، بعد ذلك كان عليه أن يتأكّد من أنّ الزّورق مازال قادرًا على تحمّل وَزنه، لذا استقرّ في المُؤخّرة بكُلّ حذرٍ، ومن حسن حظّه أنّ القارب لم يغرق. من يرى زي أوروكو يتصرّف على هذا النّحو، لن يُصدّق أنّه قادرٌ على المشي عشرة أمتارٍ، فما بالك بقُدرته على عُبور النّهر الّذي يبلغ عرضه كيلومترًا في هذه النّاحية!

راح يتحرّك في اتّجاه التيّار، كانت الشّمس تشوي جلدتَه الّتي صارت ناعمةً، وكانت يداه النّحيفتان تحترقان أثناء تجذيفهما بصُعوبةٍ، لقد مرّت سنواتٌ وكانت كفيلةً بجعلهما تنسيان كيفيّة التّعامل مع المجاذيف!

أزاحت رياح النّهر غَمامةً من البعوض فأسعفته بنفَسٍ مُنعشٍ، والحقّ أنّه لم يكن من المُمكن أن يشعر بهذه الانتعاشة لو لم يتلقِ بروزينها.

تولّى زي أوروكو دفّة القيادة ووجّه الزّورق نحو الشّاطئ. لقد أصبح بعيدًا عن حاجز بيدرا، وعندما يحلّ اللّيل سيكون مُجبرًا على العودة إلى منحنى النّهر القريب من المرعى ومُناداة جيريبيل ليُساعده على إخراج القارب من الماء. هذا ما ينبغي أن يحدث.

اختار أبعد شاطئٍ عن النّاس وأكثرهم اختفاءً، إنّه في حاجةٍ إلى هذه العُزلة.

كان أمامه مُتسّعٌ من الوقت، فقرّر أن يسبح، لقد مضى وقتٌ طويلٌ على آخر مرّةٍ فعل فيها ذلك، لذا خلعَ ملابسه وألقى بنفسه في النّهر. تسرّبت قطرة ماءٍ إلى حنجرته، فبصقها مثلَ دلفينٍ عجوزٍ. آه! إنّ الأسماك تداعبُ جسده الأبيض، وقد شعر بالبرد، فغادر النّهر واستلقى على الرّمال حيث ما تزال الرّياح تُبعد البعوض وتعبثُ به مثلما تشاء.

كانت الشّمس تنزلق من بين أشجار ضفاف ماتو غروسّو الشّاسعة، سيطلّ اللّيل حذرًا خلال أقلّ من ساعةٍ، وفي انتظار حدوث ذلك، تمدّد زي أوروكو على ظهره واضعًا يديه تحت شعره المبلّل، ومُتأمّلًا السّماء الّتي بدَتْ تحتفلُ بشيءٍ مّا غامضٍ، كانت الألوان مُبهجةً، غطّتها الغُيوم دون أن تحجبها، وهكذا تشكّلت صورٌ تُشبه نيرانًا مُشتعلةً في الأُفق البعيد، وفوقه مُباشرةً حلّق سربٌ من اللّقالق الكبيرة والصّغيرة وراح يحوم راسمًا دوائر تذروها الرّياح. لم يفكّر في شيءٍ، كان يتأمّل المساء في صمتٍ، لا أكثر.

حينئذٍ حدث شيءٌ غريبٌ. تَتَابع وُقوفُ شعيْرات جسده وَتردّد أنينٌ بجواره، لا شكّ أنّ نعاسًا خفيفًا عبر من عينيْه، لا شكّ أنّه مُجرّد حُلمٍ! لا يمكنه تصديق غير ذلك... لكنّ الأنين راح يتصاعد حتّى وصل صوتٌ ضعيفٌ إلى مسمعه:

- هذه أنا، زي أوروكو.

صار الصّوت غليظًا ومُرتعشًا.

التفت مذعورًا وأزاح الرّمال الّتي علقت بظهره، ثُمّ اقترب من حافّة الشّاطئ دُون أن يقف. جعله حُزنه يرتعد، لا شكّ أنّه يحلم، لا أكثر!

«الشّجرة شجرة. والزّورق لا يتكلّم».

رغم خوفه، لم يمنع زي أوروكو نفسَه من القيام بمُغامرةٍ غريبةٍ، فقد سحب جسده مرتكزًا على مرفقيْه ودفعه بأسفل رجليْه حتّى اقترب من الزّورق ولامس خَشَبه بشعر وجهه.

- أرجوكِ!

قال متوسّلًا وباكيًا:

- أرجوكِ روزينها، لا تقولي إنّك تتكلّمين، لا تقولي إنّي أفهمكِ!

ابتلع ريقه الّذي كان له طعم الدمّ، وسيطرت عليه مشاعر قويّةٌ إلى درجةٍ جعلت قلبه يتقافز على رمال الشّاطئ.

- أرجوكِ، روزينها لا تقولي شيئًا... عليّ أن أتأكّد من أنّي شُفيتُ!

أجابه ضحكٌ مُرْهِقٌ:

- لماذا أيّها المُغفّل؟ لا أحد يحتاج إلى معرفة ذلك... ثمّ إنّ الأمر لن يطول بيننا هذه المرّة...

وضع زي أوروكو يده على فمه، لم يكن يعرفُ ما يتوجّب عليه أن يفعل. كان العرق ينزل باردًا من كلّ جسده المرتعش.

تابعت روزينها:

- لقد تأخّرت كثيرًا زي أوروكو، آه لو تدرك الجهد الّذي بذلته كي أظلّ على قيد الحياة حتّى تعود! ماذا حدث لك؟

نظرت إليه في عينيْه، كانت تريد التّنقيب في داخل روحه:

- لا تكن على هذه الحال، ما الّذي باستطاعتي فعله؟ أعرف أنّك في أعماقك ترغب في تكرُّرِ الأمر، إنّه السّبب الوحيد الّذي يُفسّر عودتك.

- لقد عدتُ بسبب وعدي...

- وقد بقيتُ على قيد الحياة بسبب وعدك أيضًا.

راحت روزينها تتنفّس كأنّها تلهث، وقد كانت كلّ أقوالها مُتقطّعةً مثل أقوال شخصٍ مُنهكٍ يستعدُّ للنّوم:

- لكنّك تأخّرت كثيرًا زي أوروكو، في النّهاية ليس الزّورق إلّا شجرةً، وحزن الأشجار أعظم من صبرها.

لم يعد زي أوروكو قادرًا على التّحدث معَها، لقد مرّ وقتٌ طويلٌ على ذلك، واكتسب في المدينة قناعاتٍ جديدةً جعلته يُقرّر ألّا يَحدث مُجدّدًا ما حدثَ لهُ في السّابق.

- إذَن مازلتُ مجنونًا، مجنونًا مثل الرّجل الّذي يَمشي بجرائد تحت إبطه، مثل ذاك الّذي يشكو من عدل الله!

- أنت مجنونٌ؟ لماذا؟ لأنّك تفهم الأشجار وتتحدّث مع الأشياء؟ هذه فكرةٌ حمقاء يا زي أوروكو! المجانينُ هم

النّاس الّذين فقدوا القدرة على إدراك شاعريّة الخالق، إنّهم أولئك الّذين تصلّبوا وتصلّبت قلوبهم ولم يعودوا قادرين حتّى على أن يفهم بعضهم بعضًا. إنّ المجانين الحقيقيّين هم من فقدوا القدرة على الإحساس!.

اكتفى زي أوروكو بحكّ شعر رأسه، وقد كان مُضطربًا جدًّا ولا يعرف بأيّ الحجج يُجابهها. لكنّ روزينها لا تبدو راغبةً في التّوقّف، وحدَه اللّيل سيكون قادرًا على إسكات هذا الصّوت الضّعيف المُشرفِ على الانطفاء:

- لقد نسيتَ كلّ ما حدّثتني عنه حول شيكو! ألم يكن شيكو يتحدّث مع الذّئاب؟ ورغم ذلك، لم يُعامله النّاسُ على أنّه مجنونٌ، صحيح؟

- لكنّ شيكو كان قدّيسًا.

- لسنا مُخوّلًا لنا تقرير مَن يكون قدّيسًا ومن لا يكون...

ساد صمتٌ قصيرٌ.

كانت ظلالُ اللّيل تتسرّبُ إلى الشّاطئ، وبدأت السّماءُ تخلو من الطّيور الكبيرة، بقيَ البعض منها، تلك التي تأخّرت في العودة، وها هي بصدد شقّ الفضاء بحنينٍ يُعلن عن اقتراب وقتِ النّوم.

حينَئذٍ كرّر زي أوروكو القول الّذي سمعه من شخصٍ مّا ذات يومٍ:

- أريد أن أريح قلبي، روزينها.

- أرحْه إذَن! ابحث عن راحتكَ ولا تأبه بي، فكّر في قلبك ولا يهمُّ ما أشعرُ به أنا، لا يهمّ قلبي الّذي ينتبه إليك أكثر ممّا تنتبه الأمُّ إلى طفلها...

أُجبر زي أوروكو على قول كلّ شيءٍ لها، حدّثها عن الطّريقة الّتي عامَلوه بها في الملجإ النّفسيّ، وصف لها طريقتهم الوحشيّة، الحقن، الصّدمات الكهربائيّة، العقوبات، دروس «الشّجرة شجرة لا أكثر»، الزّنازين الخالية من ضوء النّهار ومن النّظافة، الأزياء المُوحّدة المفروضة على الجميع...

- وهل كنت تفكّر في روزينها من حينٍ إلى آخر؟

- كلّما أُتيحت لي الفُرصة، سرًّا، لأنّهم إذا تفطّنوا إلى ذلك سيتصرّفون معي بالطّريقة نفسها وستُعاد سلسلة التّنكيل نفسها، أفكّر فيكِ عند الظّلام، وفي الحُلم أيضًا.

- مسكين!

- هناك شيءٌ لا أفهمه: لمَ لم تقولي لي شيئًا عندما علمتِ أنّي ذاهبٌ إلى المصحّة؟

- لم تطلب منّي ذلك.

- صحيح.

- والآن، كيف تشعر؟

- أقلّ حزنًا، وماذا عنكِ، ما الّذي فعلوه بكِ؟

جاءَ دورها لتروي له حكايتها كَاملةً، لكنّ قصّتها كانت أقلّ

تعقيدًا وأقلّ طولًا، وصفت لهُ كيف أساؤُوا مُعاملتها، وكيفَ لم تسمح لأحدٍ بأن يركبها مُطلقًا، كانُوا يكيلون لها ضرباتٍ من المجذاف فضلًا عن أنّهم حذفوها بالأحجار، لكنّ كلّ الّذين أساؤوا إليها لاقوا جزاءهم. كان جزاءً من قبيل السّقوط عن ظهر حصانٍ أو عضّة حيوانٍ من الحيوانات، وخزةٍ من شوكةٍ مُتعفّنةٍ أو جرحٍ تسبّبت فيه شظيّة زجاجةٍ مَكسورةٍ. أقلّ ما حدث كان لطفلٍ تعثّر في مشيته ففَقَد أحد أظافره. هذا كلّ شيءٍ، وكان هذا كافيًا ليتركوها في سلامٍ تامٍّ. ولكنّ هذا السّلام مثّل طريقةً أُخرى للإساءة، فقد تخلّوا عنها نهائيًّا وتركوها مشدودةً بحبلٍ صغيرٍ في مهبّ السُّيول الكُبرى، فانسدّت أنفاسها، وشُنقَ عنقُها بالحبل، وتخبّطت في كلّ الاتّجاهات في خضمّ المياه الهادرة لتصطدم آلاف المرّات بأرضيّة الضّفّة.

قالت روزينها:

- والآن...

- الآن ... ماذا؟

قاطعَها، لكنّ قلبه كان يعرف الإجابة مُسبقًا.

- لقد حلّ اللّيل وها إنّ الرّياح تندفعُ بقوّةٍ، زي أوروكو.

- لا يا روزينها، أفضّلُ أن...

- أن أتعفّن بين الرّوائح الكريهة في زريبةٍ للدّوابّ؟

ضغط زي أوروكو إحدى يديْه بالأخرى، لم يجد ما يُجيب به، فاستمّرت روزينها:

- أم إنّك تريد أن تتركني هُنا؟ يومًا مّا ستهطل الأمطار،

سيصعد مستوى النّهر وسأُعاني كثيرًا حتّى تتكرّم يدٌ بِجَرِّي إلى مكانٍ قريبٍ من النّار، هل ترى؟ إنّ مصير الأشجار واحدٌ...

ظلّ زي أوروكو جالسًا برأسٍ محنيٍّ، تاركًا للرّيح فُرصة التّلاعب بشعره الأبيض المُجعّد.

- لقد أتيتَ من أجل هذا، أليس كذلك؟ ماذا إذَن؟ لا توجد نهايةٌ أكثر ملاءَمةً من الموت قُرب شخصٍ نحبّه.

ثُمّ ضحكت روزينها:

- إنّي عجوزٌ يا زي أوروكو، عجوزٌ ومتهالكةٌ، يعلم اللهّ بما قمت به من جهودٍ حتّى لا أغرق في المياه، أقسم لك أنّي لن أصمد ثانيةً أمام عبور النّهر، إنّي عجوزٌ بكلّ ما في العجز من لاجدوى!

كان صوتها غليظًا ووَهِنًا إلى درجة أنّه مزّق قلب زي أوروكو، فهو يَصله لاهثًا، وأحيانًا لا يصله كلامها كاملًا، فهو خفيفٌ وضعيفٌ إلى حدٍّ يجعلُ الرّياح قادرةً على أخذ بعض حُروفه بعيدًا:

- سأُصلّي صلاة الوداع، ولكن لا تبكِ عند سماعي، لقد مدّني كالمَنتا بالصّبر الّذي أحتاج إليه. سأطلب منك أن تقوم ببعض الأشياء من أجلي، هذا ليس أمرًا، إنّه طلبٌ حميمٌ ليس أكثر، في البداية، ستجمع بعض الخشب على الشّاطئ من أجل إشعار نارٍ هائلةٍ، اجعلها بالقرب منّي حتّى لا تنهك نفسك، بعد ذلك، وعندما تتوهّج النّار بما يكفي،

ستجرّني قُربها. وفي هذه اللّحظة سأُؤَدّي صلاتي. هذا كلّ شيءٍ. هيَّا، اذهب!

وقف زي أوروكو مثل أيّ شيءٍ بلا روحٍ، وبدتْ له هذه اللّيلة الرّائعة والعامرة بالنُّجوم ميّتةً. لقد تجمّعت كلّ أحزانِ حياته في بُعدٍ واحدٍ، وفي مدًى لا نهائيٍّ.

سكبت روزينها دمعتيْن صغيرتيْن حين لمحت صديقها بصدد الابتعاد، حشدت كلّ حنان قلبها ونظرت إلى السّماء، ثُمّ انطلقت في ترديد صلاة وداعها.

«إلهي!

شكرًا على كلّ شيءٍ!

شكرًا على جعلي أُولد شجرة لاندي جميلةً!

شكرًا على تمكينكَ الهُنود من اكتشافي!

شكرًا، لأنّكَ حفّزتهم على أن يصنعوا منّي زورقًا صغيرًا وجميلًا!

شكرًا على كلّ المساءات العذبة ومشاهد الغروب الّتي سنحت لي فرصة رؤيتها!

شكرًا، لأنّك جعلتني أصمد أمام رياح النّهر العظيمة!

شكرًا لأنّ نهري كان الأراغوايا، النّهر الأجمل في العالم!

شكرًا لأنّك جعلتني أحظى بمَالكيْن لا أكثر، كوروماري الّذي خدمته بكلّ قلبي، وزي أوروكو الّذي وهبته كلّ حبّي!

شكرًا على ما منحتني من صبرٍ ساعدني على تحمّل فترات الحزن القاسية!

شكرًا على كلّ شيءٍ مضى، وشكرًا على ما سيحدث أيضًا: لقد هيّأتَ لي فرصة الموت مثلما تمنّيت تمامًا، قرب شخصٍ أحببته دومًا!

شكرًا، يا إلهي، لأنّ الحياة رائعةٌ رغم كلّ شيءٍ!».

لم يعد صوتها أكثر من تمتمةً، ولكن لم يعد لديها ما تقول حتّى إن أرادت مواصلةَ كلامها...

ظلّت تُدقّق السّمع بأذنيْها العجوزَين مُحاولةً إدراك حثيث خطاه، وقد عاد زي أوروكو بحزمةٍ على كتفه مُعترفًا لنفسه بأنّه لم يعد قادرًا على أعمالٍ مثل هذه، فعضلات ظهره تُؤلمه، ولوحُ كتفيه يتهشّم من فرط ثقل الخشب.

رمى الحُزمة أرضًا، ودلّك يديه إحداهما بالأخرى قائلًا لها:

- ها قد أنهيتُ، روزينها!

- حسنًا. والآن، أوقد النّار!

جثا على ركبتيْه ليجمع أغصانًا رقيقةً وجافّةً، ثُمّ أشعل عود ثقابٍ وحماه من الرّياح. نشب في البداية لهبٌ أزرق، ثمّ انطلقت فرقعاتٌ مُتتاليةٌ وتصاعدت نارٌ عظيمةٌ.

اقترب منها مُتعثّرًا، إنّه لا يريد قول شيءٍ حتّى لا يفقد شجاعتَه.

- جُرَّني إلى مكانٍ أقرب، ينبغي أن أجفّ قليلًا قبل أن نبدأ.

مسك بمُقدّمة القارب الّذي كان قديمًا حتّى إنّ فُتاتًا تساقط من حوله.

- لا ترتعب يا زي أوروكو، فلقد صرتُ عاجزةً حتّى عن البكاء منذ أن أخرجتني من المياه، لم أعد أرى أيضًا، لذا لا تخفْ، لن أشعر بشيءٍ.

- أنا من سيبكي...

- ليست أكثر من حماقاتٍ، يا صديقي! في النّهاية، المكان مُظلمٌ، لن يراك أحدٌ...

غمس قدميْه في الرّمال مُجمّعًا قوّته، لا بُدّ أن يفي بوعده.

ارتاح قليلًا وظلّ ينظر إلى القارب، لا طائل من الكلام مادامت قد أخبرته بأنّها لم تعد تشعر بشيءٍ.

على بريق النّار، تأمّل جسم القارب الميّت وحاول أن يحسَّ بحُزنه! يَلزم وقتٌ طويلٌ حتّى تتحوّل البذرة إلى شجرةٍ! ثمّ سنوات وسنوات من الصّمود لتُصبح الشّجرة كَبيرة، بعد ذلك يأتي الهُنود ليقطعوها ويحوّلوها إلى زورق... والآن ستتحوّل إلى قليلٍ من الرّماد الّذي ستجرفه الرّياح، ستضيعُ في الهواء والنّهر وستختلط برمال الشّاطئ...

لكنّ زي أوروكو نفّذ وعدَه، وعندما غطّى الرّمادُ الأزرق الشّاطئ، عندما انطفأت النّار وهبّت الرّيح لتحرّك الرّمال وتحمل ما تبقّى منها صَوب مصيرٍ آخر غير معلومٍ، راح يتمشّى مُتثاقلًا على الشّاطئ، وقد خّف حزنه قليلًا.

كانت الرّياح تُغّني بين ثيابه لتدفعه كما لو أنّه رجلٌ من رمادٍ.

أخيرًا وفى بوعده، وَأحرق حياته.

لم يبق أمامه الآن سوى الرّحيل، لأنّه غير مُتأكّدٍ من شيءٍ، إنّه لا يعلم إن كان مجنونًا أم لا، وإن كان من الأفضل له أن يكون شخصًا عاديًّا أو شخصًا بشخصيّةٍ ضعيفةٍ تتأثّرُ بأيّ تفصيلٍ من تفاصيل الوُجود، لم يكن متأكّدًا من شيءٍ، ولكنّ أمرًا واحدًا بات واضحًا في ذهنه: عليه أن يبتعد عن هذا المكان بسُرعةٍ قُصوى.

حاول مُناداة جيريبيل لكنّه أدركَ أنّ صوته قد اختفى. أعاد الكرّة وصرخ فعليًّا، فأجابه الأسود من الضفّة الأخرى. وبينما كان ينتظر جيريبيل، استلقى على الشّاطئ وراح يرسم مخطّطاتٍ سريعةً في ذهنه، أن يبقى هُنا ويُرمّم كوخه، لا! لم يعد لديه صبرٌ يكفيه لانتظار عصافير لن تعود مُطلقًا!

لقد انتهى النّهر بعد أن فقد روزينها! انتهت ضفاف النّهر! إنّه يريد أن يرحل وألّا يتوقّف في مكانٍ إلاّ من أجل أن يتلقّى معاشه القليل كلّ ستّة أشهرٍ، أمّا باقي الوقت فسيقضّيه على الطّريق، لأنّ الشّيخوخة قد تمكّنت من رسم علامتها على جسده وقد بدأت في سلبه حيويّة عضلاته.

ما سيفعله هو التّالي، إنّها فكرةٌ قديمةٌ لطالما تأمّلها: سيشتري حصانًا، هذا ما يلزمه تمامًا! من بين كلّ الأشياء، يبدو الحصان أكثر ما سيُلائمُه، إذ يصلح أن يكون رفيقًا ووسيلة نقلٍ في آنٍ، سينام في أيّ مكانٍ متى يحلّ اللّيل، سيتوقّف لتناول أكله على حافّة الجداول، سيطهو سمكةً صغيرةً أو يشوي قطعة لحمٍ بالقرب من الماء المائل إلى الزّرقة في أحد الوديان، وليلًا، سيُعلّق سريره ويُهدهد نفسه ما بين

غُصنيْن ويغرق في تأمّل تمايل النّجوم، ستُومض من كلّ الجوانب المُحيطة به حتّى يغرق في النّوم.

حصانٌ صغيرٌ، نعم حصانٌ صغيرٌ، فهو لا يحتاج إلى حيوانٍ ضخمٍ وهائجٍ لأنّه لا يريد أن يجلب انتباه أحدٍ، إنّه لا يقوم بهذا ليلاحظه الآخرون، لكن ليحصل على رفيقٍ، ليس أكثر. سيكون من المُمكن أن يعيش حياة التشرّد، فهو لا يلتزم بشيءٍ تُجاه أحدٍ، لا مسؤوليات له، سيتبع قلبَه العجوز دومًا، سيسير معه إلى الأمام وسيصدّقه، سيصعد على ظهر حصانه الصّغير وسيتوغّل مُتقدّمًا في كلّ نواحي البرازيل، فالبرازيل بلدٌ جميلٌ وبهيٌّ، لا ينتهي جمالهُ مطلقًا، لن يصلَ قطّ إلى نهايته، وإذا حدثَ ذلك، سيعود على أعقابه ويسيرُ في طريقٍ مُغايرةٍ للطّريق الّتي سار فيها.

ابتسم زي أوروكو، لأنّ الأشياء الأكثر سذاجةً غدت عجيبةً الآن. من حسن حظّه أنّه كان في البرازيل، لأنّه لو كان في أوروبّا مثلًا، لما حظي بمثل هذه الحلول، فأوروبّا ليست مُهمّةً في نهاية المطاف، سيتطلّب الأمر يومَيْن من المشي حتّى نُغادر سويسرا، يومَيْن آخرين لنبلغ نهاية البرتغال، ونسافر بعد ذلك ثلاثة أيّامٍ لنعبر فرنسا، يُقال إنّ البلد الوحيد الّذي يتّسم بالفساحة في أوروبّا هو روسيا، هذا إذا سمحوا لك بدُخولها، لذا لن تكون هذه القارّة ملائمةً لرجلٍ مثله يرغب في قضاء حياته في التّرحال دُون وجهةٍ معلومةٍ.

تائهًا وسطَ أفكاره، لم يلاحظ قارب جيريبيل الّذي رسا بالقرب منه. قال جيريبيل:

- هل تصعد سيّد زي؟

- أنا قادمٌ.

عبرَا النّهر في صمتٍ مُطلقٍ، ثمّ تسلّق زي أوروكو ممرّ الميناء الكبير وتوجّه صوب كوخ مادرينها فلور مُتجنبًا نباح الكلاب.

- هذا أنت، زي أوروكو؟ لقد وضعت لك الحساء هُناك، في الرّكن قُرب الموقد، ماذا كنت تفعل على الضّفّة الأخرى من النّهر؟ لقد تأخّرت. انشغلنا عليك بسبب رجال الشّافنتيس[1]...

ابتسم زي أوروكو بنُعومةٍ، لا يمثّل رجال الشّافنتيس خطرًا الآن، فقد صاروا مُتحضّرين، يعيشون انتكاسةً كبيرةً، فينزلون إلى حدود ريو داس مورتيس بأجسادٍ مكسوّة بالكامل، ليتوسّلوا من أجل الحُصول على عملٍ.

- كُنت أتأمّل اللّيل مثلما كُنت أفعل في السّابق.

وضعت مادرينها فلور المصباح فوق الطّاولة، فحامت حوله حشراتٌ بأجنحةٍ كبيرةٍ كأنّها تُريد التهام النّور. كان الوشاح الموضوع فوق رأسها يغطّي البياض الّذي احتلّ شعرها بالكامل، وقد ذهبت لتبحثَ عن طبق زي أوروكو ببطءِ العجائز.

- هل تعرفين أحدًا يملك حصانًا صغيرًا للبيع، مادرينها فلور؟

(1) الشّافنتيس: Chavantis أو Xavante من قبائل المنطقة.

جلست على المقعد، ثُمّ دفعت الكوب بقوّةٍ في اتّجاه إبريق الكاراجا:

- حصانٌ صغيرٌ، حصانٌ صغيرٌ... لا.

حينئذٍ أدخلت يدها في جيْب تنّورتها من جديدٍ، مُستسلمةً لشيخوختها الّتي لم تعد خفيّةً ولا يُمكن أن يمرّ أحدٌ بجانبها دون أن يلاحظها. أخرجت الغليون الّذي تُدخّنه كلّ العجائز اللّواتي في عمرها، فانتشرت رائحة التّبغ في كلّ الأرجاء.

- ألا يمكن أن تكون فرسًا صغيرةً؟

لم يُفكّر زي أوروكو في هذه الإمكانيّة، لكنّ المفاجأة كانت مُمتعةً:

- ليست فكرةً سيّئةً.

- لبيدرو كوريمبا واحدة، وهي رائعة.

- هل هي صغيرة؟

- لا تتجاوز الأربع سنواتٍ.

- وهل هي للبيع؟

- أعتقد أنّه سيبيعها إذا اقترحت عليه سعرًا جيّدًا.

أنهى زي أوروكو طبَقه دُون أن يشعر، ثُمّ أزال بعض دقيق البفرة العالق على ذقنه بظهر يده.

كان في سريره المُعلّق يدخّن بكلّ ما أوتي من طاقةٍ، قامعًا حُزنَه بفقدانه روزينها، وقد كان يضعُ مخطّطاتٍ جديدةً، وهذا أمرٌ جيّد

له، لأنّه من خلال ذلك يتأكّد أنّه ليس بالعجز الّذي يتصوّره، ففي نهاية الأمر يعني العجزُ أن يكون المرء بلا جدوى تمامًا. يرغبُ زي أوروكو في شراء حيوانٍ صغيرٍ، لأنّ قلبه لم يعد قادرًا على تحمّل خسارةٍ أُخرى، ومادامت الفرس شابّةً، فهذا يعني أنّها هي ما سيدفنه. سيضاعف الثّمن لبيدرو كوريمبو إذا رفض أن يبيعه إيّاها.

تصاعد صوت مادرينها فلور من الغرفة:

- هل نمت يا زي أوروكو؟

- ليس تمامًا. لماذا؟

- هل ستترك النّهر؟

- ربّما.

- ألن تعود مُجدّدًا؟

- إنّنا نعود دومًا، حتّى الماء الّذي تشربه الدّوابّ يعود في يومٍ مّا، فلماذا لا أعود أنا؟

واصلَ تفكيرَه في الفرس بينما صمتت مادرينها فلور.

وفي صباح الغد لم يضطرّ زي أوروكو إلى مُضاعفة الثّمن، فقد قال له بيدرو كوريمبا وهُو يحكّ شعرَه المجعّد الّذي بدأ يغزوه الشّيب:

- إنّك تُقدّم لي خدمةً بشرائك الفرس، سيّد زي أوروكو.

- لماذا، هل هي مريضةٌ؟

- مريضة؟ لا، مُطلقًا. إنّها أكثر قوّةً من الشّمس.

- عن أيّ خدمةٍ تتحدّث إذَن؟

- إنّها لا تفعل شيئًا ممّا أريدها أن تفعله، إنّها مسألة عملٍ، لا أكثر.

- وماذا تفعل بدلًا من ذلك؟

- إنّها مُتشرّدةٌ كبيرةٌ، جوّالةٌ، حدّثها عن الهرولة وستصغي إليْك لا محالة.

- هذا تمامًا ما يلزمني.

ذهبَا لُمعاينة الفرس في المرعى، فلم تكفّ عن تحريك أذنيْها وهي تنظر إلى الرّجليْن بعينيْها الواسعتَيْن البريئتَيْن. قفزا على الحاجز وذهبَا لتفحّص أسنانها، فقال زي أوروكو بعد ذلك:

- أنا مُوافقٌ على شرائها، وسأعطيك مبلغًا أكبر بقليلٍ لو تمكنّت من الحُصول على سرجٍ لي.

- إنّها لك.

«الآن، إلى الطّريق يا زي أوروكو».

تلاشتْ الأكواخ خلفَه في منحنى الغابة، وظلّ يُحاول ألّا يُفكّر في يد مادرينها فلور المُرتعشة وهي تُشير إليه مُودّعةً.

«هيّا، تقدّم يا زي أوروكو. البرازيل بلدٌ كبيرٌ، كثير الجمال وبلا حواجز. عند حلول منتصف النّهار، سنتناول شيئًا مّا في إحدى الأماكن المُلائمة».

كانا على الطّريق معًا، تُوكْ، تُوكْ، تُوكْ... رغب زي أوروكو في

الغناء، كم سنة مرّت دون أن يرغب في ذلك! شرع في الغناء ملء رئتيْه، مُدندنًا أغانيَ من الزّمن القديم، تلك الّتي كانت روزينها تطلبها، وقد كانت كلّ تلك الأغاني تتعلّق بزَورق:

سوف نُبحر

يا روزينها يا زورقي

لنفكّر في البحيرات الصّديقة

حيث سنلقي بصنّارتنا...

وُلدت بصدرهِ بدايةُ فرحٍ، وصار يلتمس بعضَ الجمال في كلّ شيءٍ يُفكّر فيه.

في حدود المساء، حدثت المعجزة الكبرى.

كان قد ربط الفرس وأشعل نارًا، ثمّ وضع قطعةً من اللّحم بالسّفود ليأكلها فيما بعدُ مع بعض دقيق البفرة، وفي الأثناء كانت الفرس تتغذّى على العشب الأخضر الطريّ.

كان المساء قد حلّ حاملًا معه تلك الطّمأنينة الّتي تدعوك إلى عدم التّعجّل في أيّ شيءٍ، كانَ مساءً ملوّنًا بحكمة الطّبيعة، وقد جلس زي أوروكو على الأرض واستلقى على العُشب. تناول ورقةً وراح يمضغها مُلاحظًا انهماك عصفور «الصّوفرا»[1] في بناء عشّه أسفل شجرة «الكاغايا»، فضلًا عن طائر الزّريق الّذي ناحَ بعيدًا بحُزنٍ.

---

(1) الصّوفر Sofrê من العصافير المحليّة الشّهيرة، وهي معروفة بتقليدها لحركات العصافير الأخرى، كتب عنها بابلو نيرودا قصيدة شهيرة بعنوان «أنشودة للصّوفرا».

- نحن بخيرٍ، أليْس كذلك؟

قفز عندما سمع الصّوت!

- ماذا حدث؟

لم يستطع تصديق حواسّه: الفرس تتكلّم!

- أنتِ أيضًا؟

- أنَا لا أتكلّم عادةً، الأمر مُتعلّق بكَ أنت...

ضحك زي أوروكو، ضحك من كلّ قلبه الّذي ظُلِمَ سنواتٍ طويلةً. ثُمّ توقّف عن الضّحك وقد بدَا أكثر حذرًا، قال لها:

- ماذا؟ هل تتكلّمين أنت أيضًا؟ كم يبدو هذا جميلًا!

اقترب منها أكثر، وكاد قلبه أن ينفجر من الفرح. سيبدأ كلّ شيءٍ من جديدٍ. سيتمكّن من تصديق كالمنتا، وأوروبيانغا. إنّه حرٌّ طليقٌ، بإمكانه أن يرى الجمال ويلمسه، بإمكانه أن يستمتع بكلّ ما في الوُجود من حركةٍ وبهجةٍ، من طنين صرصارٍ حتّى ولادة ورقة صغيرةٍ في أحد الأغصان.

عثرت السّماء على كلّ نجومها ووجدت الرّياحُ كلَّ نعومتها، حتّى شعره الأبيض تمكّن من إيجاد جماله وألقه.

- ها إنّي مجنونٌ من جديدٍ، بفضل الله. شكرًا شيكو!

حينئذٍ لم يمسك نفسه، بل ضمّ رأس الفرس إلى صدره بحرارةٍ:

- إنّك رائعةٌ.

- هذا رأيي فيك أيضًا، زي أوروكو.

- تعرفين اسمي أيضًا، آه؟

- لقد أسرّته لي العصافير، لكم تمنّيت أن تشتريني.

- صحيح؟

- أقسمُ لكَ.

- إذَن، أنت تحبّين السّفر؟

- لا أحبّ غيره. غدًا سنرحل باكرًا وسنكتشف معًا أشياء رائعةً جدًّا، ألَيْس كذلك؟

- أظنّ ذلك، نعم... سنتوغّل في البرازيل، في اتّجاه الشّمال، الجنوب، الشّرق، الغرب، وإذا استطعنا سنصل إلى البحر.

- هذا رائعٌ جدًّا! ولكن، يوجد أمرٌ أودّ أن أعرفه.

- ما هو؟

- ستطلقُ عليَّ اسمًا، أليس كذلك؟

- هل هذا ضروريٌّ؟

ابتعد عن الفرس قليلًا ونظر إلى عينيها مُباشرةً، لم يبقَ من ضوء النّهار سوى القليل، لمح خطّين يلمعان في سوادهمَا، لكنّهما لم يكونا مجرّد خطّين، يُمكنه أن يُقْسم على ذلك بأكثر الأشياء قداسةً عنده: لقد رأى «روزنهاتيْن» تَنزلقان عبر نهرٍ هادئٍ وبعيدٍ، فلمعت له فكرةٌ جليّةٌ:

- هل تحبّين اسم روزينها؟

- إنّه أجمل ما يمكن أن أُسمّى به.

تنهّد زي أوروكو لآخر مرّةٍ في حياتهِ:

- ستُسمّين روزينها إذَن!

ضمّ رأس الفرس الصّغيرة إلى قلبه الّذي راح يُبعثُ من جديدٍ، ومنحها كلّ الحنان المُتاح في الوُجود:

«ستكونين...

حبيبتي روزينها».

مكتبة
t.me/t_pdf

الفهرس

القسم الأوّل

نبَاتات

(1) ثرثرة عاشقة 7
(2) حكاية رجلٍ بسيطٍ 15
(3) لغةُ الأشجار 37
(4) ليلة ناعمة........................ 101
(5) نَهْرٌ خَارقٌ........................ 121
(6) خُفّان أبيضان 153
(7) أغنية الشّيخوخة 187

القسم الثّاني

حبيبتي، روزينها

(8) لَيَالٍ بلا أُغْنِيَات 191
(9) أورُوبِيَانْغَا، قانونُ الغابِ 207

(10) أُغنية ماريا أنطونيا 229

(11) كَالَمَنْتا 255

(12) العودة إلى الوهم 277

(13) حبيبتي، روزينها 297

صدَر للمؤلّف نفسه
عن دار مسكيلياني

شجرتي شجرة البرتقال الرائعة

(ثلاثيّة زيزا، الجزء الأوّل)
المؤلف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل
ترجمة: إيناس العبّاسي

من هذا الطفل الذي يناديه الجميع بالشيطان الصغير ويصفونه بقط المزاريب؟ وأيّ طفلٍ هذا الذي يحمل في قلبه عصفورًا يغني؟

«شجرتي شجرة البرتقال الرائعة» للكاتب جوزيه ماورو دي فاسكونسيلوس عمل يُدرّس في المدارس البرازيلية وينصح الأساتذة في المعاهد الفرنسية طلبتهم بقراءته...إنه عمل مؤثّر وإنساني على لسان شاعرٍ طفلٍ لم يتجاوز عمُره خمس سنوات... عمل لا يروي حكاية خرافية ولا أحلام الصغار في البرازيل فحسب، بل يروي مغامرات الكاتب في طفولته، مغامرات الطفل الذي تعلم القراءة في سن الرابعة دون معلم، الطفل الذي يحمل في قلبه عصفورًا وفي رأسه شيطانا يهمس له بأفكارٍ توقعه في المتاعب مع الكبار...

هذه رواية عذبة عذوبة نسغ ثمرة برتقال حلوة... رواية إنسانية تصف البراءة التي يمكن لقلبِ طفلٍ أن يحملها وتعرّفنا إلى روح الشاعر الفطرية... حكاية طفل يحمل دماء سكّان البرازيل الأصليّين، طفل يسرق كل صباح من حديقة أحد الأثرياء زهرةً لأجل معلّمته... وهو يتساءل بمنتهى البراءة: ألم يمنح الله الزهور لكل الناس؟

هيّا نوقظ الشمس

(ثلاثيّة زيزا، الجزء الثاني)

المؤلف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل
ترجمة: أشرف القرقني

زيزا، طفلُ السّادسة المصابُ بحنانٍ طافح يسيل من الأشياء البسيطة من حوله، المطلّ على عالم الكبار بأحلامه التي تشرق من شجرة برتقاله الرّائعة، المربك لقواعدهم، الباحث فيها عن يدٍ حانية وإن كانت وهمًا يرتعش على صفحةِ نهرٍ وحيد، ها هو يُبعَد الآن عن عائلته وقد صار في الحادية عشرة، مُفرَدًا، مُصابًا بالحنين، مرتّبَ الهندام، نظيفًا وباردًا من الوحدة، مشدودًا مثل وترٍ بين المدرسة الإعداديّة ودروس البيانو. أيّ ثقلٍ يُمكن أن يزنه عالم كهذا على كتفيْ طفلٍ ينزلق إلى المراهقة محمّلًا بذكريات الشّوارع المغبرّة والأزقّة والدفء الحارق الذي يحوّم حيث يسكن الفقر؟ كيف يشعر هذا الفتى، وقد صار يسكنُ بيت عائلة جديدة ثريّة، تحَوَّل فيها من شيطانٍ أزرق إلى ملاك مطيع؟ هل يظلّ على ذلك النّحو، وقد صار قلبُه الجديد يكلّمه من داخله ويضيء عزلته بشعلة الأحلام ذاتها، ويخوض معه معاركه الصّغيرة، وصولا إلى لسعة الحبّ الأولى؟

المختول

(ثلاثيّة زيزا، الجزء الثالث)
المؤلف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل
ترجمة: أحمد فؤاد بن حاج صالح

«زيزا» مرة أخرى، «زيزا» المرتبط بشجرة البرتقال الذي لا يمكن نسيانه و قد بلغ سن المراهقة وهو يعبرها بفرح وتوهج، محمّلًا في الآن ذاته ببعض الإحباطات. يصف هذا الكتاب تلك المرحلة الرائعة من الحياة، وهو، على الأرجح، أكثر أعمال جوزيه ماورو تعلّقًا بسيرته الذاتيّة، وهو أمرٌ يقرّه الكاتبُ نفسُه قائلًا: «من بين كلّ كتبي، هذا الكتاب أكثرها قربًا منّي...».

حوارات حيّة، أحاسيس متدفّقة، شعريّة عالية، مزايا يؤكد عليها المؤلف في صفحات هذا العمل الفريد.

صدَر مؤخَّرًا عن دار مسكيلياني

التحوّل

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أشرف القرقني

ما الذي كان يدور في ذهن ستيفان زفايغ وهو يخطُّ آخرَ حرفٍ في رواية «التحوّل»، قبل أن يُنهي حياته في منفاه الاختياريّ بالبرازيل؟ ترى هل كان يكتبُ وصّيتَهُ الأخيرة، مُوَّقِعًا على شهادةِ إدانةٍ مكتومة، شهادة تُدين عالمًا لا يُحرّكه الحبُّ، بل أباطرةُ المال والنفوذ المسعورون؟ أم تراهُ كان يتشوّفُ نهاية ذلك العالم، عالمه هو، بأبشع طريقةٍ ممكنة، وبلاده النمسا تترنّحُ أمام نظامٍ نازيٍّ قادم لابتلاعها؟

في الواقع، لم يُنه زفايغ روايتَهُ أبدًا، وحتّى العنوانُ نفسهُ لم يضعهُ هو، وكأنّنا به يُعلن استسلامهُ أخيرًا أمام وحشيّة الحرب، وتحوّلات عالمِهِ القديم.

إنّ هذه الرواية ليست قصّةً رومانسيّةً حالمة، عن فتاة تتغيّر حياتها رأسًا على عقب، فتتحوّل من موظّفة بسيطة في مكتب بريد، إلى برغيّ ضئيل في آلة جبّارة، أو عن حبيبها الذي دمّرت الحرب آخر حصون الإنسانيّة فيه، بل هي شهادة زفايغ نفسهِ، شهادة مكلومة، اختارَ أن تكون حياتُهُ هي خاتمتها الوحيدة.

المائدة الربّانية

المؤلف: دونالد ري بولوك
البلد: أمريكا
ترجمة: مهدي سليمان

بعد روايته الأولى «شيطان أبد الدّهر» يُواصل دونالد راي بولوك في رواية «المائدة الربّانية»، الكشفَ عن زيف الأساطير المؤسِّسة للحلم الأمريكيّ وإبراز تهافتها من الداخل، مستعينًا في ذلك بذاكرة الذات الجمعيّة، أي تلك الذات التي وعدتها المؤسّسات الرسميّة بالرّفاهِ في السّماءِ مقابل الاستعبادِ في الأرض.

في هذه الرواية، يعود بنا بولوك إلى سنة 1917، السنة التي قرّرت فيها الولايات الأمريكيّة دخول الحرب العالميّة الأولى، ويعرض علينا قصّةَ مزارع وأبنائه الثلاثة، قصّة فقرٍ مُعْلَنٍ مقابل وعودٍ هلاميّة بالرّفاه في الفردوس. ولكن حينما يموتُ الأب، ينتفض الأبناءُ على تلك الأساطير الطهرانيّة، ويتحوّلون إلى لصوص بنوك دمويّين.

يقدّم بولوك صورةً حيّةً ساخرة عن تمزّقاتِ مجتمعٍ يُهرول نحو المكْنَنة، واستعباد العمّال، مُعليًا قيمة التقدّم على حسابِ الطّيّبين الأبرياء المواظبين على ترديد صلواتهم. ويرسم على شاكلة لوحات «جيروم بوش»، مائدتَهُ الربّانية، مائدة تتوّزعُ فوقها أطباقٌ رهيبة تعكسُ شهوةَ مجتمعٍ إلى الهمجيّة والقتل، وانحلالِهِ التدريجيّ، فيما تواصل مؤسّساتهُ الرسميّة «طبخَهُ» إيمانيًّا، وتعزّز قبضتها عليهِ.

حداد في الجنّة

المؤلّف: خوان غويتيسولوك
البلد: إسبانيا
ترجمة: أحمد مجدي منجود

يقالُ عادة إنّ الحرب تصنعُ ثغرةً في السّماء، ولكن ماذا لو شقّت الحرب مستقبل البشرّية وحوّلت الأطفالَ إلى قتلةٍ يحاكون أعمال آبائهم الوحشيّة؟ ماذا لو انزاح القتلُ من المعنى إلى اللاّ معنى وصار تسلية الأطفال في مجتمع مزّقتهُ الحرب الأهليّة؟ بل أيّ معنى لحربٍ، كلّ ميراثِ الأطفال منها، تلك الشّهوةُ إلى رائحة الدّم؟ هذه الأسئلة وغيرها شكّلت إحداثيّات رواية «حداد في الجنّة»، للروائيّ الإسبانيّ خوان غويتيسولو، رواية فتحت أعين العالم على مآسي الحرب الأهليّة الإسبانيّة وأهوالها وأحدثت ثغرة في الوجدان الإنسانيّ لحظة نشرها.

بأسلوبٍ يمزجُ بين الشاعريّة والسرد الفجائعيّ، يقدّمُ لنا غويتيسولو رؤيتهُ الخاصّة حول عبثيّة الحرب الأهليّة الإسبانيّة وعبثيّة الحروبِ عمومًا، موقّعًا على وثيقة إدانةِ جيلٍ كاملٍ لم يجد غضاضة في تحويل الأطفالِ إلى آلةِ قتلٍ عمياء منضبطة إلى قانون لعبةِ الكبار: القتلُ هو الوجهُ الآخرُ للبراءة!

نيتشه

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أماني الزعيبي

لم يكن زمن زفايغ بعيدًا عن زمن نيتشه. ولا سيّما في ما يتعلّق بالفلسفة، فقد صنعتهما معًا وطأةُ الخواء القاتل في مواجهة النهايات المُريعة. هذا ما حدث: رأى نيتشه أفق الحرب الكبرى فاختار الجنون ووَجَّه قوّةَ إرادته إلى المزيد من العزلة، أمّا زفايغ فهو الذي عانى وطأتها وحمَل مأساتها معه أينما ذهب حتى انتهى منتحرًا في البرازيل.

الصخب والاكتظاظ، الرغبة اليائسة في التنفّس بحريّة، التنهّد المكلوم، كراهية السّلطة، والشعور الدائم بضرورة التمرّد لكي تستمرّ الحياة كما يجب... هذه الأعراض المقلقة هي التي جعلت زفايغ يتلمّس العزاء في كتابات نيتشه. وإذْ أراد أن ينقذ نفسه باللّجوء إلى نيتشه، فقد كان يحاول في الأثناء أن يُنقذ نيتشه أيضًا، ذلك الرجل الذي تُرِكَ وحيدًا في ساحة القدر ولم يعد يحظى سوى بقليل من الاهتمام.

في هذا الكتاب تشعر بأنّك صرتَ تفهم نيتشه كما يجب، وتجد نفسك في الأثناء قد فهمت زفايغ للمرة الأولى لأنّك لم تعد تراه روائيًّا فحسب.

جوزيه ماورو

رُوزينها زورقي الصّغير

«رُوزينْهَا زورقي الصّغير»، قصّةُ غاباتِ الأمازون بأدقّ دقائقها. يرويها جوزيه ماورو، صاحب «شجرتي، شجرة البرتقال الرّائعة» بحرارةِ من تاه في تلك الغابات لحمًا ودمًا وذاكرة. يشقّ البطلُ زي أوروكو النّهرَ على متن زورقه الصّغير، رُوزِينْها. وليست رُوزينْها كأيّ زورق، إنّها رفيقة درب ومعلّمة تلقّن زي أوروكو ما لامست من دروس منذ أن كانت بذرةً، فشجرةً، فخشبًا يصير زورقًا. وهي رَاوِيَةٌ أيضًا، تُطْلِع صديقها زي أوروكو على قصصٍ ساحرة تتيح للقارئ أن يلمس روح الغابة بكلّ مكوّناتها. الغابة والنّهر، كون روائيّ فريد، سحريّ وموقّع بالأمطار والفيضان والشّمس.

نضحك مع هذه الرّواية ونبكي، نعيش ونحلم. نتوه في كون طفوليّ عجيب، حيثُ يجانب البؤسُ الغرائبيَّ وتؤاخي النّعومةُ القسوةَ ويغدو كلّ عنصرٍ موضوعًا للتساؤل ومادّةً للقصّ...

صلاح بن عيّاد

telegram @t_pdf

ISBN 978-9938-24-153-2
9 789938 241532

مسكلياني